روايات تاريخ الإسلام

العباسة أخت الرشيد

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. ناجي نجيب



١٩٨٤

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢
* * *
رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الفنان
جمال كامل

رقم الايداع : ٣٦٥٥ / ٨٤
الترقيم الدولى: ٩٧٧-١١٨-٠٩٥-٩

مقدمة

● في الصفحات التالية نعرض المادة التاريخية التي تستند اليها شهرة « العباسة » أخت هارون الرشيد ، ونحاول استيضاح العلاقة بين المادة التاريخية والرواية التاريخية وحين نتحدث عن « العباسة » فنحن نتحدث بالضرورة عن ((نكبة البرامكة)) كما يشير جورجي زيدان من خلال العنوان •

والاحرى أن نفسح المجال أولا للرواية لكي تعبر عن نفسها وتتحدث مباشرة الى القارىء ، وأن ننظر الى هذه الكلمة كتعليق على الرواية أو تذييل لها ، ومن ثم فالترتيب الذى نقترحه على القارىء هو ان يبدأ بالنص وأن يعود في النهاية الى التعليق ان أراد •

نكبة البرامكة بين التاريخ والرواية التاريخية

روايات الرواة

تنوعت السجون وكثرت الطرق التي تؤدى الى السجون في العصر العباسي ، ومن بينها مصاحبة الامراء والقرب من الخلفاء وتولى المناصب ، « فنلر من نجا من الوزراء ولم يسجن وربما قتل ولم يحبس ، وربما أصابه الامران معا » وعلى كثرة هذه الوقائع فليس من واقعة منها كان لها الصدى الذى أحدثه مقتل جعفر ابن يحيى البرمكي وزير الرشيد ونهاية آل برمك سنة ١٧٨ هـ ـ ٨٠٣ م •

كان لنكبة البرامكة وقع المفاجاة ، فما ان سرى النبأ حتى عم الذهول بغداد فبكاهم الناس ، ورثاهم الخطباء والشعراء ، وحاك حولهم الخيال الشعبي والقصصي والاساطير • وذهب الرواة في أسباب فتك هارون الرشيد بهم مذاهب شتى • وعلى كثرة الروايات والاقوال والتفاصيل وأيضا الترهات تبدو دوافع الرشيد واضحة : وهي تصاعد نفوذ البرامكة وتضخم ثروتهم ، وما أصابوه من جاه

وسلطان ، حتى بدا وكان الامر لهم دونه .

البرامكة من اصل فارسي وموطنهم الاول خوراسان وجدهم الاول هو برمك ، وكان يتولى سدانة معبد بوذى فى بلخ ، وهو منصب كبير اذ ذاك . وقد ظلت سدانة هذا المعبد لاجيال في بيته ،ودخلت اسرته الاسلام بعدفتح قتيبة بن مسلم لخراسان (نحو سنة ٨٥ هـ) . واحتفظ البرامكة في خراسان بنفوذهم ومكانتهم ، حتى بعد اتصالهم بدار الخلافة فى بغداد فى عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) .

واستوزر المهدى (١٥ - ١٦٩ هـ) يحيى بن خالد برمك - والد جعفر - وعهد اليه بتاديب ابنه هارون (الرشيد) ، وتنقل الروايات أن زوجة يحيى قد أرضعت الرشيد ، وانه شب مع اولاده منذ الصبا ، وانه كان ينادى يحيى : بـ « يا ابت » .. وقد كان ليحيى بن خالد فضل كبير فى ولاية الرشيد للخلافة ، اذ عاضده ضد مؤامرات اخيه الهادى التى كانت تستهدف نزع ولاية العهد منه ، ومبايعة ابنه جعفر .

بعد تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ استوزر يحيى بن خالد وعهد اليه ببيت المال واستعان باولاده فى شئون الدولة وقربهم اليه وخالطهم ، وبعد اعتزال يحيى استوزر والداه الفضل وجعفر ، وخص بها فى النهاية جعفرا ، وعلى مرور السنين ارتفع قدر البرامكة وكثرت قصورهم على الضفة الشرقية لنهر دجلة وجرى كرمهم مجرى الامثال (فيقال فلان يتبرمك أى يتشبه بكرم البرامكة) ، وقصدهم أصحاب الحاجات ومدحهم الشعراء وخضع لهم أعيان الناس وكثرت أحزابهم ومجالسهم .. وقد دام لهم الحال حتي باغتهم الرشيد ، فذهب مجدهم بين يوم وليلة ، وكان ذلك سنة ١٨٧ هـ .

تختلف الروايات فى بيان الاسباب وأكثرها يبدو هزيلا ، أو من نسج الخيال لا يرتفع الى حجم هذا الحدث الذى يعد من أحداث التاريخ الاسلامى ويورد الطبرى (- ٩٢٣ م) فى ((تاريخ الرسل والملوك » ، بعضا من هذه الروايات . وأولها يندرج تحت

وشاية ، الوشاة وحسد الحاسدين ، وانكارهم منزلة البرامكة فى الدولة وهم من الموالى الفرس • وثانيها أن الرشـيد دفع بيحيى ابن عبد الله (وهو من زعماء العلويين) الى جعفر لسجنه،واكنه اطلق سراحه وأخفى أمره ، فلما بلغ الرشيد الخبر وتأكد منه ، اقسم أن يقتل جعفرا ، وثالثها أن جعفرا ابتنى دارا أنفق فيها نحوا من عشرين ألف ألف درهم ، فكانت اشعارا بما أصبح للبرامكة من جاه وسلطان : ورابعها أن يحيى بن خالد كان يخشى صروف الدهر وتغير الاحوال ، وأنه رؤى وهو يطوف حول البيت فى مكة ويقول : « اللهم ان كان رضاك أن تسـلبنى اهلى ومالى وولدى فاسلبنى •• الخ اللهم ان كنت تعاقبنى •• فاجعل عقـوبتى فى الدنيا •• »

فأوقع الرشيد بالبرامكة بعد قليل ، (وقد لا يعد ذلك سـببا ولكنه من وجهة البعض « اقوى الاسباب » بتعبير ابن الأثير) • وخامسها ما كان بين العباسة وجعفر وينقل الطبرى هذه الرواية كغيرها دون تفضيل أو ترجيح ، وننقلها عنه موجزة بعض الشيء وقال :

« حدثنى أحمد بن زهير •• أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب •• فقال لجعفر : ازوجكها حتى يحل لك النظر اليها اذا أحضرتها مجلسى » • واشترط عليه « الا يمسها ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل الى زوجته » ، وعقد لهما ، « وكان يحضرهما مجسله اذا جلس للشراب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيثملان من الشراب ، وهما شـابان ، فيقوم اليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلاما فخافت على نفسها من الرشيد أن علم بذلك ، فارسلت المولود مع جواز لها الى مكة ، وظل الامر مجهولا « حتى وقع بين العباسة وبين بعض جواريهـا شد ، فأنهت أمرها وأمر الصبى الى الرشيد • »

(الطبرى ٢٩٤/٨)

اخذ زيدان عن تاريخ الطبـرى كما اخـذ عن « مروج الذهب »

للمسعودى (ـ ٩٥٦ او ٩٥٧ م) ويقول المسعودى ان سبب ايقاع الرشيد بالبرامكة هو فى الظاهر « احتجان الاموال (اى اقتطاعها والتفرد بها) ، وانهم أطلقوا رجلا من آل أبى طالب كان فى أيديهم واما الباطن فلا يعلم ٠٠ » (٢٣٣/٤) ٠

ويبرز المسعودى بوضوح قصة العباسة وجعفر وهى لا تختلف من حيث المبنى عن رواية الطبرى ، ولكنهــا تتضــمن الكثير من التاصيل عن دهاء النساء « وحيل بنــات الملوك » تذكرنا بما هو مالوف فى هذا الباب فى « الف ليلة وليلة » ٠ فالعباســة وفقــا لروايته هى التى سعت حتى اوقعت بجعفر فجامعها وهو فى غيبة من فعل الشراب ، بل انها قد استعانت بأم جعفر لتصل الى مرادها:

« وانصرفت العباسة مشتملة على حمل ، ثم ولدت له غــلاما ، فوكلت به خادما من خدامها يقال له رياش وحاضنة لها تسمى برة، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهتــه الى مكة مع الخــادمين وامرتهما بتربيته ، وطالت مدة جعفر وغلب هو وابوه واخــوته على امر المملكة ٠٠ » (٤/ ٢٤٨) ٠

وتنسب رواية المسعودى الى زبيدة زوجة الرشيد انها بضــيقها بيحيى بن خالد افضت اليه بقصة العباسة مع جعفر ٠ فســألها : (افيعلم ذلك احد غيرك ؟) فقالت : (ما فى قصرك جارية الا وقد علمت به) ، فامسك على ذلك وطوى عليه كشحا » (٢٤٩/٤) ٠

ويتفق ابن الاثير (ـ ١٢٣٤ م) صاحب « الكامل فى التاريخ » مع الطبرى فيما أورده من روايات ، على أنه يضــع قصــة العباسة وجعفر فى المقدمة باعتبارها أول الاســباب (١٧٥/٦) ، ويذكر للفضل بن ربيع وزير الامين دورا فى التآمر على البرامكة ، وغــير ذلك لا يختلف مع الطبرى الا فى بعض التفاصيل ٠

اما ابن خلكان (ـ ١٢٨٢ م) صاحب « وفيات الاعيان » فقد نقل عن المصادر السابقة وغــيرها ، فلم يترك رواية او نــادرة الا وسجلها ، وأورد الكثير من القصائد فى رثاء البرامكة ومدحهــم ، وتغافى فى الحديث عن علاقة جعفر بالعباسة وكيف احتالت عليه حتى واقعها ٠٠ الخ (٣٣٣/٦) ٠

مفهوم التاريخ

هذه هي أهم الروايات المبكرة ، والتاريخ حتى ذاك هو ، رواية الاخبار والاحداث كما جاءت على لسان الرواة والثقات دون تحقيق او تصويب او تفضيل ، فالتبعة تقع على الراوى الذى ينقل عنه المؤرخ ، وهذا هو » الظاهر » ، اما ((الباطن)) فخفي او مجهول • ثم ان التاريخ فى منظارهم أحداث متتابعة وايام ••وسير ملوك وأعيان واعلام • ومعروف أن ابن خلدون هو اول من فلسف للتاريخ ورأى ان مهمة المؤرخ هى مراجعة الاخبار والاحداث ثم النقد والتفسير والتعليل • ومن هذا التصور الجديد للتاريخ يعارض ابن خلدون فى « مقدمته » المؤرخون كافة فيما نقلوه عن العباسة وجعفر ، ويرى انها من « الحكايات المدخولة » ، « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وابويها وجلالها » ، فهي ((ابنة خليفة واخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ومحبة الرسول وعمومته •• وكيف للرشيد أن يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ •• واين قدر العباسة والرشيد من الناس• (١٦/١٧) •

اعتزاز بنى هاشم بنسبهم واقع تاريخى عبر عن نفسه من خلال الاحداث ولا ينفيه أن الناس سواسية فى الاسلام ، ولا تنفيه الاشارة الى الحديث القدسي « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى» مبدأ الانساب هذا حجة قوية ضد قصة العقد المذكور ، واذا كان مشروطا بعدم النفاذ • فالذى أبدع القصة ، ان كانت من ابداع الخيال ، قد أدخل فيها أيضا هذا الاعتبار فنفاذ العقد هو الجرم•

ويدفع ابن خلدون فى معروض حديثه هذا ببطلان ما يروى من أن الرشيد « كان يعاقر الخمر أو يجاهر بها » (١٩) ، كما ينفي عنه وعن ذويه تهمة الترف أو الاسراف فى الملبس والزينة ••الخ فذلك جميعه كما يذهب لا يتفق مع ما « كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التى لم يفارقوها بعد ، فما ظنك بما يخرج من الاباحة الى الحظر ، وعن الحلية الى الحرمة » (٢٠) •

يرى ابن خلدون تهافت قصة علاقة العباسة بجعفر وضعفها ،

ولكنه يحاجي من موقع فروضه النظرية وقناعاته المسبقة ، فكيف لنا ان ننسب الى دار الخلافة ببغداد في عهد الرشيد ـ وهي اذ ذاك عاصمة الحضارة ـ حياة التقشف « وسذاجة الدين » الاولى ؟

ونحن اليوم اذ نتامل قصة العباسة وجعفر ، يراودنا الكثير من الريب ، فهي قصة من قصص الحب التعس ، شخوصها او اطرافها كالمالوف ثلاثة وهي قصة حب غريبة ، يعقد له الخليفة ويبطله في نفس الوقت ، يحلله الشرع وينهى عنه اختلاف الانساب ، وعقدة القضية او علتها من باب الحواديت ، وهي ان الرشيد كان كلفا باخته العباسة وبجعفر شقيقه في الرضاعة ، ولا يحلو له مجلس الشراب دونهما ، ومن ثم جاءته الفكرة وهو أن يزوج العباسة جعفرا بعقد بلا خلوة .. حتى يحل له أن ينظر اليهما ، وهكذا أرضى الرشيد الشرع وحلل الحرام ولان هذا العقد المزدوج ينافي الطبيعة والعقل والشرع ، فلا حل له غير النهاية المأساوية .. أيا كانت المكونات ، الاصلية التي بنيت منها القصة ، فما أن اكتملت حتى تداولها الرواة وتناولوها بالصقل والاضافة والتحوير وحتى اصبحت جزءا لا يتجزأ من نكبة البرامكة . وعلى مرور الاجيال اقترن في الاذهان أفول سلطان البرامكة وزوال مجدهم بقصة جعفر والعباسة . واصبحت العباسة من خلالها من « أعلام النساء» ومن « شهيرات النساء في الاسلام » .. بحيث يصف محمد حسين هيكل قصتها بأنها « قصة متجددة على الايام » ..

ولم تقتصر شهرة العباسة على الشرق ، وانما انتقلت الى الغرب ودخلت الآداب الاوربية في وقت مبكر كمادة روائية ودرامية . وبطبيعة الحال فقد أثارت نكبة البرامكة لاسباب شتى اهتمام المستشرقين في الماضي . وكان ايضا لقصة العباسة جاذبية خاصة عليهم ، بحيث يراها المستشرق الالماني جوستاف فيل في مؤلفه الكبير « تاريخ الخلفاء » سبب الاسباب وعلة العلل فيما أصاب البرامكة من داهية كبرى ، ويرى أن ما يورده الرواة من اسباب انما قد اشيع من أجل اخفاء السبب الحقيقي ، الا وهو ما أصاب الرشيد من امتهان بسبب علاقة جعفر بالعباسة . ولو

صحت جميع الروايات كما يقول ، لما كانت كافية لتعليل نهاية البرامكة على النحو الذى حدث .

وعلى نحو مماثل ، وان لم يغال فى ذلك ، يرى المستشرق الالمانى مولر فى كتابه « الاسلام فى الشرق والغرب » (١٨٨٥) أن استئثار البرامكة بالامر والنهى فى شئون الدولة لا يكفى وحده لتفسير نكبتهم . لابد من دافع . آخر لا مرد له على ما أقدم عليه الرشيد، وقد تكون علاقة العباسة بجعفر هى سر ما غمض .

الغريب أن يظل دور العباسة فى القصـــة فى روايات المؤرخين العرب الاوائل هامشيا . فالمصادر المبكرة تصمت عنها وعن مصيرها وعن مصير ابنها من جعفر . هذا على خلاف المصادر المتأخرة (مثل « اعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العبـــاس » لمحمد دياب الاقليدى ـ الذى أتمه سنة ١١٠٠ هـ)المصادر المتأخرة تستفيض فى تصوير نهاية العباسة وصبغتها بصبغة مروعة ، ومنها ما يذهب الى أن الرشيد قد دفنها حية ، وتختلف هذه المصـــادر فى عدد ابنائها من جعفر فمصادر التاريخ العربى المتأخرة على خلاف المصادر المتقدمة تنسج حول الوقائع والاخبار الكثير من التفاصيل والغرائب وتجنح بها الى « الادب » و « الاساطير » ونفتقد فى هذه المصادر تلك ((الموضوعية الظاهرية)) والنظرة الحيادية التى قد نحســـها ازاء المصادر المبكرة . ومهما يكن الامر ، فنحن نقرأ فى « معجم البلدان » لياقوت الحموى (ـ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) ما يكاد ينقض القصة بأكملها ، أو على الاقل يسلبها اطارها الرومانسى ، فهو يقول عن العباسة :

« هى عباسة بنت الهدى تزوجها محمد بن سليمان بن على فمات عنها ثم تزوجها ابراهيم بن صالح بن المنصـــور فمـات عنهـا ثم تزوجها محمد بن على بن داود بن على فمـات عنهـــا ، ثم أراد أن يخطبها عيسى بن جعفر ، فسمع شعرا قاله أبو نواس فيها فتشاءم منه ، « وتحامى الرجال فى تزوجها الى أن ماتت » (٣/٢٨٨).

وأبيات ابى نواس المشار اليها هى :

الا قل لامـين اللـه وابن السادة الساسة
اذا مـا نـاكث سرك أن تفقـده راسـه
فلا تقتله بالسـيف وزوجـه بعبـاسه

فمتى كانت علاقة العباسة بجعفـر ؟ لم تكن على أى حال بحساب السنين علاقة حب فى أوج الشباب •

المؤرخ والراوى

● هل يستطيع الكاتب الروائى أو المسرحى أن يقاوم اغراء هذه القصة التى تهبه اياها كتب التاريخ دون عناء ، وهى قصة تجتمع فيها مقومات قصص « الف ليلة وليلة » من حيث الحيلة والخيال والصنعة والنهاية ؟ وهل يستطيع أن يقاوم اغراء شهرة «البطلة»؟

لم يستطع زيدان أن يقاوم هذا الاغـراء ، على الرغم من أنه فى مؤلفه « تاريخ التمدن الاسلامى » (١٩٠١ ـ ١٩٠٦) لا يعول على قصة العباسة وجعفر ، ويلمح اليها بعبـارة سريعة فى حديثه عن نكبة البرامكة ، ويفسر هذا الحدث بغير ذلك من الاسـباب ، وقد يبدو واضحا من العرض السابق كيف أن مصنفات التاريخ ذاتهـا لا تخلو من عناصر التشويق والخيال ، وانها تميل فى سـبيل ذلك الى الغريب والطريف ، فما بالك بمؤلف الرواية التاريخية ، الذى لابد له أن يصيغ مادته فى شكل كل متكامل ، وان يربط بين الوقائع والاحداث والشخوص •

يعنون زيدان روايته « العباسة اخت الرشيد او نكبة البرامكة» ويصفها بانها ((رواية تاريخية غرامية)) كالمألوف فى رواياته الاخرى التى يبتكر فيها القصة الغرامية •

بطل روايات زيدان ـ كما هو الحال فى روايات والتر سـكوت التاريخية ـ هو فى المعتاد شخصية وهميـة لا تقيـدها الوقائع والتفاصيل التاريخية •• هذه الشخصية أشبه بالوسيلة أو الحيلة الفنية التى من خلالها يستطيع المؤلف أن يبعث الحيـاة فى المادة التاريخية ، ومن وظائفها المألوفة تقريب الاحداث وربط المشـاهد والاماكن والاشخاص •• ثم انها شخصية مجهولة المصـير قريبة فى مشاعرها ودوافعها وتفكيرها من نفس القارىء • القـاعدة هو

أن يختلق زيدان بطل الرواية ويعلقه في قصة غرامية لا تنتهي الا بانتهاء الاحداث التاريخية .. ولا يخرج عن هذا النموذج الا في اربع روايات هي : « عذراء قريش » و « أبو مسلم الخرساني » و « العباسة » و « شجرة الدر » . والاغلب أن طبيعة الصدام التاريخي الذي تصوره هذه الروايات تيسر للمؤلف هذا النهج ، كما هو الحال في « العباسة » و « أبو مسلم الخراساني » .

كمؤلف روائي يضع زيدان قصة العباسة موضع الصدارة ، وكمؤرخ يستقصي جميع الاسباب والعلاقات التي ادت الى نكبة البرامكة ، ولا يكاد يغفل رواية يعول عليها في هذا الصدد ، ويستفيض في ذلك بحيث تبهت قصة العلاقة بين العباسة وجعفر كسبب من أسباب نكبة البرامكة . ولو دققت النظر في رواية زيدان لوجدت أن موطن الداء أو بيت القصيد هو تعاظم سلطان البرامكة وثروتهم ، واستبدادهم بالامر وتعاليهم ، وكان أمر الخلافة سائر اليهم ، وهم من الموالي الفرس وتربطهم الكثير من الاسباب بالعلويين ، وتحيط بهم الريب .. وستجد ايضا أن الرشيد قد عقد العزم على ازالة « دولة البرامكة » قبل أن ينمو الى علمه خبر العباسة وجعفر . فحاسة المؤرخ الذي يحقق منطق العلاقات والاحداث تفوق بوضوح بواعث المؤلف الروائي . وهكذا تتضاءل قصة العباسة وتتحول الى اطار عاطفي يغلف نكبة البرامكة . ولكن لاغناء لزيدان وقراء زيدان عن هذا الاطار . فقارىء روايات زيدان الاول يقرأ القصة الغرامية من أجل المادة التاريخية ، ويقرأ المادة التاريخية من أجل القصة .. ولقد دفع هذا بزيدان الى تنمية قصة العباسة وجعفر ، فحولها الى قصة غرام ووفاء لا منجاة فيه من حكم القدر . وكان من الطبيعي أن يتوقف عند النهاية الفاجعة ، وان يختار لها أكثر الروايات والتفاصيل اثارة لشحن القارىء وعواطفه . فاذا كان لابد من النهاية الحزينة ـ وهي نادرة في روايات زيدان ـ فلا اقل من أن يستفيض في عرض هذه النهاية ، وأن يشبع حاجة القراء ، وهو يكتب لقارىء رومانسي المشاعر ، يتنسم الاحساس بذاتيته من خلال الادب . ثم أن نكبة البرامكة هي

الحدث الذى تدور حوله رواية « العباسة » هذا على خلاف روايات زيدان الاخرى التى تتكون من تتابع سريع من الاحداث والوقائع والمغامرات .

ويعوض زيدان عن النقص فى الاحداث بوصف الاداب والعادات ومظاهر الحياة والعمران فى بغداد ، بحيث يستغرق هذا الوصف نحو نصف صفحات الكتاب . فالكثير من الفصول لا تستهدف غير هذه الغاية كما تشير العناوين : ((الوان من الرقيق)) ، ((الجوارى المولدات)) ، « المساومة » ، « الصولجان والكرة » ، ((مناطحة الكباش)) ، « دار النساء » ، « مجلس الطرب » ، ((المغنيات وابو نواس)) ((الطرب بالطعن)) ، « دار القرار والجوارى المقدودات » .

القصة الغرامية والحدث التاريخى وصور ((الاداب والعادات)) هي دعائم الرواية الزيدانية ، ومن اهم اساليبها ((الحوار)) فهو يمثل - الى جانب المقدمات التاريخية التمهيدية - الوسيلة الاساسية لنقل المادة التاريخية الى القارىء ، ومن ثم كان الطابع السردى الذى يسم الحوار .

يبدأ زيدان قصة العباسة قرب النهاية بعد ان اكتملت فصولها او كادت ، ثم يستعيد عن طريق الحوار بين الشخوص بداياتها ومسبقاتها . واسلوب الحوار السردى كما هو معروف من الاساليب المفضلة عند الرواة والاخباريين الذين ينقل المؤرخون العرب عنهم ، والحوار من ملامح فنون القول والادب الشعبى ومن الاساليب الاساسية فى القصص الشعبى . وليس من الغريب ان يترك هذا التراث الادبى بصماته الواضحة على مؤلفات التاريخ العربى ، وان يصبغها بصبغته .

ونلمس اثر هذا التراث واضحا فى مؤلفات زيدان ، فتارة يأخذ الحوار من المصادر التاريخية دون تحوير او تغيير ملحوظ . ومثال ذلك استجواب الرشيد لجعفر عن مصير يحيى بن عبد الله العلوى فى فصل « المداجاة » . وتارة اخرى - وهذا هو الاعم - يوزع روايات الرواة الى ادوار ، اى يقدمها فى شكل حديث بين الشخوص

(وامثلة ذلك كثيرة ، منها حديث جعفر بن الهادى مع اسماعيل بن يحيى فى فصل « مقتل الهـــادى » و « البرامكة والدولة » ، وفى الفصل المعنون ((عبد الملك بن صالح)))

واحيانا ما ياتى زيدان برواية من الروايات على لســـــان احد الشخصيات للتعريف بوجهة نظر بعينها يرى الا يغفلهـــا فهـو على سبيل المثال يجرى على لسان « عتبة » جارية العباسة عبارات ابن خلدون • تقول « عتبة » لمولاتها : « فانك بنت خليفة واخت خليفة ، ، ويتصل نسبك بعم النبى صلى الله عليه وسلم • والوزير مولى فارسى مثل سائر الموالى ، فكيف تتزوجينـه ،ومثلك تتزوج احد أبناء عمها الهاشميين •• على آن الخلاف هو أن ابن خلـدون يرفض بهذه الحجة فكرة العقد من الاساس، اما عتبة فهى تبرد بها شرط العقـد، وهو أنه دون خلوة • فزيدان يبنى روايته على فكرة العقد ، ومع ذلك فهو لا يسقط وجهة نظر ابن خلدون تماما، وانما يوردها بشكل مغاير •

ونادرا ما ياخذ الحوار صورة الجدل الدرامى او ينبع من موقف الصراع المباشر ، فالوظيفة الاساسية للحوار هى نقـل الاخبـــار والوصف • وربما الاصح القول : انه « وصف وتاريخ فى صورة حوارية » •

من أوضح ما تبرزه روايات المؤرخين عن نكبة البرامكة هو انعدام الحد الفاصل بين التاريخ والادب • والتاريخ بوجه عام لا غنـاء له عن فنون العرض والتصوير والتفسير ، اى لا غناء له ايضا عن وسائل الادب • ومن جانب آخر ، فالرواية التاريخية ـ مثلها مثل الفيلم التاريخى الذى ورث هذا الفن عنهـــا ـ تكتمل أولا بادماج المادة التاريخية فى اطار الرواية الادبية • وليست هـــذه المهمـة بيسيرة ، خاصة حين يكتب المؤلف لقارىء ليست له دراية كبـيرة أو دراية ما بوقائع التاريخ وتفاصيله وبيئته ، بل ولا تتوفر لديه مراجع التاريخ بالمعنى الحديث ، وهو ما ينطبق على القارىء العربى فى القرن الماضى ومطلع القرن الحالى ولا غرابة أن يسند زيدان الى الرواية التاريخية مهمة تعليم التاريخ ، ولا غـرابة أن تغلب عليه

صفة المؤرخ على صفة القصاص ، وأن تستغرقه مهمة التجميع والتركيب والتنسيق للمادة التاريخية على ما عداه ، بحيث نلمس باستمرار التوتر بين المادة التاريخية والمادة الروائية فهو ايضا يمارس فن الرواية دون الاستناد الى تراث ، وفى مرحلة لم تتطور فيها بعد أساليب هذا الفن في العربية •

وأيا كان الامر ، فالمادة التاريخية التي تعالجها « العباسة » تكاد تندرج تحت مفهوم الادب ، والمادة الروائية تنبع دون جهد من اخبار المؤرخين ، وجميع شخصيات الرواية ، بما في ذلك الشخصيات الثانوية ، ترد فى المصادر التاريخية ، واحداث الرواية تنحصر فى حيز محدود من الزمان والمكان • بهذه المسبقات تميزت « العباسة » عن غيرها من روايات زيدان بالبساطة فى التكوين والاتساق •

لا يعبر زيدان عن فلسفة خاصة للتاريخ ، وانما يترك احداث الماضى وأخباره تعبر عن نفسها • وقد يتعاطف مع الضحايا ، ولكنه يعود فيجتهد فى موازنة هذا التعاطف ، وقد يجتهد فى تقصى الاسباب والروابط ولكنه لا يذهب في ذلك بعيدا ، ويوكل الكلمة الاخيرة لما جرى به التاريخ • وهو فى جميع الاحوال لا يخضع الماضى لفكرة فوقية او عقيدية ، ولا يتسامى بعيدا بالاحداث والشخصيات •

فمن قناعاته الاساسية التى ترتبط بتكوينه الذاتى : أن الحقيقة نسبية ، وقد تكون متعددة الوجوه ، وقد أثار عليه هذا الموقف البعض لانه ـ بايجاز ـ لم يكتب كما أرادوا منه ، أو كما يقول مصطفى لطفى المنفلوطى : فهو ((لم يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون وينهج فيه كما ينهجون)) (١٦) • وانما قصد التعريف بالتاريخ الاسلامى عامة وبتاريخ التمدن والحضارة الاسلامية خاصة • ومن هذا المنظور نستطيع ان نقرأ « العباسة » كقصة تصف جوانب من مظاهر الحياة والعمران فى مدينة بغداد فى عصر الرشيد •

د • ناجى نجيب

العباسة أخت الرشيد

أو

نكبة البرامكة

رواية تاريخية تشتمل على نكبة البرامكة وأسبابها ، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وبيان ما بلغته اليه الدولة من الحضارة والابهة فى عصر الرشيد

تأليف

جرجي زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

- **هرون الرشيد** : الخليفة العباسى
- **جعفر البرمكى** : وزير الرشيد
- **العباسة** : أخت الرشيد
- **زبيدة** : زوجة الرشيد
- **ابو العتاهية** : شاعر الرشيد
- **الامين** : ابن هرون الرشيد
- **عتبة** : جارية العباسة
- **الفضل بن الربيع** : وزير الامين
- **مسرور الفرغانى** : الجلاد

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تاليف الرواية ووقائعها التاريخية :

- تاريخ الطبرى ـ الفخرى ـ ابن الاثير ـ أبى الفداء ـ المسعودى
- كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى
- تاريخ ابن خلكان
- العقد الفريد
- أعلام الناس للاتليدى
- مروج الذهب للمسعودى
- فوات الوفيات
- نفح الطيب
- ديوان أبى نواس
- سراج الملوك
- الفرج بعد الشدة

— ١ —

مدينة بغداد

كانت عاصمة الاسلام فى أيام الراشدين يثرب (المدينة) تبركا بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعلها بنو أمية فى دمشق مقر أحزابهم من قبائل العرب . فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس ، وقد ساعدهم عليها مواليهم الفرس ، جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس . وكانوا أولا فى الكوفة ، اذ بايعهم أهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات ، وفيها توفى السفاح أول الخلفاء العباسيين وخلفه المنصور . وأول شىء قام به ، قتل أبى مسلم خوفا منه على منصبه .. فقتله غيلة كما تقدم فى رواية « أبى مسلم الخراسانى » فأصبح المنصور بعد قتله يخشى على نفسه من أصحاب أبى مسلم وأشياعه ، وخاصة بعد أن ثار عليه منهم جماعة الراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن ابن زائدة . وقد فتك رجال المنصور بالراوندية وقتلوهم ، لكنه ظل خائفا من مثل هذه الثورة .. فعمد الى بناء حصن يأوى اليه بأهله ورجال حكومته ، فبنى بغداد بشكل مستدير سمى مدينة المنصور ، وجعل قصره فى منتصفها وسماه قصر الذهب ، وجعل قصور الأمراء ورجال الدولة وأبنية مصالح الدولة حوله

وبينها الأسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينة سورا فى ثلاثة أسوار الواحد داخل الآخر .. الأول أو الداخلى يحيط بالأبنية ووراءه فراغ فيه أبنية كالقلاع ونحوها ، ووراء الأبنيــة سور ثان متين وراءه فراغ للمرور حوله . ووراء هذا الفراغ سور ثالث ، ووراء هذا السور خندق فيه الماء . وجعل للمدينة أربعة أبواب سـماها بأسماء المدن التى تتجه نحوها ، وهى أبواب البصرة ، والكوفة ، والشام ، وخراسان . وافتتح فيهـا أربعة شوارع كبرى تمتد من الأبواب الى مركز المدينة

وكان المنصور يقيم أولا فى قصر الذهب فى منتصف مدينته ، ثم اطمأن باله وازدحمت المدينة .. فشيد قصرا خارج المدينــة على شاطىء دجلة سماه قصر الخلد . وظل القصران مقر الخلفاء بعد المنصور الى أيام الرشيد ، وكان الرشيد يفضل الاقامة فى قصر الخلد وأكثر اقامته فيه

على ان مدينة المنصور لم تكن وحدها كافية لاقامة الجند ومن يلحق بهم من الباعة والأهل وغيرهم ، ناهيك بمن نقاطر الى تلك العاصـمة من المسلمين وغير المسلمين ، فابتنوا المنـازل خارج المدينة ، ورأى المنصور أن يقلل الازدحام ، فرغّب الناس فى السكنى على البر الشرقى فى مكان سمى الرصـافة وأنشأ فيه مسجدا وقصرا فابتنى الناس حولهما المنازل . واتفق ان ابنــه المهدى جاء بجيشه من خراسان فنزلوا فى الرصـافة لأنها آخر

طريقهم برا من خراسان ، فأمرهم المنصور أن يبقوا هناك ، وأقطعهم القطائع فبنوا المنازل وأصبحت الرصافة بلدا كبيرا . وكانت فى بادىء الأمر معسكرا يعرف بمعسكر المهدى ، ثم امتدت جنوبا وشمالا فتولدت أحياء المخرم والشماسية . وأقام الخلفاء الدور على ضفاف دجلة شرقا وغربا ، يهمنا منها فى هذا المقام قصر الخلد ، وقصر زبيدة ، وكلاهما على الضفة الغربية ، وقصر جعفر البرمكى ، ووراءه قصر الأمين على الضفة الشرقية

ونشأت حول مدينة المنصور أحياء أخرى على الجانب الغربى، أهمها الكرخ ، وفيه كان يقيم التجار من الأجانب وخاصة الفرس . وحى الحربية فى الشمال وأكثر سكانه من العرب . فكانت بغداد فى أيام الرشيد قسمين : قسما شرقيا ، وقسما غربيا بينهما ثلاثة جسور أهمها الأوسط ، ويعرف بالجسر ، أو جسر بغداد وهو يوصل بين مدينة المنصور والرصافة رأسا . وكان فى بغداد علىعهد الرشيد وما بعده ، أنهار تنبع من دجلة والفرات وتخترق أحياء المدينة ، وقد بنى الناس قصورهم على ضفافها أو فيما بينها .. أشهرها : نهر عيسى ، ونهر طابق ، ونهر الدجاج ، ونهر البزازين ، ونهر الصراة ، ونهر جعفر ، وغيرها

وكانت بغداد فى أيام الرشيد آهلة بالقصور والحدائق وأهلها فى رغد ورخاء ، والأموال تنصب فى خزائنها بالملايين ، والخليفة يهب ويجيز ، والناس يتقاطرون الى بغداد التماسا للتكسب بما

يُرضى الخليفة أو رجاله من أسباب الارتزاق .. وفيهم العربى ، والفــارسى ، والرومى ، والتركى ، والــكردى ، والارمنى ، والــكرجى ، والسندى ، والهنــدى ، والصينى ، والزنجى ، والحبشى .. على اختلاف الأجناس ، بين صانع، وتاجر، ونخاس ، وشاعر ، ومغن ، وأديب ، ونحوى ، وراو .. وفيهم المسلم ، والذمى ، والحر ، والمولى ، والعبد ، والغلام ، والجارية . وكلهم يحومون حول دار الخلافة ، أو دور الأمراء يبيعونهم السلع ، أو يتملقونهم بالمديح ، أو يدسون اليهم أسبــاب الزلفى استنزافا للأموال . وهؤلاء يبــذلون الأموال بسخاء ، يأنفون أن تعد عطاياهم بمئات الدراهم، وانما يعدونها بالألوف وألوف الألوف. وكيف يقدرون قيمة المال ، وهو ينصب فى خزائنهم انصبــاب السيل .. اذ كانوا يشاطرون أهل الأرض غلاتهم فضلا عن الجزية والغنيمة ، فاذا صار ذلك الى الخليفة وأمرائه استكثروه فأنفقوه على من يحوم حولهم من المقربين

— ٢ —

أبو العتاهية

وكان فى جملة المرتزقين بالشعر على أبواب الخلفاء أبو العتاهية وأصله من الموالى مثل أكثر شعراء ذلك العصر

وكان أبو العتاهية فى أول أمره يصنع الجرار ويحملها فى قفص على ظهره ويتجول فى الكوفة ليبيعها ، وكان ذا قريحة شعرية فنزل بغداد .. وما لبث أن ارتقى بشعره الى مجالسة الخلفاء . وأول من قربه منهم المهدى بن المنصور ، وقد فتن به وبشعره حتى كان المهدى يصحبه فى الصيد أو النزهة ويكرمه ويجيزه . وكان ذلك شأنه مع الهادى بن المهدى ، ولم تطل مدة حكم الهادى ولكنها على قصرها أثرت فى قلب أبى العتاهية ، فلما مات الهادى عاهد أبو العتاهية نفسه ألا يقول شعرا بعده

فلما تولى هارون الرشيد ، طلب اليه أن يقول شعرا فأبى فغضب عليه ، وأمر بحبسه فى مكان مساحته خمسة أشبار فى خمسة فاستعطفه وقال شعرا غنى به الموصلى المغنى المشهور ، فأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم .. وأصبحت له عند الرشيد منزلة كبيرة ، حتى كان لايفارقه فى حَضَر ولا سَفَر الا فى طريق الحج ، وعيَّن له الرشيد راتبا سنويا غير الجوائز ، وغير ما كان يناله من رجال الدولة وجوائزهم يومئذ بألوف الدراهم ، فجمع مالا كثيرا ، لكنه كان مع ذلك طماعا شديد البخل يجمع المال ولا ينفقه ، ولا يدخر وسعا فى حشده بأية طريقة كانت ، وخاصة بعد أن نذر الزهد وعاهد نفسه أن لا ينظم شعرا فقل تكسبه من الشعر ، فأخذ يغتنم الفرص للاكتساب من أبواب أخرى

وكان أبو العتاهية فى خلافة الرشيد حوالى سنة ١٧٨ هـ

يحضر مجلس محمد الأمين بن الرشيد ، وهو يومئذ فى السابعة عشرة من عمره . وكان الأمين ميالا الى القصف واللهو منذ نعومة أظفاره لايخلو مجلسه من المغنين ، وأهل الخلاعة ، والجوارى ، والغلمان ، وهو أول من استكثر من الغلمان والخدم وتفنن فى انتقائهم وتزيينهم . وكان يشهد مجلسه كثيرون من الشعراء ولا سيما أهل القصف والمجون منهم ، كالحسن بن هانىء الملقب بأبى نواس : وكان أبو العتاهية مقربا من زبيدة أم الأمين ، فكان يحضر مجلس الأمين لعله يصيب كسبا أو جائزة بسبيل من السبل . وكان الأمين كريما مسرفا لايعرف للمال قيمة

وكان لايشهد مجلس الأمير من أهل الجد والدهاء الا من كان له غرض سياسى لايرى الوصول اليه الا على يد الأمين ، أو تقربا به الى أمه زبيدة وهى أحب نساء الرشيد اليه لأنها ابنة عمه ولها كلمة نافذة عليه

وكان أكثر نساء الخليفة يومئذ من الجوارى المعتقات ، ولذلك لم يكن بين العباسيين خليفة أمه وأبوه هاشميان الا الأمين . فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة أو الوساطة أو الدسائس يتزلفون اليها بالثناء على ابنها ، مع اعتقادهم انه ليس أهلا للخلافة ، ويطعنون على أخيه المأمون لأن أمه جارية فارسية ، ويحطون من قدره عندها .. وهو فى الحقيقة أفضل من ابنها عقلا وأدبا

وكان أكثر الناس سعيا فى هذا السبيل الفضل بن الربيع لأن أباه كان وزيرا للمنصور والمهدى ، وكان هو يرشح نفسه للوزارة . فلما تولى الرشيد الخلافة ، قرّب يحيى بن خالد البرمكى وفوض الى ابنه جعفر بن يحيى الوزارة بكل معانيها لأن أباه يحيى كان سببا فى توليه الخلافة ، فشق ذلك على الفضل بن الربيع ، وثارت فى نفسه عوامل الحسد ولم يدخر وسعا فى خلق الأسباب للايقاع به ، ولم يجد سبيلا الى ذلك الا بالتزلف الى زبيدة وابنها لعلمه انها تكره الفرس جملة والبرامكة خاصة ، ولا سيما جعفر بن يحيى لأنه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريتها) بولاية العهد بعد ابنها الأمين .. فكانت تقرّب كل من ينصر ابنها ويطعن على المأمون ، ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الأمين فى لهوه ويسايره فى قصفه ويتملقه للغرض الذى قدمناه

فاتفق فى مجلس حضره أبو العتاهية تلك السنة ، ان ذكر الأمين عزمه على ابتياع بعض الجوارى البيض ممن يحسن الغناء ، يضمهن الى اللواتى فى قصره ، وأكثر المغنيات يومئذ من الجوارى الصفر ..

وكانوا يقتنون الجوارى البيض للترفيه فقط ، وأول من علم الجوارى البيض الغناء ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد . فأحب الأمين أن يتخذ مغنيات من البيض ، فأخبره الفضل بن الربيع أن كبير النخاسين أتى بعدد من الجوارى الحسان ، أنزلهن عند كبير

من تجار الرقيق فى بغداد ، وهو يهودى واسمه فنحاس ، وان الناس معجبون بجمالهن الفتان ، فيمكنه ابتياع بعضهن ويعهد الى الموصلى أن يعلمهن الغناء . وأخذ الفضل على نفسه أن يذهب فى الغد الى ذلك التاجر ، فينتقى له أحسنهن طلعة وأطربهن صوتا . فلما سمع أبو العتاهية ذلك ، توقع منه ربحا كبيرا بالتواطؤ مع فنحاس لعلمه أن الأمين لا يهمه مقدار ما يدفعه من المال فى هذا السبيل .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فرأى أن يذهب فى تلك الليلة الى فنحاس يخبره بعزم الأمين ، وانه هو الذى حمله على ابتياع الجوارى من عنده ، ويغريه على زيادة مبالغ كبيرة على الثمن الذى يقدره هو ، على أن تكون تلك الزيادة مقابل سعيه فى ذلك

— ٣ —

غريبان

فهرول أبو العتاهية من ساعته يتلمس دار ذلك التاجر ، والمسافة بينهما بعيدة لأن قصر الأمين فى جنوب المخرم فى الجانب الشرقى من بغداد ، ودار فنحاس فى أعالى الجانب الغربى ، بقرب دار الرقيق التى أنشأها المنصور ، لما كان يبتاعه من الجوارى

والغلمان المجلوبين . وكان أبو العتاهية أبيض اللون ، أسود الشعر ، نظيف الثياب ، له هيأة حسنة ، وقد عرف باللباقة والحصافة . وكان تلك الليلة فى ملبس بسيط غير ما تعود لبسه فى مجلس الخليفة أو ابنه أيام كان ينظم الشعر ، وكان منذ عاهد نفسه على الزهد يلبس ثياب الفقراء ، ولعل بخله حفزه الى ذلك . وكان يلبس فوق ثيابه عباءة بسيطة ، ويعتَمُ بعمامة بسيطة ، كأنه من عامة الناس .. فالتفّ تلك الليلة بالعباءة وغيَّر شكل عمامته اخفاء لحقيقة أمره لأنه ذاهب فى شأن يحتاج الى التستر

فمشى على شاطىء دجلة وهو يتردد بين أن يصعد فى احدى السفن التى تسير فى دجلة حتى يصل الى الجسر ، وينزل من هناك ماشيا الى دار الرقيق ، أو يجعل طريقه كله برا . وكان يفضل الذهاب ماشيا فرارا من نفقة الانتقال بالسفينة ، أو على دابة من دواب الأجرة . فلما أطل على دجلة ، رأى بالقرب من الشاطىء شراعا منشورا وسفينة تخترق عباب الماء على عجل . فاستبشر وعزم على الركوب بها . وكان الليل قد أسدل ستاره وسكنت الطبيعة لبعد ذلك المكان عن الشوارع المزدحمة فى الكرخ ، لأن أكثر الأبنيــة القائمة على ضفاف دجلة من القصــور الشماء ، والحدائق الغناء ، للخليفة أو وزيره أو بعض أولاده أو أهله .. فصاح أبو العتاهية بالسفينة أن تقف فلم يجد صياحه نفعا ، فأعاد النداء فأجابه ربانها بأنه لايستطيع الوقوف ، فأعاد الصياح

قائلا : « قف .. ناشدتك المروءة »

فسمع أبو العتاهية عند ذلك لغطا ، ورأى النوتية فى حركة عند الشراع فأرخوه بحيث تبطىء السفينة فى سيرها ، ورأى حركة المجاذيف .. فعلم أن أهلها فى عجلة لأمر ما ، وليس لمجرد النزهة فى مياه النهر على جارى عادة أهل بغداد ، ولم تكن الليلة مقمرة تشجع على النزهة . وبرز رجل حتى وقف على حافة السفينة ونادى : « من أنت ؟ »

فقال أبو العتاهية : « انى غريب أمسى علىّ المساء ، وأحب الطلوع الى الحربية ، ولا أعرف الطريق »

فلما سمع الربان قوله تحول عن حافة السفينة حتى توارى ، والسفينة تتباطأ فى سيرها . ولبث أبو العتاهية فى انتظاره ، وبعد هنيهة عاد الربان وهو يقول : « مرحبا بك .. تفضل » وأدنى السفينة من الشاطىء ثم أمر أحد النوتية فألقى خشبة بينها وبين الشاطىء ، مشى عليها أبو العتاهية حتى دخل السفينة ، وحيًّا الربان فرد التحية وأشار اليه أن يجلس على مقعد بجانب الشراع . فجلس وأجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية وهم أربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف . وحانت منه التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلا وامرأة عليهما ثياب أهل البادية ، وقد جلسا وأحنيا رأسيهما من النعاس ، وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال أهل الحجاز

ورأى بين أيديهما غلامين قد توسـدا ظهر السفينة وجعـلا رأسيهما على حجر المرأة ، كل واحد من ناحية .. وعليهما ثياب أهل البادية ، وقد غطتهما المرأة بمطرف من الخز الموشى، فاستغرب ذلك .. ودفعه حب الاطلاع الى معرفة خبرهما

وكانت السفينة تخترق النهر .. والجو هادىء لا يسمع فيه غير مسير السفينة تشق عباب الماء ، وأصـوات المجاذيف تنقر سطحه بانتظام . وما لبثوا بعد برهة أن أطلوا على أبنية بغداد وقد أنيرت القصور على الضفتين ، ثم سمعوا أصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء ، فوجد أبو العتاهية بذلك حيلة لمخاطبة الربان فقال : « أليس عندك طنفسة أصلّى عليها العشاء ؟»

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من أولئك الغرباء . فنهض أبو العتاهية وأخذ فى الصلاة وعيناه لا تتحولان عن الغريبين والغلامين وهو يتفرس الوجوه . فعلم ان الرجل والمرأة من أهل الحجاز.. وهما كهلان ، وخشونة البادية ظاهرة فى ملبسهما .. أما الغلامان فكان نور القبس قد وقع على وجهيهما ، فعرف أبو العتاهية من خلال خفقان نور القبس انهما أخوان ، أحدهما فى الخامسة من العمر ، والآخر فى نحو الرابعة ، وفى وجهيهما جمال أهل المدن بلون أبيض مشرب بحمرة ، ولهما عيون طويلة الأهداب كأنها مكحولة بالاثمد ، وقد زادهما دفء الغطاء اشراقا وحمرة وهما مستغرقان فى النوم . ورآهما أصغر

سنا من أن يكونا ابنى هذين البدويين .. فازداد رغبة فى معرفة الحقيقة عنهما .. وما أن فرغ من الصلاة حتى اقترب من الربان وسأله قائلا : « لم أعرف رفاقنا الليلة ، فهل هم غرباء مثلى ؟ »

فقال : « نعم .. » .

قال أبو العتاهية : « من أين أتوا ؟ »

فقال الربان : « مالك ولهذا السؤال ؟ »

قال : « لأن الغرباء أنسباء »

فضحك الربان ضحكة مصـطنعة وقال : « لايهمك الاطلاع على أخبار الناس ، دع عنك الفضول .. فانى لم أسألك من أين أتيت ، أو الى أين أنت ذاهب ، ولا ماهو اسمك ونسبك» . قال ذلك وتركه وتحول الى حافة السفينة ، وكانت السفينة قد تجاوزت الجسر السفلى وكان مفتوحا ، وفتحه سهل لأنه مؤلف من السفن السابحة متصلة بعضها ببعض بالسلاسل ، وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب . وبعد أن تجاوزت السفينة الجسر أطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الأوسط ، ويندر أن يكون مفتوحا ، فقال الربان : « قد اقتربنا من الجسر ، وهذ آخر شوطنا .. فتفضل وانزل »

وكان أبو العتاهية قد استاء من خشونة الربان ، وهم ان يطلعه على حقيقة حاله ، لأنه لو عرفه لاحترمه .. وذلك لما كان للشعراء من النفوذ فى ده الخلفاء ولكنه فضل الكتمان . ولما

سمعه يناديه وقف وأسرع الى حافة السفينة فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقيم الرشيد ، وقد أضيء القصر بالشموع الملونة ، وانبعثت الأنوار من النوافذ على أزهار الحديقة .. وتضوعت الروائح الزكية ، فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الأزهار والرياحين ، وتذكر أبو العتاهية المهمة التى هو ذاهب اليها وما يتوقعه من وراء نجاحها من الكسب المالى ، فأغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان وهو يضحك : « هل نتزل فى قصر أمير المؤمنين ؟ »

قال : « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر »

قال : « حسنا » وعاد الى التفكير فى تدبير ما ينبغى أن يقوله لفنحاس صاحب دار الرقيق اذا لقيه .. وأخذ يعد نفسه للمسير على قدميه المسافة الباقية وما هى بقليلة ، وود لو ان هذا الجسر مفتوح مثل الجسر السفلى ليتم سفره بالسفينة ، فأصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة حتى اذا دنت السفينة من الشاطيء الغربى ألقوا له خشبة يعبر عليها ، وهو يثنى على الربان لحسن وفادته ، وذهنه لايزال عالقا بما شاهده هناك .. ولكن سروره بما كان يأمل فيه من الكسب أنساه كل شيء

— ٤ —

عتبة

فلما وطىء الشاطىء سار مهرولا نحو الشمال حتى قطع شارع باب خراسان ، ودخل فى شارع دار الرقيق ، فرأى الحوانيت قد أغلق معظمها والأزقة لا تزال مزدحمة بعابرى السبيل . فحدثته نفسه أن يكترى حمارا يركبه ولكن غلب عليه البخل ، فظل ماشيا وهو يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس ، وهى قصر كبير لأن الرجل كان من أهل اليسار والثروة بما كان يكتسبه من تجارة الرقيق ، وكان أكثر بيعه للخلفاء أو لأولادهم فاذا وقف على جارية جميلة أو غلام جميل انفذ بعض السماسرة الى دار الخليفة أو الأمير أو غيرهما يسعون فى ترويج تلك السلع ، وكثيرا ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الخليفة أو ولى العهد ممن يحبون الكسب من هذا السبيل وخاصة الشعراء والمغنين ، ولم تكن هذه أول مرة اكتسب أبو العتاهية فيها مالا بالسمسرة

فلما أطل أبو العتاهية على قصر فنحاس انتبه لنفسه ، وقد مضى هزيع من الليل ، فخشى أن يكون الرجل قد ذهب الى الفراش لأنه قلما يطيل السهر ، اذ لم يكن مغرما بالسماع أو مجالس الشراب .. وانما همّه أن يروّج سلعته بين أهل اللهو ،

ويسره أن يبالغوا فى الترف والقصف لتزداد أرباحه . فكانت عادته أن يتناول عشاءه عند الغروب ، فاذا حان وقت العشاء ذهب الى فراشه

وكان أبو العتاهية يعلم ذلك ، ولكنه كان يأمل أن يكون فنحاس ساهرا تلك الليلة .. فلما أطل على القصر رأى فيه الأنوار على غير المعتاد فانشرح صدره ، وعدَّ ذلك من أسباب توفيقه..فتحوَّل من شارع دار الرقيق نحو اليسار فى طريق يؤدى الى القصر . فلما دخل الزقاق المؤدى الى بابه رأى عند الباب أشباحا وسمع عن بعد لغطا ، فأصاخ وتفرس فرأى دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان ، فدهش لما علم انهم الرفاق الذين شاهدهم فى السفينة ، وتبادر الى ذهنه حينئذ ان الغلامين من الرقيق جىء بهما للبيع ، ولكن الرجل لم يكن يبدو أنه من النخاسين أو التجار ، وانما كان مظهره يوحى بأنه من البدو ..

فتباطأ أبو العتاهية وانزوى فى مستتر بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد ، فرأى الرجل الشيخ بعد أن ترجل عن البغلة وهو يحمل الغلام على كتفه ، أمسك بحلقة الباب ودقها دقا عنيفا ، ووقف ينتظر الجواب فابتدرته المرأة قائلة : « هل تظنهم فى انتظارنا ؟ »

فأجابها الرجل : « لابد من ذلك .. ألا ترين الأنوار فى القصر ؟.. لابد أن تكون مولاتنا فى انتظارنا هنا على أحر من

الجمر لأننا أبطأنا عليها »

فلما سمع أبو العتاهية كلامهما ، لم يجد فيه لغة أهل مكة ولا المدينة بل هو أقرب الى لغة أهل بغداد المولدين ، فزادت رغبته فى معرفة سر هذا الأمر ، وما لبث أن رأى خوخة الباب قد فتحت وأطل منها رأس امرأة بيدها مصباح قد وقع نوره على وجهها ، وظهرت ملامحها ظهورا تاما .. فشاهد وجهـا مشرقا ، وعينين سوداوين ، وحاجبين مقوسين ، ومبسما لطيفا ، وشعرا قد ضفر ببساطة .. وكان مظهرها يدل على انها من الجوارى البيض ، وانها فى نحو الأربعين من عمرها ولايزال الجمال ظاهرا فى عينيها . ولما وقع بصره عليها خفق قلبه لأنه تذكر وجها يعرفه ويحبه ، وكان قد تعلق بصاحبته منذ بضع عشرة سنة ، وقد منعت عنه وبقيت لذلك حرقة فى قلبه.. فأخذ يتفرس فى المرأة ليتحقق من ظنه ، فاذا هى تقول بلهفة : « جئتم ؟ الحمد لله .. لقد أبطأت علينـا يا رياش »

قال : « لقد أبطأنا رغم ارادتنا ، اسألى برّة عما لاقيناه من الصعاب فى أثناء الطريق ، ألم نذهب أولا الى سيدنا أعزه الله فأبقانا عنده الى المساء .. فجئنا من عنده توا الى هنـا .. هل مولاتنا هنا يا عتبة ؟ »

فلما سمع أبو العتاهية ذلك الاسم بعد أن سمع صوت الجارية بغت وتزايدت ضربات قلبه ، وتحقق انها الجارية التى كان يهواها

فى أيام المهدى ، وقد أكثر من تشبيبه بها وهو لايجرؤ أن يطلبها منه ، فاحتال فى عيد النيروز فأهدى الى المهدى برنية فيها ثوب مطيّب ، وكتب على حواشيه بيتين يشير الى طلبها منه ، وهما :

نفسى بشىء من الدنيـا معـلقـة
الله والقـائم المهـدى يـكفيهـا
انى لأيـأس منهـا ثم يطمـعنى
فيها احتقـارك للدنيـا وما فيهـا

فأدرك المهدى يومئذ غرضه ، فهمّ بدفع عتبة اليه .. فجزعت الجارية وقالت : « هل يرضيك يا أمير المؤمنين أن تدفعنى الى رجل بائع جرار ومتكسب بالشعر ؟ » . فأعفاها وقال : « املأوا له البرنية مالا » وأوصاه أن يكف عن التشبيب بها ، فكفّ أبو العتاهية عن ذكرها .. ولكن حبها ظل فى قلبه . ولما مات المهدى وتفرقت جواريه لم يعلم أين كان مصيرها ، فلما رآها فى تلك الليلة هاجت فى قلبه حرارة الشباب .. ولكن دهشته مما يراه شغلته عن تلك الذكرى ..

— ٥ —

دار فنحاس

أما عتبة ، فانها عادت الى الخوخة ، وأمرت البواب ففتـح

الباب ، فدخل الرجل (رياش) يحمل أحد الصبيين على كتفه ، وقد ألقى الصبى رأسه على زنديه فوق رأس الرجل ، واستغرق فى النوم وذؤابتا شـعره مرسلتـان على كتفيه فوق الدراعة ، وكذلك كان الصبى الآخر على كتف المرأة ، وعتبـة تسير بين أيديهما بالمصباح فى فناء الدار حتى تواروا عن بصر أبى العتاهية. ثم رأى البغلتين فى الزقاق عائدتين يسوقهما المكارى ، فظل واقفا وهو يفكر فيما رآه ، وقد نسى المهمة الأصليـة التى جاء من أجلها ، وأصبح همه كشف ذلك السر ، وخاصة بعد أن سمعهم يتساءلون عن مولاتهم فقال فى نفسه : « من عسى أن تكون تلك المولاة ! لعل فى الأمر سرا اكتسب من وراء كشفه مالا ! » فرأى أن يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ أهل البيت انه عرف شيئا من أمر القادمين .. فاذا دخل بعد ذلك احتال فى كشف السر، فانتظر حتى سمع صرير الباب ورآه يغلق ، ثم سمع صوت اغلاقه فتقدم نحوه ودقه بالحلقة فسمع رجلا ينادى : « من ؟ »

فأعاد القرع ففتحت الخوخة ، وأطل رجل من أنباط السواد اسمه حيان،كان فنحاس قد جعله بوابا .. وكان يعرف أبا العتاهية وشاهده هناك غير مرة . فلما رآه فى تلك الساعة وقد توسط الليل استغرب مجيئه ، لكنه رحب به وفتح له فدخل أبو العتاهية وهو يتظاهر بالتعب وقال : « هل مولاك فى البيت ياحيان ؟ »

فقال بلهجة الأنباط وهم يلفظون الحاء هاء ، والعين همزة ،

والقاف كافا : « نأم .. هل تريد الدخول أليه ؟ »
أى : « نعم ... هل تريد الدخول عليه ؟ »

فقال وهو يمشى فى فنـاء الدار : « لم يكن مرادى الدخـول عليكم فى هذه الساعة لو لم أر البيت يشع نورا على غير المعتاد ، لأنى لم أعهد المعلم فنحاس يظل سـاهرا الى ما بعد العشاء ، فاستغربت ذلك وأحببت أن أعرف الباعث على هذه السهرة ، فأرجو أن يكون السبب احتفالكم بزواج ، أو مجىء زائر » قال ذلك وهو يمازح البواب ، لعله يبوح بشىء

فأجابه : « ليس ثمة ما يِكَنْكِلِك (يقلق) الراحة ، ولكنى لا أأرف (أعرف) سبب السهرة ..» ثم بدل الحديث حالا فقال : « أتريد أن ترى سيدى الآن ؟ »

قال : « نعم .. أين هو ؟ »

فقـال : « انى ذاهب لأدأوه (لأدعوه) لك » وأسرع فى مشيته حتى دخـل فى دهليز ينفذ الى سلم صـعد عليه ، وأبو العتاهية يتبعه لئلا يبقى خارجا ويحدث ما يمنعه عن الصـعود . وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئة بالشموع ، ولكنه لم ير أحدا من الخدم أو الجوارى فى طريقه ، ولم يكن يسمع ضوضاء ولا غوغاء ، فعلم ان القادم يريد التستر . ثم وصل حيان الى غرفة تعود أبو العتاهية أن يجالس فيها فنحاس ، وكانت مظلمة فأدخل اليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعاه للجلوس فجلس،

وذهب النبطى ليدعو مولاه فمكث أبو العتاهية فى انتظاره وهو يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة ، ويود أن يعرف مقر أولئك الضيوف فى القصر ، فسمع صوت غلام يضحك ، فعرف انهم فى غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق اليها

ثم عاد حيان وهو يقول : « ان سيدى ذهب الى الفراش ، هل ايكظه (أوقظه) ؟ »

فاستبشر أبو العتاهية بنومه وقال : « دعه نائما وسأقابله فى الصباح.. » قال ذلك وتثاءب وتمطّى وهو يظهر التعب والنعاس، فقال له البواب : « هل تريد النوم ، أم آتيك بطعـام قبلا ؟ » (مع تحريف الأحرف بلفظه)

قال : « لاحاجة بى الى الطعام ، ولكننى أشكو التعب .. فقد كنت فى مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب ، ولما اقتربت من قصركم ورأيت الأنوار فيه قلق خاطرى ، وأتيت أقضى ساعة مع المعلم فنحاس ، فصرفت الدابة والمكارى ولا أدرى اذا أردت الذهاب هل أجد دابة بقرب هذا المكان ؟ »

فقـال حيان : « اذا كان لابدّ من ذهابك فان فى الاصطبل دواب كثيرة ، ولكنى لا أرى حاجة الى السرعة .. فاسترح عندنا الليلة ، واذا شئت النوم أخذتك الى حجرة فيها فراش »

فقال : « ولكنى لا أستطيع النوم فى النور على هذه الصورة»

قال حيان : « قد أخذنا فى اطفاء الأنوار ، ولا تلبث أن ترى

القصر مظلما »

فقال : « اذا كان الأمر كذلك ، فاننى أفضّل النوم هنا على أن أذهب وأعود فى الغد ، لأنى جئت الى المعلم فنحاس بأمر فيه كسب كثير بعون الله .. »

فازداد البواب رغبة فى ابقائه لعلمه ان سيده يتوقع منه ذلك لكثرة جشعه للمال ، بالرغم مما عنده من الثروة الطائلة . وكان فنحاس انما يهمه كسب المـال ولا يبـالى بالطريقة المؤدية الى كسبه ، فكثيرا ما كان يغضى فى سبيل ذلك عن أمور لايغضى عنها الحر . وعذره ان الناس على ضلال فى أمر دنياهم ، فهم يتمسكون بأمور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف أو عزة النفس ، ويبذلون فى سبيلها حياتهم أو يضيعون فيها أموالهم ويفوتهم كثير من المكاسب الطائلة ، وما كان الشرف يشبعهم اذا جاعوا أو يدفئهم اذا تعرضوا للبرد ، أو يرويهم اذا عطشوا .. أما المال فهو عنده السلطان أو هو الصولجان ، فمن استولى عليه كان سلطانا تطأطىء له الرءوس ويخدمه الزملاء .. تلك هى مبادىء المعلم فنحاس ، وكان أبو العتـاهية يعرف ذلك فيه ، وكثيرا ما كان يستعين به فى أعمال يكسب بها الاثنان على نحو ما جاء به تلك الليلة

فلما توسم البواب من أبى العتاهية ما يسر مولاه ألح عليه فى النوم هناك ودعاه أن يتبعه ، فسار وأبو العتاهية ينصت ويتلفت

لعله يعرف الغرفة التى تتوق نفسه الى معرفة سر أهلهـا ، ثم وقف حيان أمام باب فتحه ودعاه الى الدخول والمشمعة بيده ، فدخل واذا هناك فراش على طنفسة لا بأس بها ، فقال أبو العتاهية : « هذا فراش نظيف .. جزاك الله خيرا » وأظهر انه يريد النوم فتركه حيان ومضى . وكان أبو العتاهية قد عرف الجهة التى فيها أولئك الناس ، فلما ذهب حيان وأطفئت الأنوار ونام أهل البيت نزع عمامته وعباءته وتخفف بطاقية كانت على الفرش ، وخرج يتلمس الحائط وركبتاه ترتجفان .. وقد نام أهل القصر وسـاد السكون على المكان ، وأصبحت معرفة تلك الغرفة أقرب من حبل الوريد ، فاذا لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها

— ٦ —

التلصص

فما لبث أن وصل الغرفة وهو يسمع أناسا يتكلمون همسا كأنهم يحاذرون أن يسمعهم أحد ، فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل ، فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة ، جالسة على سرير فى صدر المكان ، وفى حجرها دانك الطفلان ، وقد ضمتهما الى صدرها وأخذت تقبّلهما وعيناها تتـلألآن بالدمع ، وفى ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن ،

فلا تدرى أهى تبكى فرحا أم حزنا . وتفرس أبو العتاهية فى تلك المرأة فاذا هى بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها ، وفى وجهها جمال وهيبة لم يشاهد مثلهما ، بالرغم من كثرة ما رآه من الجوارى الحسان فى دور الخلفاء أو ولاة العهد ، أو فى دار جعفر البرمكى أو غيره من البرامكة ، ورأى فارقا كبيرا بين ما يعرف من جمال أولئك وما فى جمال هذه من الهيبة والوقار ..

ولو تأملت فى تلك الهيبة لرأيت مصدرها العينين ، ولم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان أشعة براقة . ولم يكن فيهما ذبول مثل سائر عيون الغوانى ، بل كانتا حادتين يشعر الرجل اذا اتجهتا نحوه ، انهما اخترقتا صدره ، وأصابتا قلبه ، واستطلعتا خفايا سره . ولم يكن لون الفتاة أبيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال ذلك اللون ، بل كانت حنطية مشربة بحمرة ، ولها مبسم ينطق بغير كلام ، ويدل على عواطفها كما تدل المرآة على ما يقابلها ، ورأى أبو العتاهية على جبينها عصابة مكللة بالجواهر ، فدهش لهذه العصابة على الخصوص ، لأنه لم يكن رأى مثلها من قبل ، وأول من اتخذ العصابة المكللة بالجواهر علية بنت المهدى (أخت الرشيد) فعلت ذلك اذ كان فى جبينها شىء من سعة شوه جمالها ، فاستحدثت العصائب المذكورة لتستر ذلك العيب ، فكان من أجمل الابتكارات . ولم يكن أبو العتاهية قد رأى ذلك لأنه لم يكن شائعا

وكانت قد صففت شعرها تصفيفا بشكل جمة تعرف بالجمة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لأنها أول من صففها ورأى أبو العتاهية فى مقدم تلك الجمة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر ، عيناه من الزمرد ، وفى أجنحته فصوص من الياقوت الأحمر مرتبة بين فصوص الماس ترتيبا عجيبا ، وقد اختلط تلألؤها بأشعة النور حتى توهم أبو العتاهية ان الغرفة مضيئة من نور تلك الطرة وليس من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابى اللون مزركش بالقصب . وفى أذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بقدر بيضة الحمامة ، وفى عنقها عقد من الجوهر فى غاية التناسب

وأما ثوبها فمن أثمن المنسوجات ، ولكنه كان فى غاية البساطة .. لونه سماوى وعلى حواشيه وشى دقيق . فذهل أبو العتاهية لمنظر تلك الفتاة وقال فى نفسه : «لاشك ان هذه الحورية من أهل بيت الرشيد ، ولابد ان وراءها سرا اذا اطلعت عليه ابتززت الأموال به »

ونظر فى جوانب الغرفة ، فرأى الرجل والمرأة لايزالان بثياب أهل الحجاز وقد جلسا على الأرض باحترام وهيبة وخاصة الرجل ، وكان كهلا قد وخطه الشيب . وتفرس أبو العتاهية فى وجهه ، فلم ير فيه ملامح أهل البادية .. فعلم انه تنكر بذلك الملبس لغرض ما . وأما المرأة فلما رأى وجهها تبين له أن أصلها

جارية من الجوارى وقد كبرت سنها . وأما صاحبته عتبة فلفتت انتباهه على الخصوص ، وكانت جالسة أمام السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها .. وتأمل أبو العتاهية فى عتبة فرأى الجمال لايزال فى وجهها ، وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمنة وبضاضة . وكانت فى تلك الليلة مكشوفة الرأس ، وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة ، علقت فى طرف كل منها قطعة من النقود أو الحلى ، وفى عنقها عقد ثمين وفى يديها الأساور والدمالج ، وعليها ثوب لونه أحمر مشجر بعروق خضراء

فدهش أبو العتاهية من تلك المناظر ، واصطكت ركبتاه من التأثر ، وأتعبه الانحناء لأنه لم يكن يستطيع النظر من ذلك الثقب الا اذا انحنى .. على انه ظل صابرا يصغى لما يدور من الحديث هناك ، وأول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من لغتها انها لصاحبته عتبة وهى قولها : « لابأس عليك يامولاتى .. لماذا تبكين ؟ »

فرفعت تلك الفتاة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهى تقول وصوتها يختنق بالبكاء : « قلبى يحدثنى ياعتبة انها آخر مرة أراهما فيها »

فصاحت : « معاذ الله يامولاتى ، بل أرجو أن تتمتعى برؤيتهما مرارا فى كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم .. وهذا رياش ، حفظه الله ، لا يدخر وسعا فى المجىء الينا كلما أمرت .. وعسى

أن يقضى الله باطلاق حريتك فيكونان معك فى كل حين »

فتنهدت الفتاة وقالت : « آه ياعتبة انك تتمنين محالا .. لأن عدونا ظالم مستبد له السلطة المطلقة ، وقد انغمس فى ملذاته ، وتمتع بكل ماتشتهيه نفسه وأصبح لايبالى بسواه.. أهلك عطشا أو مات جوعا أو ذاب لوعة .. انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة ، لا يهمه سوى ملذاته » قالت ذلك وهى تخرج من كمها منديلا من الحرير مزركشا بالقصب مسحت به دموعها

فقالت عتبة : « تلك حال الرجال على الاطلاق ، يامولاتى ، فانهم أصحاب السيادة ، وقد فضلوا أنفسهم على المرأة فحللوا لأنفسهم ما حرموها منه ، وتمتعوا بما حظروه عليها . يتزوج الرجل عدة نساء ويقتنى الجوارى والسرارى ويمنع المرأة من أن تتزوج برجل تحبه ويحبها .. ولكن .. »

فقطعت الفتاة كلام الجارية وقالت : « ليس بين الرجال من عَمَل عمل أخى ، ولا بين النساء من أصيب بمصابى .. وزوجنى برجل هو جمعنى به وحبَّبه الىَّ وعقد له علىَّ ، ثم حرم علينا ثمار ذلك العقد ما حلّله الله لأحقر خلقه . وهو مع ذلك يخطر فى قصر وحوله مئات من الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات والسنديات ، وفيهن البيض ، والصفر ، والحمر ، والسمر ، والسود » ولما بلغت الى هنا غصّت بريقها وشرقت بدموعها ، وكان الغلامان فى حجرها وكبيرهما ينظر فى وجهها نظرة

الاستغراب وهى تتكلم . فلما رآها تبكى شاركها فى البكاء ، ولما رآه أخوه يبكى بكى أيضا ، وبكت عتبة .. وعلا ضجيج البكاء فى تلك الغرفة ..

ثم رأت عتبة أن تتجلد وتخفف عن مولاتها فقالت لها : « لايخفى عليك يامولاتى ان أخاك أمير المؤمنين ، حفظه الله ، لم يمنعك من الزواج بذلك الوزير الا لعدم كفاءته ؛ فانك بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبى صلى الله عليه وسلم . والوزير مولى فارسى مثل سائر الموالى ، فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج أحد أبناء عمها الهاشميين .. فأمير المؤمنين مشهور بحبه لك ، وانما منعك من الزواج علوا لمقامك »

فصاحت : « ويلك ياعتبة .. ألا تزالين مخدوعة بهذه التمويهات .. اذا كان أخى يعد الزواج بالموالى أو العبيد حطة لمقام الخلافة ، فما باله يتزوج هو بالجوارى ويستولدهن ويولّى أولادهن العهد بالخلافة .. لعل الجارية أرفع مقاما من المولى ؟ ! ناهيك عما فى قصوره من الجوارى للتسرى بلا عقد .. فلماذا لم يقتصر بالزواج على ابنة عمه زبيدة ، مع ما يظهره من حبه لها واحترامها ، ولكنه أطاع شهواته ولم يجد من يصده فانغمس فيها ، ورآنى ضعيفة فاستبد بى .. عرّفنى بشاب لا أعرف فى أبناء عمى من بنى هاشم أحسن منه وزوجنى به ثم منعنى منه ، وأصبحنا نعد التقرب خيانة ونخشى أن يطّلع أحد على سرنا ،

كأننا من أهل الفجور .. نعوذ بالله .. ولكن من يستطيع أن يقول ذلك لأخى ولا تكون حياته فى خطر ؟ ! »

– ٧ –

العباسة

وكان أبوالعتاهية قد آلمه ظهره ، وهو منحن عند الباب ، ينظر من ذلك الثقب وقدماه ترتعدان ، وهو يمسك أنفاسه مخافة أن يشعر به أحد . فلما سمع ما دار من الحديث ، علم ان الفتاة هى العباسة أخت الرشيد . وكان يعرف ان الرشيد عقد عليها لجعفر ابن يحيى البرمكى وزيره ليحل له النظر اليها ؛ لأن الرشيد كان يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبر على بعده ، وكان الرشيد يحب أخته العباسة أيضا ، ويحب أن يراها كثيرا .. فعقد لجعفر عليها حتى يحل له أن يراها فقط ، وخوَّفه مما وراء ذلك..

وعلم أبوالعتاهية مما رآه وسمعه ان جعفر تزوج العباسة سرا وان الغلامين اللذين معها هما ثمرة ذلك الزواج ، وانها تخاف أن يعرف أخوها الرشيد بذلك فيقتلها .. فخفق قلب أبو العتاهية فرحا بذلك الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير بواسطته ، لعلمه ان أعداء جعفر يبتاعون مثل هــذه الوشــاية بألوف من الدنانير ، وخاصة الفضل بن الربيع لأسباب تقدم ذكرها . ودمعت

عينا أبى العتاهية لا تأثرا لحالة العباسة ، بل من طول حملقته وتطلعه من ذلك الثقب . وأحس وهو فى تلك الحالة الحرجة ان العطاس يكاد يدهمه ، فخشى أن يعطس فيفتضح أمره .. فجعل يفرك أرنبة أنفه حتى أذهب العطاس ، فعاد الى التلصص والتفرس ، وكان قد سمع عتبة تخفف عن العباسة وتقول لها : « دعينا من النواح الآن ، فقد تكبدت المشقة والخطر لتشاهدى ولديك .. فاستمتعى برؤيتهما ، ودعى المقادير تجرى بما يشاء الله »

فأطاعتها ، وكان الغلامان فى حجرها وهما شاخصان اليها ، وقد استغربا ما رأياه منها . فلما رأتهما ينظران اليها والدمع لايزال فى عيونهما لم تتمالك عن الابتسام ، وعيناها تقطران دمعا وتناولت الكبير وضمته الى صدرها وجعلت تقبّله فى خديه وفى عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه ، وهو غارق فى الضحك يظنها تلاعبه أو تداعبه .. وأنّى له أن يشعر بما يجول فى خاطرها أو بما يهيج من عواطفها ، وهو لايعرف من ملاذ الدنيا الا الطعام والشراب ، ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل أو بالكعاب ، أو بغيرهما من الألعاب ، ومامطامع الدنيا عنده الا ثدى أمه . فاذا فطم كان همه بطنه ، ومطمعه عجلة يديرها ، أو كرة يلعب بها ، وتسليته حصى يبنى بها بيتا أو طينا يصنع منه تمثالا.. يرى الميت فيظنه نائما ، ويلقى الثعبان فيحسبه حبلا .. لا يخاف الهجر ، ولا يحاذر الفقر ، ولا يعرف نوائب

الدهر . ربما أحب هرة تلعب بين يديه أكثر مما يحب والديه ، لأنه يحب كل ما تنتهي يده اليه . ولو عقل لقاس تعلقه بطير عاشره بضعة أيام ثم ذهب عنه ، كم يكون أسفه عليه ، فكيف يكون تعلق الوالدة بابنها ، وهو حشاشة قلبها ، وقطعة من نفسها ، ومثال حبيب قلبها .. لا لوم على الأطفال ، اذا لم يدركوا حب الوالدة ، لأنه سر مغلق على غير الوالدين ، ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهم حنو الوالدات فهم لايدركون حقيقة ذلك الحنو حتى يولد لهم الأولاد ، فيذوقوا مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجهه صحة ، ويسيل كلامه لطفا ، وتزيده اللكنة عذوبة ، وسهر على طفل يقاسي الألم ، ويعجز عن التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه ، أو يكتمه خوفا من مرارة الدواء . والوالدان بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان أنفاسه ، وقد غلّت أيديهما ، وتفطر قلباهما ، وضاقت الدنيا عليهما .. ولاسيما الوالدة ، فانها ألصق بولدها فى طفولته ، اذا مشى .. مشى قلبها معه ، أو ضحك رقصت جوارحها له ، واذا تكلم كانت كلها آذانا لعله يلتمس منها شيئا يسره ويسرها أن يناله ، ولوكان فى الظفر به شقاؤها ، وهي تزداد حبا له كلما تعذبت فى تربيته ، ويزداد حنوها عليه بزيادة شقائها به . فمن أين لغير الوالدين أن يفقهوا ذلك ، أو يدركوا حنان الوالدة حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا أولادا ، فانهم لايستطيعون ادراك حب الوالدة لولدها الا تخيلا ، وأين الحقيقة من الخيال ..

— ٨ —

البغتة

فكانت العباسة تستنشق ريح ابنها وهى تجهش بالبكاء وقلبها يتردد بين اليأس والرجاء ، والغلام يضحك ، والسذاجة الفطرية ظاهرة فى وجهه ، وسلامه النية وطهارة القلب باديتان فى كل حركة من حركاته . وقد أصاب المصورون اذ شبهوا الملائكة بالأطفال فانهم مثال الطهارة والقداسة وصـــدق اللهجة ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكظمون ما فى نفوسهم ، ولذلك كانت المشاعر الطبيعية ظاهرة فيهم ، وأقواها حب الذات .. فالطفل يحب ذاته ، ويحب كل ما يرى فيه نفعا لنفسه . وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحى من اظهاره .. ولذلك لما رأى أحد الأخوين أمه تلاعب أخاه وتقبّله ألقى نفسه على صدرها كأنه يزاحمه على ما يكنه ذلك الصدر ، فقبّلته العباسة ثم التفتت الى عتبة وعيناها تتكلمان عنها .. وما تمالكت أن قالت لها : « ما ألطف هذين الولدين ، وما ألطف اسميهما (الحسن والحسين) هل يسمح لى الله أن أعيش معهما ولو فى كوخ حقير ، أو فى خيمة بالبادية ؟ !.. »

فابتدرتها عتبة قائلة : « ان الله على كل شىء قدير .. ألا تظنين ان رجوعك الى قصرك قد آن .. فان الفجر أصبح قريبا ، وأخشى

أن يشعر أحد برجوعك فنقع فيما نخشاه »

قالت : « يعز عليّ الذهاب يا عتبة ، ولكن لابد منه .. أين الدراهم التى أتيت بها معك ؟.. ادفعيها الى رياش .. »

فتناولت بدرة من الدراهم ودفعتها اليه ، فتناولها وأثنى على العباسة ، ونهض فقبّل يدها .. وكذلك فعلت برة . فقالت لهما العباسة : « لا حاجة بى أن أوصيكما بالحسن والحسين ، فانهما فلذة كبدى »

وكان الحسن أكبرهما سنا ، فلما تحقق من عزم والدته على الفراق ورآها وقفت .. ألقى بنفسه فى حضنها وأمسك بيدها وأسند خده على راحتها وقال وصوته مختنق : « تعالى معنا ياماما وقولى لأبى يجىء معنا أيضا .. »

فنظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفى عينيه دمعتان تترددان بين المآقى ، وشفتاه ترتجفان ولا تطاوعانه على الكلام . وكان يحاول الكلام ، ويحاذر أن يسبقه البكاء وقد غص بريقه .. فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر المؤثر ، وقد كانت تخشى فراقهما وتغالب نفسها وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها . فلما رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر والده ويطالبها به على تلك الصورة غلبتها عواطفها وأحست بما تكابده من ألم الفراق وثقل الحذر والخوف ، فلم تتمالك أن جلست بغتة وهى تضم الغلام الى صدرها

وتصيح : « صدقت يا ولداه » وأغرقت فى البكاء حتى أغمى عليها ..

وكانت عتبة واقفة ترقب حركات مولاتها وتشاركها فى كل عاطفة من عواطفها ، وقد همت أن تخفف عنها .. فلما رأتها جلست بغتة خافت عليها من الاغماء لأنها شاهدت اغماءها على تلك الصورة غير مرة ، فلما سمعتها تصيح وتبكى تحققت من غيبوبتها ، فتناولت احدى الشموع من المشمعة وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعى خادما يأتيها بالماء لترش سيدتها . وكان أبو العتاهية لايزال واقفا ينظر من ثقب الباب . فلما أسرعت عتبة اليه وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها ، بُغت وارتبك فى أمره ، وكاد الدم يجمد فى عروقه ، فوقف كأنه صنم من الأصنام وبصره شاخص كأنه لايرى شيئا .. أما عتبة ، فظننته لأول وهلة أحد خدم المنزل ، فصاحت به : « هات الماء » ثم علمت من ملبسه انه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة .. أما هو فلم يطل جموده الا لحظة ، ثم انتبه لنفسه وحوّل وجهه وهم بالفرار فلما تحرك تذكرت انها تعرفه ، ثم فطنت الى أنه أبو العتاهية فأشكل عليها أمره .. وهى على تلك الحال من القلق خوفا على سيدتها من الاغماء ، فغلب عليها ذلك القلق فأسرعت الى غرفة الخدم وصاحت بهم . فنهض أحدهم وجاءها بالماء وعادت الى سيدتها ، ورشّتها به فأفاقت .. وأخذت تخفف عنها ، وخاطرها

مشتغل بأبى العتاهية .. وأدركت من ارتباكه عند رؤيتها له ؛ انه كان يتلصص عليهم .. ولابد انه سمع شيئا من أحاديثهم .. وهى تعلم انه لايؤتمن على مثل هذا السر ، وان اطلاعه على أمر هذين الغلامين خطر على العباسة ، فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان على وجهها ، وهى تتردد بين أن تطلع العباسة على هذا الأمر أو تكتمه عنها ، ولكنها فضلت كتمانه لئلا تزيد من أحزانها ومخاوفها ..

على أنها عزمت على أن تدبر وسيلة تمنع بها أبا العتاهية من افشاء هذا السر . فلما فكرت فى ذلك ، ذهب قلقها وعادت الى التهوين على العباسة والتخفيف عنها ، وأشارت الى رياش أن يذهب هو وبرة بالغلامين أولا ، فأطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما وكانا قد تعودا عليه، وعرف هو ما يلهيهما به من المواعيد أو نحوها . فسكتا وظلت عتبة بجانب العباسة تشاغلها وتسايرها وهى تتنهد ولا يزال أثر الاغماء باديا عليها . فلما خرج رياش وبرة ، أمرت الخادم الذى كان قد جاءها بالماء أن يستدعى حيانا ، فذهب ثم عاد وحيان معه وآثار النوم ظاهرة فى عينيه لأنهم نادوه وهو مستغرق فى النوم فجاء ، وعلى رأسه طاقية لم تستتر الا بعض شعره ، فوقف بين يدى عتبة فقالت له : « ان مولاتى تطلب منك أن ترسل مع هذين الغلامين من يدبر لهما مركبا يركبان عليه الى دجلة »

- ٩ -

الهاجس

فأشار بيده على رأسه اشارة الطاعة وخرج ، وظلت العباسة وعتبة فى انتظاره . ثم أظهرت عتبة انها تحتاج الى شىء من حيان ، فخرجت للقياه وهو عائد فدعته الى خلوة فخاطبته ، وفى يدها منديل فيه نقود وضعته فى كفه ، وهى تقول : « أمرتنى مولاتى أن أشكرك على الخصوص لعنايتك بنا ، وهذا المنديل هو لك هدية منها » ثم مدت يدها وأخرجت صرة أخرى دفعتها اليه وقالت : « وهذه للمعلم فنحاس »

فأثنى حيان عليها جهد طاقته ، فقطعت كلامه قائلة : « هل أبو العتاهية هنا من زمن طويل ؟ »

فقال : « بل جاءنا الليلة »

قالت : « اصدقنى .. »

قال : «صدقتك.. فانه جاء لمقابلة المعلم فنحاس فى هذه الليلة ، وكان المعلم فنحاس قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » . قال ذلك بغير حذر ولا تردد فتحققت انه يقول الصدق

فقالت : « أطلب اليك خدمة لاتكلفك تعبا .. فهل تقضيها لى؟»

قال : « على الرأس والعين »

قالت : « أريد أن تستبقى هـــذا الشاعر عندكم ، ولا تدعه يخرج قبل أن أعود فى صباح الغد »

فاستغرب طلبها وقال : « أخشى أن يطلقه مولاى ، ولا يطيعنى فى بقائه »

قالت : « قل لمولاك ان أمير المؤمنين يريد استبقـــاءه لأمر يهمه »

فلما سمع ذكر أمير المؤمنين خفق قلبه لأنه لم يكن يعلم من أمر العباسة سوى انها امرأة من سرارى بغداد استأجرت تلك الغرفة فى تلك الليلة لأمر خاص فقال : « سأقول ذلك لمولاى »

قالت : « احذر أن تستخف بقولى »

قال : « سمعا وطاعة »

فقالت : «فاعدد لنا البغال ريثما نرجع» وأسرعت الى سيدتها فرأتها فى انتظارها وقد استبطأتها ، فسألتها عن سبب غيابها ، فقالت : انها ذهبت تطلب الى حيان اعداد البغال ، فصدقتها ثم خرجتا حتى ركبتا ومضتا

أما حيان فأخذ يفكر فيما سمعه من تحريض عتبة على الاحتفاظ بأبى العتاهية فلم يفهم لذلك سببا معقولا ، وقد خوفه ذكرها أمير المؤمنين .. ولكنه عزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها فى الصباح ليلقى تبعة ذلك عن عاتقه . وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه

أما أبو العتاهية فانه فرّ من وجه عتبة على تلك الصورة وقد ذُعِر وكاد الدم يجمد فى عروقه من البغتة.. لكنه ظن أنها لم تعرفه، فوصل الى فراشه ، وركبتاه تصطكان ، فاستلقى بعد أن أغلق الباب ، ولبث صامتا يتوقع أن يسمع صوتا أو يشعر بخفق نعال أو حركة تدله على ما كان من تأثير تلك المقابلة ، فمضت برهة وهو يحبس أنفاسه مبالغة فى الاصغاء .. ويصيخ بسمعه وقد تكاثف الظلام ، وشبح عتبة نصب عينيه .. وأخذ يفكر فيما عسى أن تكون العاقبة ، على أنه تخوف وغلب عليه الحذر . وكانت الحجرة التى بات فيها تشرف على الزقاق المؤدى الى باب تلك الدار من نافذة كانت مقفلة ، فما لبث أن سمع قرقعة اللجم وجلبة السياس ، فنهض وتطلّع من شق فى النافذة ، فرأى رياشا وبرءة قد ركبا ومعهما الغلامان ، فتربص ليرى ما يكون من أمر العباسة وجاريتها ، فسمع حركة السياس فى اعداد الركائب ورآهما قد خرجتا على بغلين وفى ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة ، وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة اخفاء لحقيقة حالها.. فتحقق من ذهابهما ، فاطمأن خاطره وعاد الى فراشه ، وأخذ يفكر فيما جاء من أجله الى فنحاس .. فعزم على أن يبكر فى الصباح الى غرفته ويفاتحه فى هذا الشأن ، ثم ينصرف الى بيت الأمين أو الى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لاختيار الجوارى ..

— ١٠ —

طارق

نام أبو العتاهية ، ولكنه لم ينم كثيرا حتى سمع جلبة فى ذلك الزقاق يتخللها قرقعة اللجم وصهيل الخيــل ، فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها بخفة .. فرأى الصباح قد لاح . فأطل فرأى عدة رجال على أفراس جياد ، عرف من سروجها وما عليها من أكسية الديباج انها من اصطبل الأمين ، فخفق قلبه وتفرس فى الراكبين فرأى بينهم الفضل بن الربيع وحوله جماعة من حاشية الأمين عرف أكثرهم ، ورأى فى ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول : « أظن أن القوم لايزالون نياما ؟ »

فأجابه أحد الفرسان : « لابأس من ايقاظهم فان المعلم فنحاس لايهمه الا كسب المال ولا يبالى بالنوم »

فقهقه الفضل ، ثم قال : « الا اذا ظن أننا قادمون لمصادرة ممتلكاته أو لأمر يذهب بحياته »

فقال الفارس : « لاخوف من المصادرة فى ظل أمير المؤمنين ، والذهب يتدفق من بيت ماله . ولا خوف من نكبته وأهل الدولة فى حاجة الى جواريه وغلمانه حتى أمير المؤمنين .. »

وفى أثناء ذلك تقدم أحد الخدم وقرع الباب وأخذ الفرسان فى التحول عن الخيول ، وأول من نزل الفضــل ، وكان طويل

القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية ، أسمر اللون ، يخالطه صفرة ، ولا يزال فى عنفوان الشبـاب وقد غلب عليه المزاج الصفراوى — على اصطلاحهم — فساعده على كتمان عواطفه والظهور بما يريده من التظاهر بالصداقة لأعدائه والسعى فى الوشاية لهم . وأهل هذا المزاج من أقدر النـاس على الكظم والتظـاهر بما يشاءون من الأحوال وكتمان ما تكنه ضمـائرهم ، فهم لذلك يصبرون على الضيم ريثما ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور العقل كما يفعل بأهل المزاج العصبى أو الدموى الذين اذا غضبـوا ظهرت امارات الغضب فى عيونهم وجباههم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره

فلما تحقق أبو العتاهية من مجىء الفضل قال فى نفسه : « لابد من أمر بعث على تعجله فى المجىء ، ولابد أن يكون الأمين قد حمله على ذلك تشوقا لما وعد به نفسه من أمر أولئك الجوارى لاهتمامه بأسباب القصف والترف ، ورغبته فى الغناء . وخشى أبو العتاهية أن يحول مجىء الفضل فى تلك الساعة دون ما يتوقعه من الكسب وهو لم يقابل فنحاس بعد ، فتحول عن النافذة وهو يطلب غرفة فنحاس ، فرأى أهل الدار فى هرج يتقدمهم حيان وقد أسرع الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد أنبأه بمجيئهم فلم ينتبه لأبى العتاهية . أما هذا فظل سائرا الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلا فدقه وهو يناديه قائلا : « لعل

المعلم فنحاس لايزال نائما ؟ »

فلم تمض لحظة حتى سمع وقع خطواته داخل الغرفة ، ثم فتح الباب وأطل منه المعلم فنحاس وهو لايزال بملابس النوم ، ليس عليه سوى السراويل والدراعة فوق القميص.. وفى عينيه رمص من ضعفهما وطول النوم ، وقد تشعث شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفيه ولحيته . وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال ، وهى منقسمة الى شطرين وأنفه كبير مستدق قد ذهب طوله باحديدابه .. وكان لدهشته فى تلك الساعة قد نهض وقميصه مفتوح من أعلاه ، فظهر أسفل عنقه وأعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر أجعد او رأيته فى تلك الحالة لحسبته من المتشردين

أقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح الرمص عنهما ببطن كفه ، وحالما وقع نظره على أبى العتاهية عرفه فصاح فيه : « ما وراءك يا أبا العتاهية ؟ »

فدخل أبوالعتاهية ، وأغلق الباب وراءه وهو يقول : « لقد جئتك مساء أمس بمهمة وكنت نائما فانتظرتك الى هذه الساعة ، ولما استبطأتك جئت لايقاظك فأرجو أن لا أكون قد أزعجتك »

فقال فنحاس وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل قميصه : « ليس ثمة ازعاج .. قل ما الخبر ؟ ! »

قال : « لا تخف فان المسألة رابحة .. قد حرضت مولانا ولى

العهد على اقتناء بعض الجوارى ، وان لا يبتاعهن الا من عندك وأنت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفـاء وأهل الدولة ، فأطاعنى فجئت لأخبرك بذلك على أن لا تضيع تعبى »

فقطع فنحاس كلامه قائلا : « فهمت المطلوب .. كن مرتاحا .. فمتى أتى رسوله بهذا الشأن أضفت نصيبك الى هـذا الثمن بارك الله فيك .. أليس هذا الذى تريده ؟ انك رجل غيور على مصلحتى .. واذا شئت جعلت نصيبك من الصفقة جارية جميلة »

قال : « لا حاجة بى الى الجوارى كما تعلم »

فضحك وهو يفتش عن قبائه وجبته وقال : « حسـنا .. انى أفهم بالاشارة ، فافهم انت.. ولن يتم الشرط الا بعد وقوع البيع»

قال : « البيع يتم فى هذه الساعة لأن الأمين أرسل الفضل بن الربيع ، وقد وصل الى دارك وأظنهم أدخلوه الى دار الرقيق الآن واحذر أن تطلع أحدا على ما دار بيننا .. »

فوضع فنحاس يده على فم أبى العتاهية وقال : « لله ما أكثر سذاجتك ، كنت أظن أنك أذكى من ذلك ..» ثم عاد الى تسريح شعره ، واصلاح شأنه .. فمشط لحيته ، وفتل شاربه ، وشدّ على خصره منطقة فوق القباء ، ولبس الجبة وخرج وأبو العتاهية فى اثره واذا بحيان يسرع نحوهما ، فلما وقع نظره على أبى العتاهية أجفل وتذكر وصية عتبة فأراد أن يوقف مولاه ليخبره بالقادمين ويبلغه تلك الوصية ، فابتدره فنحاس قائلا : « فهمت مرادك ، ها أنا

ذاهب اليهم .. أين هم ؟.. » وهو يحسبه قادما ليخبره عن الفضل فقط.. فبغت حيان ، ولم يجرؤ أن يخبره بغرضه وخاصة بين يدى أبى العتاهية فسايره وقال : « قد جاء مولانا الفضل بن الربيع فأدخلناه دار الرقيق وهو فى انتظارك هناك » وأجل الخبر الآخر الى فرصة أخرى

أما أبو العتاهية فانه نظر الى حيان وتبسم على جارى العادة وهو لايعلم ما فى ضميره ، فحيّاه حيان متأدبا ومشى فى أثره

— ١١ —

دار الرقيق

مشى المعلم فنحاس وهو يتعثر بأذيال جبته حتى خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق . فأشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عديدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة . وكان الفناء مزدحما بالخدم من رجال الفضل وأنظارهم متجهة نحو تلك الغرف كأنهم يشاهدون فيها شيئا غريبا . وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس ، وفيها الوسائد مصفوفة بين الجدران .وقد زخرفت تلك الجدران بالنقوش الملونة ، وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته ولبث فى انتظار المعلم فنحاس . أما هذا فحالما أقبل على

الغرفة رأى الفضل فى صدرها جالسا وقد أسنـد كوعيه على ركبتيه ، فهرع اليه مسرعا وأكب على يده ليقبّلها وهو يبتسم ويتـأدب ، فضحك له الفضل واجتـذب يده منه وهو يقول : « أظننا أزعجناك بهذه الزيارة »

قال : « كلا يامولاى ، فان زيارتكم شرف كبير لنا .. »

فأشار اليه بالجلوس وهو يقول : « ان مولانا ولى العهد رغب الينا أن نأتيه ببعض الجوارى الحسان ممن يحسن الغناء ، وقد كان فى الامكان أن نبعث اليك ببعض خاصتنا فى هذه المهمة ، ولكننا أحببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج على ماحوته من أصناف الجوارى والغلمان ، فقد قيل لنا انها تحوى من كل معنى طرف »

فقال وهو يتكمش ويتلملم تأدبا : « لقد تحملتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتمونى شرفا لا أستحقه ، وكنتم فى غنى عن ذلك باشارة منكم .. فننقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدى مولانا حفظه الله ، ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة . أما اذا شئتم أن تشاهدوا أصناف الرقيق التى فى هـذه الدار فترون فيها ما لايجتمع فى سواها لأنى لم أدخر وسعا فى احضار أحسن الرقيق : الأبيض ، والأصفر ، والأحمر ، والأسود من الجوارى والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان .. من المولد فى العراق أو الحجاز والمجلوب من أقاصى بلاد الترك ،

والروم ، وطبرستان ، وخراسان ، والسند ، والمغرب ، وفيهم الصقلبى والصقلبية ، والرومى والرومية ، والتركى والركية ، والفارسى والفارسية ، والأرمنى والأرمنية ، والسندى والسندية ، والبربرى والبربرية .. »

فقطع الفضل كلامه قائلا : «هل عندك من الجوارى المغنيات ؟»

قال : « كيف لا ؟.. وقد تعلمن الغناء عند مغنى مولانا أمير المؤمنين نفسه وحفظن الأشعار المطربة ، وأتقن الضرب على آلات الطرب..وفيهن العوادة ، والطنبورية، حتى صاحبة الدف والمزهر»

فضحك الفضل وقال : « كأنى بك تصف جوارى أمير المؤمنين.. ولكن أظن أن المغنيات اللواتى أشرت اليهن من الجوارى الصفر والسود ومولانا انما يريد مغنيات من الجوارى البيض »

فقال : « كل ما يطلبه مولانا هو عندى »

قال : « ولكن أهل بغداد لم يتعودوا تعليم الجوارى البيض الغناء فانهم انما يقتنونهن للتسلية كما لايخفى عليك ، ولم أعرف أحدا علّم الغناء للبيض الا ابراهيم الموصلى مغنى أمير المؤمنين»

قال : « ألم أقل لمولاى انه يجد عندى كل ما يطلبه ؟ ! »

— ١٢ —

ألوان من الرقيق

فتحفز الفضل للقيام ، فنهض المعلم فنحاس ونهض سائر الحاشية ،

ومشى هو بين أيديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار ، فأسرع الخدم الى الانزواء وفتحوا الطريق للفضل ، فمشى والمعلم فنحاس يمشى بين يديه متأدبا ، وفى أثر الفضل رجال حاشيته .. حتى اذا قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الأولى من جهة اليمين ، وكان بابها مفتوحا قليلا ففتحه فنحاس بيده فرأى الفضل جماعة من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز أكبرهن العاشرة من العمر، وكلهن عاريات لايكسو أبدانهن الا ما يستر العورة من الاطمار البالية.. وخشونة البادية ظاهرة عليهن ، بارسال شعورهن ساذجة لم يمسها المشط منذ خلقن . ولكنه رأى الجمال الطبيعى يتجلى فى اشراق وجوههن بالبياض المشرب بحمرة يدل على صحة البدن..

ناهيك بجمال العيون .. وفيهن شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك. أما هن فحالما فتح الباب ورأين الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين ، وظهر الخوف على وجوههن ، ولكن الحجرة أضيق من أن تتسع لفرارهن . فجعلن يتسترن بعضهن وراء بعض وعيونهن شاخصات ، وبعضهن أخذن فى البكاء واستغثن بلغة لم يفهمها أحـد من الوقوف ، فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر الى فنحاس .. فابتدره فنحاس قائلا : « لا تعجب يامولاى لما تراه فى هؤلاء من الوحشة فان معظم اللواتى فى قصور الخليفة وسائر الأمراء من الجوارى الحسان والقيان والمطربات.. كن فى بادىء الأمر مثل هؤلاء ، وقد

أتيت بكم الى هذه الحجرة أولا لأريكم حال الجوارى عند أول حضورهن ، لتعلموا كم نقاسى فى تربيتهن حتى تنبغ منهن الجارية التى تباع بألف دينار ، أو عشرة آلاف ، أو عشرين ألفا »

فقال الفضل : « فى الحقيقة انه عمل شاق .. هل كانت فريدة ومنة ، ودينار ، وأم الخال ، وغيرهن من الجوارى الفاتنات فى مثل هذه الخشونة ؟ »

قال فنحاس : « نعم .. ان أكثرهن حضرن بهذه الصورة »

قال الفضل : « ومن أين تأتى بهن ؟ »

قال فنحاس : « ان النخاسين يتجولون فى بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والأخطار حتى يأتوا بهن »

قال الفضل : « وكيف يجدونهن هناك ؟ »

قال فنحاس : « يأخذون البعض بالغزو ، والبعض الآخر بالشراء من والديهن ، أو بعض أقاربهن ، بثمن بخس ويبيعونهن لنا بأغلى الأثمان »

فقال الفضل : « أليس حراما أن يفصل هؤلاء عن آبائهن ويحملن الى ديار الغربة وهن صغيرات بهذه الصورة ؟ »

فضحك فنحاس وهو يحتشم فى ضحكه وقال : « كلا يامولاى فان استرقاقهن من أكبر أسباب سعادتهن لأنهن ينتقلن به من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدنية والترف ، وقد يبلغن من رخاء العيش ما لايبلغه بنات الأمراء وخاصة من كانت منهن

جميلة الوجه رخيمة الصوت ، وليس كل واحدة منهن تبلغ الى ذلك النعيم الا اللواتى ينبغن ويبرعن ، فهؤلاء نبيعهن بثمن غال.. فربما نبغت واحدة من كل خمسين أو ثمانين . فمن نبغت وكانت تتصف بالذكاء ولها صـوت رخيم ، علمناها الغناء وحفظنـاها الأشعار، ونعلّم الباقيات بعض الصناعات المنزلية وغيرها على قدر الطاقة .. وسترى فى ما تمر به من الغرف أصنافا من الجوارى على اختلاف الطبقات .. »

فاستغرب الفضل مما سمعه ، وأظهر الاكتفاء من رؤية تلك الحجرة وحوّل وجهه ، فسبقه فنحاس الى الغرفة التالية وفتحها فرأى فيها فتيات سود البشرة ، جعد الشعور ، فطس الأنوف ، فعرف الفضل انهن من بنات الزنوج .. وهن أقرب الى القذارة والوحشية من أهل الحجرة الأولى ، والسواد أقبح الألوان يندر اجتماعه مع الجمال .. ولاحظ فنحاس ان الفضل ميال الى سرعة الانتقال من هناك ، فمشى أمامه وهو يقول : « هؤلاء صـغار الزنوج يحملهن الينا النخاسون من أقاصى السودان ، والغالب فى أخذهن على سبيل السبى بلا ثمن ، ونحن نبتاعهن بثمن بخس ، وأكثرهن يتعلمن الخدمة الشاقة ، ويغلب أن نجعلهن فى خدمة الجوارى البيض »

وقبل أن يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنحاس : « وفى هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النخاسون من بادية افريقية .

وأكثر هذا الصنف من الجوارى ينقلن الى بغداد بدلا من الجزية كما لايخفى على مولاى . وفى الغرفة التى تليها جوار صفر من بلاد السند ، وفى الغرفة التى بعدها جوار حمر من بلاد الروم ، وفى الغرف الأخرى طبقات من أولئك الجوارى بين سرار ومواشط وحواضن وطباخات وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة . وفى بعض هذه الغرف طبقات من أصناف المماليك البيض والسود ، وقد تدربوا على الصناعات المنزلية بين طاه وخباز وفراش وسائس . وفيهم من أتقن الأدب وحفظ الشعر والعربية ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود على اختلاف الأعمار »

— ١٣ —

الجوارى المولدات

فرأى الفضل ان التنقل بين جميع هذه الغرف يطول أمره ، فقال : « أرنا أمثلة من أغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل ، فان الوقت لايساعدنا على رؤية كل من فى هذه الغرف »

فقال : « هل تريد أن أريك الغلمان الصغار من البيض والسود فانهم فى مثل ما رأيته ؟ »

قال : « أجل .. أرنا الجوارى الصبيات »

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصـــل الى حجرة فتح بابها فاذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر ، وهن مع ذلك فى حال الســذاجة ، عليهن أكسية من الأثواب البسيطة ، وشعورهن مرسلة أو مجدولة ، وفى آذانهن الأقراط ، وفى أعناقهن عقود من الخرز الملون ، وفيهن جمـــال النســاء وحياؤهن.. ولما رأين الفضل ورجاله ، غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف ، فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى فى عينيها سحرا وفى قامتها رشاقة ، وقد زادتها السذاجة جمالا وهيبة.. فوقعت من نفسه موقعا حسنا ، فناداها بالعربية فلم تفهم مراده ...ولكنها أدركت انه يناديها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها وغطته بذراعها ، فأعجبه ذلك النفور فقال : « أين أبو العتاهية أو أبو نواس يصف لنا هذا المنظر ببيت من الشعر ؟ ! »

فتذكر فنحاس أبا العتاهية ، والتفت وهو يتوقع أن يراه الى جانبه فلم يجده ، وأوشك أن ينطق باسمه لو لم يتذكر نصيحته بتكتم أمره ، فقال : «صدق مولاى باعجابه ، فانهذه الجارية من طبرستان اشتريتها فى جملة جوار من نوعها .. وليس فيهن أجمل منها . ولكنك سترى ما هو أعجب من ذلك .. فكيف لو رأيت الجوارى المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الألبـــن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأساط المخنصرة ، والأصـــداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة ، وحسن زيّهن وزينتهن ، وفيهن

الطويلة البيضـــاء ، والســـمراء اللعساء ، والصـــفراء العجزاء ؛ وبينهن من اذا صببت عليها جرة ماء وهى قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها شيء لعظم عجيزتها مثـــل ما يتحدثون عن عائشـــة بنت طلحة التى كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان »

فضحك الفضل لمهارة فنحاس فى وصف جمال النســـاء مع ما يظهر من شيخوخته وقال له : « أراك ماهرا فى وصف الحسان يا معلم فنحاس »

فأجابه على الفور ويده على لحيتـــه : « وأين قضيت هـــذه الشيبة يامولاى ؟ »

فقال الفضل : « اذهب بنا الى الجوارى المولدات »

فأشار اشارة الطاعة ، وتحول الى الجانب الآخر من الفناء .. فتبعه الفضـــل ورجاله وفنحاس يقول : « يظهر انكم تعبتم من الوقوف فها أنا ذا ذاهب بكم الى الجوارى المغنيات اللواتى حفظن الأشعار وأتقن الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » حتى وصل بهم الى غرفة فتح بابها ووسع للفضل مدخلها ، فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفى بعض جوانبها ثلاث من الجوارى البيض جالسات ، وقد فاحت رائحة المســـك منهن .. على احداهن ملحفة معصفرة فوق غلالة حمراء ، وعلى رأسها عصابة مزركشة ، وقد أرخت تحت العصابة سالفتين علقت فى طرف كل سالفة ياقوتة حمراء ، وأرخت شعرها كأنه الليـــل



« فوقع نظر الفضل على واحدة منهن، رأى فى عينيها سحرا وفى قامتها رشاقة، وقد زادتها السذاجة جمالا وهيبة.. فوقعت من نفسه موقعا حسنا .. »

وتبخرت بالعود وتعطرت بالمسك ، وكانت مقدمة على صاحبتيها لأنها أجملهن خلقة .. على أن صاحبتيها كانتا فى مثل مظهرها من حيث الملبس ، ولكنها تفضلهما بجمالها ورشاقة قدها ، وكانت عيناها سوداوين كأنهما مكحولتان .. ولونها أبيض فى صفاء البللور ، وفى عنقها عقد من العقيق . وكانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة . فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلا : « قومى ياقرنفلة وقبّلى يد مولانا الفضل بن الربيع » وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة .. فتحفزت للوقوف ، وطال تحفزها لثقل فخذيها على حد قول الشاعر :

فقيامها مثنى اذا نهضت   من ثقله وقعودها فرد

ثم نهضت ومشت وهى تتمايل وسراويلها تتثنى فوق قدميها . حتى اذا دنت من الفضل بن الربيع هشت له وابتسمت ابتسام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيل يده فمنعها . والتفت الى فنحاس لفتة الاستحسان فقال فنحاس : « خاطبها يامولاى ، فانها فصيحة اللسان »

فحياها الفضل فأجابت بأفصح عبارة ، فأدرك من لهجتها أنها بصرية ، ولكنها تختلف عن أهل البصرة فى لون الوجه وسائر الملامح .. فنظر الى فنحاس وقال له : « لعل هذه الجارية من أهل البصرة ؟ »

قال : « كلا .. ولكنها ربّيت فى البصرة منذ طفولتها وأصلها

من بلاد الكرج ، وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتى شاهدتهن فى الحجرة الأولى ، فآنست فيها ذكاء وجمالا فأرسلتها الى عميل لى فى البصرة ، علّمها اللغة العربية والقرآن وحفظها الأشعار . ولما عادت الىَّ أعجبنى منطقها ورخامة صوتها ، ورأيت ما علمته من رغبة رجال الدولة فى الاقتداء بأمير المؤمنين بتعليم الجوارى البيض الغناء ، فرغبت الى الموصلى مغنى الخليفة فى تعليمها ، فلم يقبل الا بعد أن بذلت له المال الكثير .. وصرت أبعثها اليه كل صباح تأخذ عنه لحنا بعد آخر ، حتى أتقنت هذه الصناعة وأصبحت نادرة بين جوارى بغداد لايوجد نظيرها ، ولا فى بلاط الخليفة »

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال تلك الجارية ، وكانت قد تشاغلت عن سماع اطناب فنحاس بانزال عود كان معلقا على الحائط ، فانحسر كمها عن يدها فبانت غضاضة زندها وعليه الأساور والدمالج ، وبان الخضاب فى كفها .. ورأى قرطيها يلمعان فى أذنيها . فلما فرغ فنحاس من اطنابه قال له الفضل : « قلت انها تحفظ الشعر وتجيد اللغة العربية »

قال : « اسألها ما شئت ، واسمع حديثها أو انظر الى عصابتها واقرأ ما زركشته عليها »

فتقدم الفضل ونظر الى العصابة فرأى عليها بيتا من الشعر بحروف من الذهب هو :

ليس حسن الخضاب زينا لكفّى حسن كفى زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول : « ما أجمل هذه العصائب ، لله در مخترعتها .. »

قال : « أظنك تعنى مولاتنا عليّة أخت الرشيد.. فانها ابتكرت للحسان ــ حقا ــ وسيلة فعّالة من وسائل الجمال »

قال الفضل : « هل تعلم السبب الذى من أجله اتخذت هذه العصائب ؟ »

قال : « كلا يامولاى .. »

قال : « أنا أخبرك عن السبب .. ان فى جبين عليّة فضل سعة حتى تسمج به فأرادت اخفاء ذلك العيب ، فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها ، فاستحدثت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء أجمل منه » (١)

فتحقق فنحاس من أن الفضل سيشترى هذه الجارية لا محالة ، فأراد أن يرغبه فى الأخريين فأشار الى احداهما اشارة فهمتها فانزوت فى أحد جوانب الغرفة والتفتت الى مرآة معلقة بالحائط بحيث لايظهر وجهها لأحد ، وكان الفضل مشتغلا عن ذلك بمراقبة الجارية الأولى وهى تتلهى باصلاح العود ، فلما علم فنحاس ان الجارية الثانية أتمت وصيته التفت الى الفضل وقال : « وانظر الى ما على وجه هذه .. تقدمى ياسوسنة » وأشار اليها فأتت

---

(١) الاغانى ــ الجزء التاسع صفحة ٧٩

تتهادى بمشيتها وثوبها الأرجوانى يتموج بلمعانه

فتفرس الفضل فى وجهها فرآها قد كتبت على خدها بالمسك : « الفضل بن الربيع » فافتتن الفضل بذلك ورغب فى هذه الجارية أيضا

فأدركت الثالثة رأيه وخشيت أن تبقى وحدها وهى تعد ذهابها مع الفضل نجاحا كبيرا لا تطمع فى أحسن منه ، فانزوت جانبا وبيدها تفاحة عالجتها سرا ، ثم عادت حتى أقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له فتناولها واذا عليها بيت من الشعر مكتوب بالغالية وهو :

أقول والركب قد مالت عمائمهم
وقد سقى القوم كأس النعسة السهر

فأدرك الفضل انها تشير الى ما يقوله ناظم هذا البيت (أبو دهبل الجمحى) بعده :

يا ليت انى بأثوابى وراحلتى
عبد لأهلك هذا الشهر مؤتجر
ان كان ذا قدرا يعطيك نافلة
منا ويحرمنا ما أنصف القدر

فكأنها تشير الى رغبتها فى الذهاب مع رفيقتيها .. فاستحسن الفضل فطنتها ، وعزم على ابتياع الجميع .. وكان فى عزمه سماع غنائهن قبل الشراء ، ولكنه خشى التأخير ، ولم يكن ميالا للهو

والقصف ، وانما طاوع الأمين لغرض له فى سياسة الدولة .. فعزم على المسير لوقته

– ١٤ –

المساومة

فتحول عن الغرفة ، وتبعه رجاله وفنحاس بين أيديهم ، وهو يقول : « اذا شاء مولاى أريته أصنافا أخر من الجوارى البيض والسمر ، والحمر ، والسود ، ولكنه رأى أحسن ماعندى » قال ذلك ترغيبا له فيما وقع عليه اختياره . وســـار بين أيديهم حتى أدخلهم غرفة الاستقبال فجلســـوا ، فأمر فنحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل لأنه لايرى فى الوقت متسعا لذلك .. والتفت الى فنحاس وقال : « بكم تبيع هؤلاء الجوارى الثلاث ؟ »

فوقف فنحاس وقفة الاحترام وقال : « وهل على ولى العهد شرط أو مساومة ؟.. ان الجوارى جواريه ونحن جميعا عبيده ، سواء دفع مالا ، أو لم يدفع .. »

فلم يجهل الفضل احتيال فنحاس فى ذلك فقال : « نحن جميعا صنيعة ولى العهد ، ولكن البيع والشراء حق واجب »

قال : « لابأس من البيع ، ولكننى أستحيى أن أحدد ثمنا .. فافرض ما تراه »

قال الفضل : « ذلك اليك .. فاطلب ما تريده »

قال : « ولكن مثلك يعرف قيمة الأشياء ، ومولانا ولى العهد كريم اذا أعجبه أمر فلا يبالى بثمنــه .. ونحن نقبــل منه أن يدفع كما يدفع مولانا أمير المؤمنين .. »

قال ذلك وابتسم كأنه يظهر المزاح أو يخلط بين الجد والهزل ، فقال الفضل : « وكم يدفع أمير المؤمنين ؟ »

قال : « ألم يدفع ثمن الجارية ١٠٠٫٠٠٠ دينار (١) ، وهل تلك الجارية أحسن من قرنفلة أو سوسنة ؟ » وضحك

فضحك الفضل حتى استلقى على ظهره ، وقال : « ألا تدري ما ترتب على ذلك السخاء .. ألا تعلم انه فعل ذلك فى أول حكمه ولما أمر وزيره يحيى بن خالد أن يدفع هذا المال اعتذر عن دفعه فغضب أمير المؤمنين ، فأراد يحيى أن يبين مايحتمله بيت المال فى هــذا السبيل ، فجعل المــال دراهم فبلغت ١٥٠٠٫٠٠٠ درهم فعرضها فى الرواق الذى يمر به الخليفة حينما يريد الوضوء .. فلما رأى ذلك المال استكثره وعلم انه اسراف .. »

فقال فنحاس : « فاذا لم يشأ مولانا ولى العهد أن يدفع كما دفع أبوه ، فليدفع كما دفع وزير أبيه .. »

فعلم الفضل انه يشير الى جعفر البرمكى عدوه فتذكر مابينهما من المنافسة ، ولكنه تجاهل ، ولم يبــد فى وجهه تأثر وقال :

---

(١) الطبرى ١٣٣٢ ــ الجزء الثالث

« ما الذى دفعه ؟ »

قال : « ألم يدفع ثمن الجارية ٤٠٫٠٠٠ دينار (١) وهل يليق بولى العهد أن يدفع أقل من ذلك ؟.. وعلى كل حال انى مرسل الجوارى الى قصر ولى العهد والذى يدفعه مقبول »

فاستاء الفضل من هذه المساومة ، وشقّ عليه أن يجعل الأمين أقل سخاء من عدوه ، والناس يومئذ يكتسبون الأحزاب السياسية بالسخاء ، وكان فنحاس يعلم تلك المنافسة ، اذ كان مطلعا على أسرار الجميع .. ولم يقل ماقاله الا وهو يعلم ان الفضل لايراجعه حفظا لكرامة مولاه الأمين ، لعلمه انه يرى من حسن السياسة أن يحفظ منزلته بين رجال دولته حتى لايجدوا عليه ما يصغره فى أعينهم ، وخاصة فى تلك الحال.. فنجح فنحاس فى خطته لأن الفضل أراد أن يظهر فضل الأمين فقال : « لو كان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التى ابتاعها الوزير لحق لك هذا الطلب ، ومع ذلك فاننى سأجعل ثمن الجوارى الثلاث معا ١٠٠٫٠٠٠ دينار »

فقال فنحاس وهو يظهر الزهد فى الكسب : « كل ما يدفعه مولانا كرم منه .. فاننا وما نملك من بعض صنائعه »

ولم يجهل الفضل تملق ذلك اليهودى ، ولكنه جاراه وقال : « بارك الله فيك .. أرسل الجوارى الى قصر مولانا مع من تثق به لتسلم المال »

---

(١) ابن خلكان – ١٠٦ الجزء الاول

قال : « سأرسلهن حالا .. وليس المال مما يستعجل فيه .. »
فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف ، فسبقه رفاقه الى النهوض وأسرع أحدهم الى الخدم فى فناء الدار ، فأشار اليهم أن يسرعوا فى اعداد الركائب ، واشتغل الفضل فى اجابة فنحاس على عبارات المجاملة والاطراء ، وهو فى أثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته اخفاء لما جاء من أجله

— ١٥ —

القبض على أبى العتاهية

ولم يكد الفضل يفرغ من ذلك ويخرج الى باب المنزل حتى سمع جلبة ، ثم رأى جماعة من الرجال يتشاجرون وعليهم أردية تغطى أثوابهم كأنهم متنكرون ، ولكنه عرف من قلانسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها انهم من جند الدولة .. وأول من ألبس الجند هذا الزى أبو جعفر المنصور (١) ، ولكن الفضل استغرب تنكرهم بالأردية فوق أثوابهم ، على أنه ما لبث أن سمع صوتا ينادى : « انى من رجال الفضل بن الربيع .. اتركونى وشأنى »
فلما سمع الفضل اسمه تقدم ، فوسع له أصحاب القلانس ،

(١) العقد الفريد — الجزء الاول

وكانوا متكأكئين على رجل يوثقونه وهو يحاول التخلص من بين أيديهم.. وحالما وقع بصره عليه ، عرف انه أبوالعتاهية ، فاستغرب وقوعه فى تلك الورطة ، ونظر يمينا وشمالا فرأى فى أحد جوانب الزقاق امرأة ملثمة تشير اليهم أن يوثقوا الرجل ، ولما رأته بالغت فى التنكر والتستر ، والرجال يوثقون أبا العتاهية بالوثاق وهو يهددهم بأنه من رجال الفضل ، وهم يقولون : « ما لنا وللفضل فما عليك الا أن تجيب الخليفة » ووقعت عين الفضل على عين أبى العتاهية ، فرآه يشير اليه ويستنجد به ، وفى استنجاده معنى توقع منه خيرا ..

فصاح الفضل بهم : « اتركوا الرجل .. من الذى أمركم بالقبض عليه ؟ »

فأجابوه وهم مشتغلون بشد الوثاق : « هذا أمر أمير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه

فقال لهم : « ومن ينبئنا بأن أمير المؤمنين يطلبه ، وما شأنكم فى ذلك ؟ »

فتقدم أحدهم اليه ، وهو عريفهم ونظر الى الفضل.. فتوسم من زيّه انه من كبار أهل بغداد ، ولكنه أنكر تلثمه وقال : « اننا من جند أمير المؤمنين وقد أمرنا بالقبض على هذا الرجل »

قال : « لا أراكم من الجند ، وليس عليكم شارة الدولة .. »

فابتسم الرجل مظهرا الاستخفاف بذلك الانكار وخلع الرداء

عنه وأدار ظهـــره ليقرئه ما هو مطـــرز بين كتفيـــه ، فقرأ : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » ثم أشار العريف الى خصره ، فرأى سيفه معلقا بمنطقته

فضحك الفضل وقال : « هذه ثياب قديمة من أيام المنصور لأنه هو الذى أمر رجاله بكتابة هـــذه العبـــارة (١) على أثوابهم ، وبتعليق السيوف بمناطقهم فلا يبعد انكم ابتعتم هذه الأثواب من بعض الوارثين لتنتحلوا الجندية ، والا فأين اسم أمير المؤمنين الرشيد ؟ »

فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على أعلى الكتف اسم الرشيد مطرزا بالقصب : « هرون بن المهدى أمير المؤمنين » ثم تحول العريف عن الفضـــل وهو يهز رأسه ، وتوجه نحو رجاله وهم لايزالون يوثقون أبا العتاهية ، وأخذ يستحثهم على الاسراع فى شد الوثاق ، وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون أمره لانقاذ أبى العتاهية ، ولم يريدوا الاقدام على ذلك الا باشارة ، خشية أن يكون قاصدا التنكر لغرض فى نفسه

أما هو فلما رأى استخفاف العريف به ، ناداه بصوت هادىء يمازجه التهديد قائلا : « ولكنه يقول لكم انه من رجال الفضل ابن الربيع »

قال : « ومن ينبئنا بصدق قوله ؟.. وهب انه صادق فنحن

---

(١) الاغانى ــ الجزء التاسع

مكلفون بالقبض عليه » قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه ، فصاح به الفضل : « أنا أقول لك أيضا انه من رجال الفضل فاتركوه »

فلما سمعه يخاطبه بهذه اللهجة ، تحول نحوه وتفرس فى وجهه من وراء اللثام ، ثم التفت نحو المرأة التى كانت واقفة هناك فرآها تنسل من بين الجماهير .. فعلم انها تسعى الى الفرار ، واستدل من ذلك على ان الرجل الذى يخاطبه ممن يخشى بأسهم .. على انه لم يكترث لقوله ، وعاد الى رجاله وصاح فيهم : « أوثقوه حالا »

وكان فنحاس فى أول الأمر واقفا بجانب الفضل ، فساءه ماوقع فى منزله من القبض على أبى العتاهية ولم يفهم السبب ، وحدثته نفسه أن يتقدم لانقاذه وهو قادر على ذلك لكثرة من فى داره من الرجال ، ثم تذكر وعده بتخصيص نسبة له من ثمن الجوارى. فتوسم بالقبض عليه بابا للتخلص مما وعده به ، هذا الى ان حيانا ما لبث أن جاءه وأسر اليه ما كان فى الأمس وما أوصته به الجارية من الاحتفاظ به ريثما تأتى ، وان سيدتها من أهل أمير المؤمنين .. فاطمأن فنحاس ، وصمم على السكوت ، ودخل الى داره يتشاغل بما لا طائل تحته

أما الفضل فلما سمع تهديد العريف ، تقدم خطوتين بقدم ثابتة وهو يقول للرجل : « لا .. لاينبغى أن توثقوه حتى نعرف ما هو ذنبه .. والا فأنتم تتحملون تبعة هذا العمل عند أمير المؤمنين »

فالتفت العريف نحو الفضل وهو يقول : « ومن أنت حتى تهددنى بأمير المؤمنين ؟ امض لشأنك »

فلما سمع رجال الفضل ما فى تلك العبارة من الاستخفاف كادوا يهمون بالرجل أو يصرحون له بالحقيقة ، ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا ينتظرون أمره .. أما هو ، فظل رابط الجأش ، وما زاد على انه أشار الى رجاله أن يخلصوا أبا العتاهية .فهجموا ، وكانوا أشداء وأكثرهم من القواد . فعلت الضوضاء وهم الجند بتجريد السيوف ، فصاح الفضل فيهم : « لا حاجة بكم الى السيوف .. اتركوا الرجل ، فاذا سئلتم عنه فقولوا ان الفضل بن الربيع أخذه منكم ، فاذا كان أمير المؤمنين أو سواه فى حاجة اليه فيطلبه منى »

فلما سمعوا ذلك التصريح بغتوا وتوقفوا عن الحركة ، وجاء العريف الى الفضل ، وقال له بغير لهجة الاستخفاف : « ان الرجل طلبه أمير المؤمنين .. فكيف تتركه بعد أن قبضنا عليه ؟ وماذا نجيب اذا سئلنا عنه ؟ »

قال : « قل لطالبه انه عندى .. قل انه عند الفضل بن الربيع أو عند ولى العهد كما تشاءون » قال ذلك وهو يهم بازاحة اللثام

فلم يبق عند العريف شك انه بين يدى الفضل ، ولكنه نظر الى من كانوا حوله من الرجال ، فسمع أحدهم يقول له همسا : « انك تخاطب وزيرا كبيرا .. هذا هو الفضل بعينه »

فتقدم العريف نحوه وهو يتأدب فى مشيته وقال : « لماذا لم يقل مولانا ذلك فى بادىء الأمر ، فنحن صادعون بأمره » ثم أشار الى رجاله فحلوا وثاق أبا العتاهية ، وتحولوا .. فاتجه أبو العتاهية نحو رجال الفضل ، وقد وقعت عمامته عن رأسه ، وانتفش شعره فظهر قبح منظره ، وجاءوا به الى الفضل فخرَّ على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه ، فأنهضه الفضل وهو يقول له : « ما الذى أوقعك فى هذا المأزق وأنت الشاعر الزاهد ؟.. » وضحك وهو يحسب ان سبب القبض عليه مما يخالف أسباب الزهد

فقال : « ان السبب يامولاى سأقصه عليك وهو يهمك »

فأشار اليه أن يسير معهم ، وأمر رجاله بالركوب بعد أن قدموا له فرسه ، فركب وركبوا فى أثره قاصدين قصر الأمين

— ١٦ —

الصولجان والكرة

أما العريف ورجاله فانهم عادوا الى قصر العباسة ، وكانت قد أرسلتهم للقبض على أبى العتاهية بمشورة عتبة . وذلك انهما لما رجعتا الى القصر فى أواخر الليل ، كما تقدم ، ظل خاطر عتبة مشغولا بما علمته من أمر أبى العتاهية .. وقد رجح فى ذهنهـا اطلاعه على سر مولاتها . فلما وصلتا الى القصر دخلت العباسة

الى غرفتها تلتمس النوم ، واستولى القلق على عتبة فلم تتمالك عن الدخول عليها باكرا والتصريح لها بما لاحظته ، وأشــارت بالقبض على أبى العتــاهية سريعا لئلا يبوح بالسر . فأعظمت العباسة الخبر وخشيت منه ، ولم تر حيلة للنجاة الا بالقبض عليه واخفاء خبره ريثما تتدبر فى أمرها .. فطلبت من عتبة أن ترسل شرذمة من الجند ممن كانوا فى خدمة قصرها ليقبضوا عليه بأمر الخليفة.. فذهبت عتبة معهم ، حتى اذا وصلوا الى دار فنحاس كان الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان أبو العتاهية عازما على الخروج خلسة بحيث لايشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك ، مخافة أن يلحظ تواطؤه مع فنحاس .. ولم يخطر بباله انه مطلوب ، وشعر حيان بذلك وأخذ يشاغله بالحديث ونحوه ريثما يعود سيده من دار الرقيق ليطلعه على وصية عتبة . فلما أحس أبو العتاهية بقرب خروج الفضل أسرع فى الذهاب ، وكان العريف قد جاء بجنده فأشار حيان اليهم أن يقبضوا عليه ، فهمّوا به .. ورأى أبو العتاهية عتبة فأدرك غرضهم ، فأخــذ يطاولهم حتى جاء الفضل فوجدهم على تلك الحال فأنقذه منهم

فعاد العريف الى العباسة ، وكانت عتبة قد سبقته الى هناك ، وأخبرت مولاتها بتعرض الفضل لهم . فلما عاد العريف وأنبأها بما كان من نجاة أبى العتاهية على تلك الصورة عظم الأمر عليها ، وتحققت ان سرها لايلبث أن يصل الى الفضل .. فأخذت تندب

حظها . وخلت بعتبة وشاورتها فى الأمر ، فقالت لها : « لم تبق لنا حيلة يامولاتى الا بالاستنجاد بمولاى الوزير »

قالت العباسة : « وكيف نبلغه الخبر ، وهو اليوم مع أخى فى الميـدان يلعبان بالكرة والصولجان ؟ » وكان ذلك اليوم موعد تلك الألعاب على جارى العادة فى الميدان بقرب قصر الخلد

قالت عتبة : « لابد من ذلك .. واذا شئت فانى أتولى نقل الخبر اليه »

فأثنت عليها وقالت : « تدبرى فى الأمر كما تشائين .. فانى لا أعى شيئا »

قالت عتبة : « هل أدعوه اليك الى هنا ؟ »

قالت العباسة : « افعلى ما ترين لأنى أخشى افتضاح أمرنا قبل تدبير الحيلة للنجاة »

قالت عتبـة : « لك علىَّ ذلك باذن الله » وهمت بالخروج فنادتها العباسة وقالت : « خذى اليه هذه البطاقة » وكتبت اليه بطاقة قالت فيها : « أدركنى فى أول فرصة تتاح لك ، لانقاذنا من مخالب الأعداء » ودفعت البطاقة اليها ، فأخفتها بين ثيابهـا وخرجت للحـال الى غرفتها ، وتزيَّت بزى رسـول قادم من خراسان ، وتلثمت بلثام السفر .. وركبت فرسا وأسرعت نحو الميدان ، وكان قصر العباسة على مقربة منه

فوصلت الى الميـدان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ،

فرأت تلك الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم فى ساحة كبيرة قد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على أعمدة ، وقام الجند حول السور بالأسلحة يمنعون الناس من الدخول ، فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق من موقف جعفر ثم تسعى فى الوصول اليه . فرأت فى أحد جوانب الساحة فسطاطا كبيرا خرج منه الرشيد على فرسه ، وقد اعتم بعمامة خفيفة خاصة باللعب ، وبيده صولجان هو عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ، ورجال الدولة على أفراسهم متأهبين للعب ؛ وفى أيديهم الصوالجة وقد اصطفوا صفين : أحدهما مع الرشيد . ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهرة بيده ، ثم لقف بها الكرة من على الأرض وأرسلها فى الهواء ، فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجهم .. .

وأخذوا يستحثون أفراسهم وراءها ، وفى جملتهم جعفر الوزير على فرس أدهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخز ، وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن أحد غيره يجرؤ على الدنو من الخليفة . وأما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون فى الميدان مسايرة للخليفة ولا يجرؤون على سباقه خشية أن يغلبه أحد منهم.. والمجاملة تقضى بأن يكون هو الغالب ، الا جعفر ، فقد كان يسابق الرشيد فى الكرة .ويلاعبه بها ، والرشيد يجامله.. فاذا أخطأ ضحك وصاح بجعفر ومازحه ،

وجعفر يتعاجز عن غلبته

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب : ورأسه من الذهب الخالص ، وصولجان جعفر من خيزران بلا تطويق ، وكراتهم كتل من مشاقة الحرير معبأة فى أكياس من الحرير المتين ، وقد شدت بأطواق من الأوتار المرنة . فلا يلبث الفارس أن يلقف الكرة من على الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير فى الهواء فيستحث الآخرون أفراسهم فى أثرها وعيونهم شائعة نحوها ، وصوالجتهم مشرعة فى أيديهم فيبتغون ملاقاتها وأفراسهم قد هاجها الجهد حتى تصبب العرق منها واختلط الزبد المتحلب من أفواهها بما أزبد من العرق المتقطر من أعناقها وصدورها ، وهى لا تشكو تعبا لأنهم أعدوها لمثل ذلك اليوم ، وكان الرشيد شديد الولع بهذه اللعبة (١) ورجال الدولة يتقربون اليه باتقانها واللعب بين يديه بها ..

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية فى قلق على أثر مشاهدته ولديه ، اذ جاء بهما اليه رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس .. فقبّلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة ، فثارت عواطفه وأصابه ما أصاب أمهما تلك الليلة من يقظة الحنان الأبوى على ولدين كأنهما الفرقدان مع ما ذكرناه من جمالهما ولطفهما ، وقد قضت ارادة الخليفة بابعادهما عن حجر والديهما خوفا من الموت

(١) ابن الاثير ـ الجزء الخامس

فبات جعفر تلك الليلة وهو يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنان يخالطها خوف الفراق، ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف ، فعظم عليه الأمر وهجره النوم .. وقد كان على موعد للذهاب الى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان فى صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته وهو يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة .. على انه كان مطمئن الخاطر من ناحية الرشيد واثقا بحسن ظنه به ، لايخاف حسد الحاسدين ؛ ولا وشاية الواشين .

وقد فاته ما يجول فى خاطر الرشيد من أمره وما يدسه الوشاة اليه.. يثيرون نقمته عليه بما يحدثونه به من اتساع سلطان البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الأموال مما لم يكن عند الرشيد مثله .. فضلا عن استبداد جعفر بشئون الدولة ، على انهم لم يكونوا يجدون من الرشيد اصغاء ، ولم يسمعوا منه غير اطرائه والثناء عليه ، وقد أطلق يده فى أموره العامة والخاصة حتى أباح له الدخول على دوره بلا استئذان ، وسلم اليه خزائن بيت المال .. وأطلق يد أبيه يحيى فى دوره وقصوره ، وجعل النظر فيها وفى حرمه اليه ، حتى انه كان يغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح (١) . ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك الى ما تقدم من عقده له على أخته العباسة بحيث يحل له

---

(١) الاتليدى

النظر اليها .. فلا يخلو مجلسه منهما ، فأفضى ذلك الى ما علمته من زواجهما سرا

على ان جعفر لم يكن يعد زواجه بالعباسة الا شرعيا ، وانما عمد الى التستر خوفا من غضب الرشيد ، ولم يخطر بباله انكشاف ذلك السر لأحد ، وكأن اقبال الزمان غرّه فأعمى بصيرته عمن يحيط به من الحاسدين .. ولعل له عذرا فى غروره عما كان يحسه من تزلفهم اليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه . ولا نظن انه كان غافلا الى هذا الحد ، ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد له واجلال مقامه ، وما كان يبديه من اكرامه والرجوع اليه فى معظم شئونه

— ١٧ —

قصر العباسة

أما عتبة فجعلت تتفرس فى اللاعبين حتى عرفت مكان جعفر وهو بعيد عنها ، ودون الوصول اليه رجال وحبال ، فوقفت وهى تعمل فكرتها فى طريقة لايصال البطاقة اليه بغير أن يشعر بها أحد .. فوقع بصرها وهى فى تلك الحيرة على رجل من غلمان جعفر ، كان يأتى الى قصر العباسة لبعض المهام الخاصة ولها ثقة به ، فاستغفلت رفاقه وأشارت اليه فجاء نحوها على انفراد فنادته :

« حمدان » . وكان حمدان هذا من أقدم غلمان جعفر ، نشأ فى منزل أبيه يحيى منذ طفولته وقد ربى جعفر على ذراعيه ، وكان يحبه حبا يقرب من العبادة ، وقد بلغ الخمسين من عمره وهو لا يزال نشيطا ، وكان فارسى الأصل خراسانى الموطن .. وكان مفضلا عند جعفر، يدخل عليه متى شاء ويعامله معاملة الأقرباء .. فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وأدرك انها متنكرة لغرض هام ، فقال لها : « ما وراءك ؟ »

قالت : « جئت برسالة الى الوزير .. فكيف أوصلها اليه ؟ »

قال : « انهم لايلبثون أن يفرغوا من اللعب ويعود الوزير الى فسطاطه للراحة ، فيسهل الاتصال به .. اعطنى الرسالة فأوصلها اليه »

فسرّت عتبة لذلك ، ودفعت اليه البطاقة فأخفاها فى ثيابه ، وقال لها : « اذهبى واطمئنى .. فانى سأسلمها له حالا »

فعادت عتبة الى سيدتها فرأتها فى انتظارها وقد فرغ صبرها فقصت عليها ما كان ، وجلستا على مثل الجمر تنتظران مجىء جعفر

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد) وكان لقصر العباسة شرفة مطلة على دجلة ، وأخرى تطل على طريق يؤدى الى الميدان وهو الطريق الذى عادت منه عتبة ، فجلست العباسة فى هذه الشرفة ، وأطلت من وراء حجاب فلم تر فى الطريق أحدا ..

وطال انتظارها وعيناها شاخصتان نحو الأفق ، وبعد حين رأت شبحا ظنته وزير أخيها أو حبيبها وزوجها ومحط آمالها . حتى اذا مالت الشمس الى المغيب واستطالت أظلال المآذن على سطوح قصور بغداد ، وعلت أصوات المؤذنين.. انزعجت العباسة لصوت الآذان على غير المعتاد ، لأنها كانت تستأنس به وتطرب لسماعه ، أما الآن فقد أزعجها لأنه أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام بينها وبين الأفق ، وكانت عتبة واقفة الى جانبها لا تقل عنها قلقا فلما سمعت أصوات المؤذنين لاحظت تذمر مولاتها ، فابتدرتها قائلة : « أظنه قد تعمد أن يتأخر حتى يسود الظلام !.. »

قالت : « ولماذا ؟ »

قالت : « حتى يأتيك خلسة فلا يشعر به أمير المؤمنين أو غيره »

قالت : « ومتى كان أخي يرقب ذهابه ومجيئه ، وهو غير متهم عنده ، ومفاتيح القصور فى يد أبيه .. ولكننى أخشى أن يكون لتأخره سبب مزعج ، وقد أصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائع الجرار على سرنا أعد حيـاتى فى خطر .. » قالت ذلك وغصت بريقها ..

فقالت عتبة : « لايزعجك هذا الوهم يامولاتى ، فاننى لست على يقين من اطلاع أبى العتاهية على سرنا ، وانما اتهمته فأحببت أن يقبض عليه من باب الاحتياط ، وهبى انه اطلع عليه .. فهل

يجرؤ أن يذكره لأمير المؤمنين ؟ »

فلما تصورت العباسة ذلك اقشعر بدنها خوفا من غضب أخيها لعلمها انه اذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه ، وهى تعلم أيضا انه ما من أحد يجرؤ على ذكر شيء من ذلك بين يديه ، ولكنها قالت : « اذا كنت لا أخاف أن ينطق أبو العتاهية بشيء من ذلك بين يدى أخى ، الا أخاف أن يبوح به لحساد جعفر فيتخذونه وسيلة للايقاع به .. على انى لا أخاف أحدا خوفى من تلك المرأة »

فأدركت عتبة انها تشير الى زبيدة زوجة أخيها لعلمها بما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة وبنت حماتها ، لاسيما ان الرشيد كان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر على بعدها ، وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمى لأنها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد . وكان الرشيد يحبها أيضا ويحترمها ولا يرد لها طلبا ، فلم تقنع بذلك وأخذت تغار من حبه لأخته

ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد من أسباب غيرتها ، وخاصة بعد أن علمت بما بين العباسة وجعفر من تبادل العلاقات . ولم يكن ذلك كله يخفى على عتبة ، بل كانت هى أعلم به من مولاتها — لأن الخبر يصل الى أذن صاحبه ويقف — ولا سيما فى ذلك العصر والناس يتقربون الى أهل المناصب بالاطراء والارضاء ويتجنبون ابلاغهم ما يسوءهم ذكره . وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسه

مبالغا فى كتمانها ، والناس يتحدثون عنها فى مجالسهم وأنديتهم ، وهو يحسبهم غافلين ، ولا يجرؤ أحد منهم أن يطلعه على ذلك . فلما سمعت عتبـــة تصريح العباسة بخوفهـــا من زبيدة قالت : « لا أرى مسوغا لما تتخوفين منه الآن »

قالت : « وكيف لا ترين مســوغا وأنت تعلمين ما فى نفس زبيدة منى .. فكيف اذا اطلعت على هذا السر ؟ »

فابتسمت عتبة وقالت : « هل تظنين زبيدة لم تعلم بذلك الى الآن ؟ »

فأجفلت العباسة وقالت : « وهل علمت ؟.. ومن أطلعها عليه؟ »

قالت : « انك عاقلة حكيمة .. ومثلك لاتأخذ بظواهر الأمور. كيف يخطر لك أن يبقى هذا الأمر مكتوما عن الناس .. ومولاى الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب ولا حساب .. »

فقطعت العباسة كلامها وقالت : « وهل أهل القصر يعلمون ذلك أيضا ؟ »

فخافت عتبة على مولاتها ، فقالت : « كلا .. ولكننى أظن أن زبيـــدة علمت به لما تعلمينـــه من تجسسها بوســـاطة الجوارى والأعوان لما يهمهـــا من أمرك .. على ان اطلاعهـــا على ذلك ، لا يقتضى أن تبوح به لزوجها ، فان أمير المؤمنين لا يجرؤ أحد أن يذكر له شيئا مثل هذا ، ان لم يكن خوفا منه فخوفا من سيدى الوزير ، وهو صاحب العقد والحل فى الدولة . فمن يجرؤ أن يتعرض لغضبه ؟ »

وكان الظـلام قد تكاثف وهما جالستان فى تلك الشرفة فى الظلام، وسائر القصر مشعشع بالأنوار والشموع.. وأهله لاهون عن حال مولاتهم لايعلمون بما يكنه ضميرها ، ولم يكن أحـد ممن فى قصرها من الجوارى والخصيان وغيرهم يجالسها أو يعلم مافىقلبها الا عتبة.. لأنها صحبتها منذطفولتها ، وهى فى قصر أبيها المهدى ، ووثقت بها .. وكانت العباسة تتحدث مع عتبة فى ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان عن الأفق ، وان كان مظلما .. على ان بصرها كان يتحول رغم ارادتها الى الأنوار المتألقة فى قصر الخلد الى يمينها ودار القرار الى يسارها ، وفىكل منهما رقيب تخشاه .. فلما استبطأت جعفرا انشغل خاطرها ، وتحفزت للنهوض وهى تقول : «هلم بنا الىالشرفة المطلة علىدجلة لعله يجىء منهناك..» واذا هما بخفق نعال فى الدهليز المؤدى الى ذلك المكان . فلمـا سمعت العباسة ذلك الصوت خفق قلبها لأنه يشبه وقع خطوات جعفر ، فأسرعت وهى تقول : « أظنه جاء ! » فمشت عتبة بين يديها وقالت لها : « اذهبى يامولاتى الى غرفتك البعيـدة حتى آتى به اليك فلا يكون عليكما رقيب .. ولا أنا »

فأطاعتها العباسة وتحولت الى تلك الغرفة . أما عتبة فأقبلت على الدهليز وفى جدرانه الشـموع فرأت جعفرا داخلا وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسـوة الطويلة ، وهما ملابس العباسيين الرسمية ، فتقدمت اليه وقبّلت يده فابتدرها قائلا :

« أين مولاتك ؟ »

قالت : « هى فى غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات »

فمشي وحده ، ومشت عتبة فى أثره ، ريثما يصل الى باب الغرفة فتساعده على خلع نعـاله ثم تعود الى مكان بعيـد على جارى العادة . وكان جعفر يومئذ فى السابعة والثلاثين من عمره ، وهو طلق المحيا ، ظاهر البشر ، جميل الطلعة ، ربع القامة ، كستنائى الشعر ، خفيف اللحية والشارب .. لم يخالط شعره الشيب الا قليلا .. وفى عينيه ذكاء ، وكان قد أرسل القلنسوة الى الوراء فبان بياض جبينه وظهرت على محياه امارات الاهتمام ، ومن كان دقيق الشعور قوى العاطفة ظهرت عواطفه فى وجهه ، فلا يقوى على الكظم ولا يصبر على الضيم ، وهذا الفرق راجع الى طبيعة الأمزجة .. فمن الناس من هو حاد المزاج سريع الغضب ، ومنهم من هو طويل الاناة واسع الصدر ، وما بين ذلك درجات كثيرة . أما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على المتأمل خلافا للفضل بن الربيع

— ١٨ —

المقـابلة

وكانت العباسة واقفة فى غرفتها وركبتاها ترتعدان من شدة التأثر تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء ، وكانت تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من وسـائل الزينة من المنـائر

المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق فى عينيها من صندوق صغير ، ورأت الانتظار تلك اللحظة أطول من انتظارها معظم ذلك النهار . ثم ما لبثت أن سمعت خفق نعاله بالباب ، وسمعت حركة خلع النعال ، وكانت عتبة تساعده على ذلك ، فلما خلعها وضعتها على رف معد لمثلها هناك وعادت

أما العباسة فتقدمت نحوه وهى فى ثوب بسيط تعودت أن تلبسه عند مقابلته ، وكان شعرها محلولا وقد ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها فى أعلى رأسها بدبوس مرصع ، والتفت فوق الرداء بمطرف من الحرير مزركش بأشعار طرزت على حواشيه بالقصب . وقد رسم القلق فى أسرّتها عبوسا زادها هيبة وجمالا. ولم تتمالك عندما وقع نظرها على جعفر عن الابتسام ، وقد نسيت ما أعدته من عبارات الشكوى ، وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من أسباب المخاوف ، وأحست بارتياح تعودته فى ساعة اللقاء .. شأن الحب الصادق فانه غالب على أسباب الشقاء فى كل حال ، فالمحب مهما انتابه من المشاق أو اعترضه من العقبات ، اذا رأى حبيبه نسى كل شىء واشتغل به عن كل شىء . والحب سعادة حقيقية لايزيدها الشقاء الا تمكنا ، كالذهب لاتزيده النار الا صفاء ورونقا ..

وكان جعفر مع ما يراه من تفانى العباسة فى حبه وتفانيها فى راحته لاينسى انها من دم أجمع أهل ذلك الزمان على انه أشرف

من دمه لأنها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة . وهوفارسى أعجمى لايسوءه مع ما بلغ اليه من السيادة ونفوذ الكلمة أن يعد فى جملة الموالى — على جارى اصطلاحهم فى ذلك العهد — ولم يجرؤ على الطمع فى مثل ما ناله جعفر أحد من العجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهم ، حتى الملوك والسلاطين من ظهور الاسلام الى أواسط القرن الخامس للهجرة . وأول من أقدم على ذلك السلطان طغرلبيك السلجوقى ، فأراد أن يتزوج ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسى ، فانزعج الخليفة لطلبه ولم يعقد له عليها الا مضطرا عام ٤٥٤ هـ ، والخلفاء العباسيون يومئــذ فى دور الضعف .. فكيف فى أيام الرشيد وهو عصرهم الذهبى ، فاذا عرف المرء ذلك ، أدرك لمــاذا تخوف جعفر من انكشاف أمره واطلاع الرشيد على حقيقة زواجه بالعباسة زيجة حقيقية ، وهو انما عقد له عليها لتحل له رؤيتها .. وقد حسب ذلك منّةكبرىعلى وزيره وصديقه والقائم بدولته .. فجعفر لم يقدم على ذلك الأمر الخطير ، ولا أقدمت العباسة عليه الا لتغلب سلطان الحب عليهما

فلما التقى الحبيبان نسى كل منهما الغرض من ذلك الاجتماع لحظةً على حد قول الشاعر المجنون :

فيا ليلى ، كم من حاجة لى مهمة
اذا جئتكم فى الليل لا أدرى ما هيا

ثم انتبهت العباسة لما يهددها من الخطر ، فافتتحت الحديث .

وغلب عليها الدلال ، فبدأت بالعتاب وهو فاتحة حديث المحبين أو هو حجة يتطرقون بها الى التشاكى ، وما التشاكى الا جلاء القلوب بالاحتكاك ، فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها . فقالت : « لم يرق لجعفر أن يجيب طلب العباسة الا الآن ! »

فأجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الولهان : « أن طلب العباسة أمر لا مرد له .. ولكن الظروف قضت بابطائى خوفا من أعين الرقباء .. وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامى بالجواد لأعود عليه »

فأدركت السبب فى عدم رؤيتها اياه من الشرفة ساعة مجيئه . فجلست على وسادة من الحرير المطرز ، وهى ممسكة يده تدعوه الى الجلوس بجانبها .. فأحس ببرودة تلك اليد وارتعاشها ، وجلس على وسادة أخرى بجانبها وهو يحاذر أن يتحول نظره عن نظرها ، ولبث ينتظر ما يبدو منها . فاذا هى تقول وصوتها يرتجف : « الى متى هذا الحذر ياجعفر ؟.. قد آن لنا أن نعيش أو نموت »

فظنها تعرض بما يخشيانه من أمر الرشيد ، فتنهد وقال : « ان الأقدار حكمت علينا بهذه المخارف لأنها جعلت بينى وبينك حجابا من شرف النسب ، فجعلتك من سادة بنى هاشم وجعلتنى من الموالى »

فقالت وهى تنظر اليه عاتبة : « انه حجاب من الوهم الباطل

فأنت أسمى نفسا من السادة ، وأرفع فى عينىَّ من كل بنى هاشم ولكن .. » وسكتت

فقال : « لقد دعوتنى على عجل فجئت .. فهل حدث شىء جديد ؟ »

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء ، وعادت اليها مخاوفها ، وأسرعت الدموع الى مآقيها : « نعم .. فينبغى أن نموت أو نعيش ، اذ لا طاقة لى بما نقاسيه من الخوف »

فأجفل وقال : « ما الذى حدث مما نخافه الى هذا الحد ..؟ أما الموت فانى أرحب به فى سبيل راحتك »

قالت وصوتها يرتجف : « لقد انكشف أمرنا ، ولا يلبث أن يطّلع أخى على سرنا » واختنق صوتها

قال وقد بُغت : « وأى سر ؟.. ومن اطّلع عليه ؟.. وكيف ؟.. ومتى ؟ »

قالت : « قد انكشف سرنا بالأمس وأنا فى دار فنحاس مع ولدينا أقبّلهما وأشبع شوقى لرؤيتهما .. »

قال : « ومن اطّلع عليه ؟.. من تجرأ على ذلك ؟ »

قالت : « أبو العتاهية اللعين .. »

فأجفل وصاح : « أبو العتاهية ؟ يجب أن يقتل حالا »

قالت : « وقد أردت قتله ، فبعثت شرذمة من الجند للقبض

عليه فى صباح هذا اليوم ، وهو لايزال فى تلك الدار ، فتمكن من الفرار »

قال : « وكيف يفر من أيدى الجند ؟.. تبا لهم »

قالت : « انما نجاه عدوك الخبيث »

قال : « وأى أعدائى تعنين ؟.. فانهم كثيرون ! »

قالت : « صدقت .. انهم كثيرون ، ولكننى أعنى أشدهم حسدا لك وأكثرهم سعيا فى أذاك ووشاية بك .. ألم تعلم من هو ؟.. »

قال : « أظنك تعنين الفضل بن الربيع ؟ »

قالت : « اياه أعنى » وأجهشت بالبكاء

فحمى غضب جعفر لبكائها ، وكاد يمزق ثوبه غضبا وكيدا ، وقال : « الفضل بن الربيع قبحه الله من وغد زنيم .. ألم يخف من سطوتى ؟ ألم يرهب حد سيفى ؟ .. ما الذى جرأه على هذه الوقاحة ؟ »

قالت : « جرّأه انه مقرب من محمد بن زبيدة ، وأنت تعلم نفوذ كلمتها عند أخى .. واتفق وجوده فى دار الرقيق لابتياع بعض الجوارى المغنيات لذلك الغلام الخليع ، وبينما هو خارج رأى جندنا يهمّون بالقبض على أبى العتاهية فاستنجد به ، وقد رأته جاريتى عتبة يشير اليه بعينيه كأنه يعده بكشف سر يهمه ، فأنقذه واستعان على ذلك برجاله وهدّد رجالنا ، فتركوا أبا

العتاهية وعادوا فقصوا عليّ الخبر فكدت أتقد بثيابي ، ولم أعد أدري ماذا أعمل .. فأشارت عليّ تلك الجارية الأمينة أن أطلعك على الواقع ، وذهبت هي اليك بتلك البطاقة وأنت تلعب بالكرة والصولجان ، فعهدت بها الى غلامك حمدان الذي تعودت انفاذه اليّ ، وهو أوصلها اليك .. وقد قضيت في انتظارك ساعات هي أطول عليّ من الدهر حتى جئت الآن .. وهذا هو ما أردت أن أخبرك به ، فما رأيك ؟.. لقد أصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ، ويخيل اليّ أن أحجار بغداد ، ومياه دجلة ، تعلم بسرّي .. وكأن خدمي وجواري جند يهمون بالقبض عليّ.. ولو كان الخطر عليّ وحدي لهان مصابي ، لكنني أخاف عليك من غضب أخي وشدة بطشه » . قالت ذلك وأخرجت منديلها تمسح به عينيها وقد استغرقت في البكاء ..

وكان جعفر يسمع حديثها ، وعيناه شاخصتان اليها ، وقلبه يخفق بشدة ولحيته ترقص غضبا . فلما فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمي غضبه فلم يتمالك أن وقف بغتة وقال : « لا تخافي ياحبيبتي ، انهم لن ينالوا منك شعرة قبل أن تزهق أرواحهم جميعا »

فأمسكت بطرف ردائه وأجلسته ، وهي تقول له : « لا تجعل للغضب عليك سلطانا ، فان الأمر يحتاج الى التأني والتبصر ، لأن عدوك الخليفة أمير المؤمنين ، وبنو هاشم وسائر العرب

وأحزابهم وأجنادهم ، ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها حجة .. لذلك أخشى اذا أخذت الأمر عنوة أن تعرّض نفسك للخطر »

– ١٩ –

الرأى الصواب

فابتسم جعفر والغضب ظـاهر على شفتيه وفى عينيه وقال : « لا تظنى أن محبك يرسل الكلام جزافا ، فانى قد أعددت العدّة لكل احتمال .. ان من أشرت اليهم من سادة بنى هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مع الرشيد أحد لأنى غمرتهم بالعطايا وملكتهم بالاحسان. وأنا لم أكثر الجوائز عبثا ولا بالغت فى الكرم والسخاء اعتباطا ، ولكننى جعلت ذلك ثمنا لما أرجوه فى مثل هذا المشكل وأعظم منه . وأما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقمون على أخيك لمبالغته فى مطاردة العلويين ، وعندى فى خراسان ألوف من صناديد الرجال يأتمرون بأمرى .. وكلهم ناقمون على بنى العباس منذ فتك جدك أبوجعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته أبى مسلم الخراسانى.. اعذرينى اذا صرّحت لك بذلك ، وان كنت لم أصرح به لأحد سواك بعد ، ولا يغضبك أن تسمعى ماسمعته عن جدك وأخيك .. وانما دفعنى الى التصريح بذلك ، ما رأيته من تخوفك .. »

فلما سمعت مشروعه اعظمت الاقدام عليه وأطرقت ولم تجب ، فابتدرها قائلا : «كأنى بك تتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين علىّ مناهضة الخليفة وهو أخوك فأخبرينى ؟ »

فرفعت العباسة نظرها اليه ، وقد بدا الاهتمام واعمال الفكرة فى عينيها وقالت : « انى لا أستحى أن أصرّح لك بما فى خاطرى بعد ما سمعته من تصريحك ، فاعلم انه لايهمنى فى هــذه الدنيا أحد سواك وكل عدو لك فهو عدو لى .. لا أستثنى أحدا .. ولكننى أخشى اقدامك على أمر يمكننا الابتعاد عنه الى أمر آخر أقل منه خطرا .. اعلم ياحبيبى انى لا مطمع لى فى هــذه الدنيا الا أن أكون بجانبك هنا ومعنا ولدانا وثمرة قلبينــا (وبلعت ريقها تجنبا للبكاء) ولايهمنى أن يكون ذلك الاجتماع فى قصر، أو كوخ .. فقد سئمت نفسى القصور وما يحفّ بها من أسباب المخاوف .. فابحث عن سبيل تنجو به من هذه المدينة الى مكان لا نخشى فيه بأسا ، ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فانها محفوفة بالمكاره ، والمرء مهما طال عمره أو اتسع سلطانه لايبقى له مما يملكه الا قيــد باع يوارونه فيه .. » وأخذت فى البكاء ويداها بالمنديل على عيناها

فلما سمع كلامها ، ورآها تبكى على هذه الصورة ، كاد يبكى معها ، ثم تجلد ، ولكنه تأثر مما ذكرته عن ولديهما فأطرق وهو يزيح القلنسوة عن جبينه .. ثم تشاغل بالقبض على لحيته ، وأعمل

فكرته فيما قد يجره اليه تسرعه باظهار العدوان ، ورجع الى صوابه ورأى قولها أقرب الى السلامة ، فقال لها وهو يرد يديها عن عينيها : « لا تبكى ياحبيبتى ، انى فاعل ما تريدين .. صدقت ان التؤدة أولى بأهل الحزم .. وها أنا ذا أعرض عليك رأيا أظن انك ستوافقيننى عليه .. »

فابتسمت والدمع لايزال فى مآقيها ، وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت أهدابها ، ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عما يريد . فابتسم هو وقال : « ان خوفك من بلوغ الخبر الى أخيك بعيد ، اذ ليس بين رجال الدولة — لا الفضل ولا غيره — من يجرؤ على ذكر اسمك بين يديه ، أوالتعريض بما تخافينه، وأنا أعلم الناس بذلك .. فلا خوف علينا من هذا الأمر الا بعد زمن طويل ، ندبر فى أثنائه وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون فى مأمن .. »

فتطاولت نحوه وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « قلت لك ان خراسان معى ، وأهلها طوع ارادتى ، فاذا كنت فيها لايستطيع أخوك ولا غيره أن يناوئنى .. ناهيك بأحزاب الشيعة العلوية ، فانهم يحاربون الى جانبى حتى آخر نسمة من حياتهم .. أليس كذلك ؟ »

قالت : « بلى .. »

قال : « وأنا ساع من زمن بعيد فى التخلص من الوزارة وابدالها بولاية خراسان ، وقد وعدنى أخوك بها .. ولو أردت

الحصول عليها فى الغد لأجابنى »

قالت العباسة : « أحقا ما تقول ؟.. أخشى أن ينطوى وعده على خداع ، فانه لايمكن الاطمئنان على وعد مثل هذا منجانبه»

قال جعفر : « لقد وعدنى وأكد الوعد .. والوشاة من حسادى يساعدوننى على ذلك ليبعدونى عن بلاط الخليفة ويتمتعوا بالنفوذ دونى ، ولا أحتاج فى تحقيق هـــذه الأمنية الى أكثر من كلمة واحدة »

فأبرقت أسرّتها وظهر البشر فى وجهها ، وقالت : « بالله ألا أسرعت فى تحقيقها فانى لا أرى لنا خيرا منها .. فاذا كنت أنت فى خراسان سرت أنا اليك على عجل ، واستقدمنا ولدينا وعشنا معا فى رغد وهناء ، وأنا واثقة من أن الرشيد لايطمع فينا هناك لأنه يخشى على ملكه »

قال : « اذن كونى مطمئنة ، فان الأمر لا يحتاج الى صبر طويل »

فقالت : « قد شعرت منذ الآن بذهاب القلق لأنى أعتقد كما قلت انهم لايجرءون على ذكر خبر الطفلين بين يدى أخى لمـــا يعلمونه من غيرته على العرض .. وأنا على يقين انه يقتل كل من عرف انه اطلع على هذا السر .. »

قال : « اذن فأنت مطمئنة لهذا الرأى ؟ »

قالت : « نعم .. ونِعْم الرأى هو .. آه .. هل تتحقق هذه

الأمنية وولدانا معنا وتكون أنت زوجي على رءوس الاشهاد ، كما انى أعتقد انك كذلك ولو كره الحاسدون أو أنكره أخى علينا ؟ » قالت ذلك وصرّت أسنانها

فقال وهو يتحفز للقيام : « كم أحب أن أبقى هنا ولا أفارقك ياحبيبتى ، ولكن لابد من ذهابى على عجل لأنى جئت خلسة .. واذ قد صممنا على التستر ، فينبغى لى أن أمضى سريعا حتى لا ندع سبيلا الى الوشاية »

فأمسكت بيده وأجلسته وهى تقول : « لا.. لاتذهب فانى..» وغصّت بريقها ..

فقال : « أراك قد عدت الى المخاوف .. لا تخافى فاننا سنجتمع قريبا باذن الله »

فقالت : « لابد من ذلك لأننا لم نرتكب ذنبا ، وزواجنا شرعى ، وانما أراد أخى أن يستبد برأيه فمنعنا مما أحله الله . ألم يكن هو الذى عقد لك علىّ ؟ »

قال وهو يهز رأسه استخفافا : « بلى .. ولكنه لايرى لغيره حقا فى أن يتمتع بذلك »

ونهض ، فنهضت هى معه .. فأمسك بيدها للوداع ونفسه لا تطاوعه عليه ، فوقف هنيهة وهو ينظر اليها وهى تنظر اليه ، والعيون تتفاهم بما تعجز الألسنة عن مثله .. ثم أصلح قلنسوته بيده الأخرى ومشى وهى تسير معه حتى وصل الى الباب ..

فلبس نعاله ، وودعها وهو يضغط على يدها ، ويقول : « امكثى مطمئنة حتى يأتيك منى رسول الخير »

فأجابته ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده : « سر ياسيدى فى حراسة الله ، وفقك الله الى ما تريد »

فتراجع وهو ينظر اليهـا نظرة عتـاب وقال : « لا تقولى ياسيدى ، فانما أنا مولاك ، وأنت سيدتى بمقتضى شرعهم وعرفهم.. أين أنا من أخت أمير المؤمنين ؟ »

فلما قال ذلك ، جذبت يدها من يده ، ونظرت اليه شزرا ، وقالت بلحن الدلال والعتاب : « دعنا من شرعهم وعرفهم ، فانك سيدى بشرع الله وعرف المنصفين »

فضحك وأسرع الى يدها فأمسكها وهو يقول : « أستودعك الله حتى نلتقى ، وأرجو أن يكون لقاؤنا أبديا لا فراق بعده .. والأفضل على ما أرى أن أكفّ عن زيارتك فى هذه الأيام ريثما أدبّر الحيلة للاجتماع معا فى مكان أمين .. »

فقالت : « يشق علىّ بُعدك عنى .. ولكننى أتحمله طمعـا فيما ذكرت »

ثم صفقت تصفيقا تعودت أن تعنى به عتبة ، فجاءت مسرعة .. فقالت لها : « امشى بين يدى مولاك حتى يخرج من القصر ولا يشعر به أحد »

فأشارت اشـارة الطاعة ومشت بين يديه فى الدهليز ، وقد

أطفئت شموعه ، وسار هو فى أثرها حتى خرج من القصر ووصل الى مكان ترك فيه جواده مع غلامه حمدان .. فركب وسار الى منزله

أما العباســة فلما خلت الى نفسها مكثت حينا وهى واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها ، فعادت الى هواجسها وأحست باحتياجها الى عتبة .. فلما عادت ، قصّت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر وأسرّت اليها بما يرمى اليه ، فوافقتها على ذلك الرأى .. ثم ذهبت العباسة الى فراشها

– ٢٠ –

قصر الأمين

أما الفضـــل بن الربيع فقــد تركناه عائدا بحاشيته من دار الرقيق ومعه أبو العتاهية ، وكان أبوالعتاهية قد امتلأ غيظا من عتبة وسيدتها . ولو لم تتعمد أذاه على هذه الصورة ، فلربما قام فى نفسه ما يوبخه على افشاء ذلك السر برغم ما يطمع فيه من الكسب المالى بافشائه .. اذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين أو الحياء من العباسة أو الخوف من جعفر أو الرشيد ، أو ربما توقف عن الافشاء حينا من الزمن ريثما يجد سبيلا يتقدم به الى الفضل أو غيره باعلان ذلك السر اليه . ولكن تلك الاساءة كانت مسوغا

له على الافشاء ، وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على تلك المعاملة . فلما ركب الفضل ورجاله أمر لأبى العتاهية بدابة يركبها ، وقد تاقت نفسه لاستطلاع السر فيما حدث .. فركب أبو العتاهية وهو أكثر ميلا منه الى اطلاعه عليه

سار الركب على خيولهم الى قصر الأمين مباشرة ، فلم يكن لهم بد من المروز على جسر بغداد ، فبعد أن تجاوزوا شارع دار الرقيق مروا بالميدان من شماله ، ورأوا أهل الدولة يتوافدون لحضور لعب الكرة والصولجان ، فتحولوا من وراء الاصطبل فى الشارع المؤدى الى الجسر ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء وتزاحمت الأقدام على ذلك الجسر ، وهو مصنوع من السفن متحاذية متلاصقة ، وقد شدت جوانبها بعضا الى بعض بأمراس أو سلاسل من حديد ، وألقيت فوقها ألواح الخشب يمر فوقها الناس والدواب ، وعلم الفضل ان الجسر لايخلو من حرس سرى يرقب حركات المارين من أهل الدولة ، والناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض من كل سبيل . فقبل مغادرته دار الرقيق تلثم ، وتلثم بعض الخاصة من أتباعه ، فمروا على الجسر شمالا الى الرصافة ونزلوا من هناك نحو الجنوب الشرقى الى المخرم ، وجعلوا أكثر طريقهم قرب الشاطىء حتى أتوا القصر

وكان الغرض من تبكير الفضل الى دار الرقيق فى ذلك الصباح التعجيل فى تلك المهمة ، والرجوع الى الأمين حوالى

الضحى حتى لايفوته الصبوح .. وكان الأمين قد وعد نفسه بسماع غناء الجوارى البيض فى ذلك اليوم . والفضل وعده بذلك حرصا على رضاه وتقربا اليه بكل ما يسره ، لعلمه انه ولى العهد وهو لايرجو لنفسه سبيلا لقهر البرامكة الا به ، لأن الأمين يكره الفرس لأنهم من غير العرب .. ويكره البرامكة على الخصوص ، وجعفر الوزير على الأخص ، لأنه ساعد أخاه المأمون على ولاية العهد رغم أن أمه جارية ، وأم الأمين هاشمية ، هى زبيدة الشهيرة

فالفضل لم يكن يرى فى نفسه القدرة على سبق البرامكة فى ادارة شئون الدولة أو سياسة الأعمال وتسهيل استيفاء الخراج . وارضاء الرشيد ، فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر وأطلق يده فيها ، فعمد الفضل الى الحيلة وهو ذو دهاء وصبر ، فرأى الأمين يكره الفرس للأسباب التى قدمناها فانحاز اليه ، وجعل يتقرب اليه بكل وسيلة يرضاها وان لم يكن من شأنه قضاؤها ، حتى مسألة الجوارى ، فقد كان الفضل فى غنى عن الذهاب بنفسه الى دار الرقيق ، ولكنه أراد أن يبرهن للأمين انه يحبه ويتفانى فى خدمته .. على ان انشغاله بمشاهدة أنواع الرقيق ، ثم ما عاقه من أمر أبى العتاهية والقبض عليه أخرّاه عن الوقت المعين ، فوصل الى القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ، ومع ذلك فقد رأى أن يطلع على سر أبى العتاهية قبل الدخول على الأمين . وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع فى الاستطلاع لأنه كما

قدمنا من أهل المزاج الصفراوى الذين يصبرون على الأمور ولا يقلقون من موعد أو يتعجلون فى استطلاع سر ، بخلاف أهل المزاج العصبى فانك اذا وعدت أحدهم بسر تطلعه عليه أو خبر تلقيه اليه ، لايبرح فى قلق واضطراب حتى يبلغ ذلك الوعد . ولذلك فأهل هذا المزاج لايصلحون للدهاء السياسى أو الاقدام على المشروعات الشاقة التى تفتقر الى سعى وكظم ومطاولة

فالفضل بن الربيع لم يكن يتعجل فى استطلاع السر رغبة فى سرعة الاطلاع ، ولكنه توسم من وراء ذلك سببا يساعده على تحقيق غرضه .. فلما أطل على قصر الأمير ، أمر رجاله أن يتحولوا بأفراسهم الى أماكنهم حتى خلا بأبى العتاهية ، فترجلا فى شارع عريض تظلله الأشجار الملتفة من الجانبين ينتهى بساحة كبيرة فى صدرها باب القصر .. وما هو باب القصر فى الحقيقة وانما هو باب الحديقة ، والقصر فى أحد جوانبها من جهة دجلة له سور خاص به . وكانت عادتهم فى بناء هذه القصور أن يجعلوا أسوارها الخارجية متينة عالية أشبه بأسوار الحصون ، وربما جعلوا فى أعلى السور مرامى للنبال أو نوافذ لحجارة المجانيق لما كانوا يتوقعونه من تقلب الأحوال وانتقال السلطة من حزب الى حزب . وباب الحديقة كبير متين يقفل ويوصد حتى لايستطاع فتحه الا بقوة الرجال . وكان الحرس لايبرحون المكان وقوفا ، والباب مقفل .. فاذا قدم أحد فتحوه له . فاذا كان فارسا ترجل خارجا وترك دابته وسائسها

أو خادمه يرعاها أو يذهب بها الى الاسطبل بجانب ذلك السور، وفيه المرابط تشد اليها الدواب .. وهى كثيرة وخاصة بباب ولى العهد . والناس يومئذ يتزلفون اليه ويكثرون من التردد عليه تمهيدا لما يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد أن تسند أمور الدولة اليه

فلما ترجل الفضل وأبو العتاهية تنحيا الى جانب الطريق ، وأخذ الفضل يستطلع الخبر وأبو العتاهية يقصه عليه والفضل مستغرب حتى شك فى صدقه ، ولكنه ما أن جاء أبوالعتاهية على آخر الحديث حتى ترجحت صحته عنده ولكنه أعظمه ، ولبث مطرقا لايحير جوابا ثم نظر الىأبىالعتاهية وأراد أن يغالطه فقال : « احذر أن تكون قد اختلقت هذا الخبر فانى لا أصدقه ، وربما كنت مخدوعا فيه لأن مولاتنا العباسة من أبعد النـاس عن مثل هذه الشبهة ، فاحذر أن تذكر ذلك لأحد لئلا تقع فى شر أعمالك»

فأدرك أبو العتاهية غرض الفضل من هذه المغالطة ، فقال له : « انى أجلّ مولاتنا عن هذا ، ولكننى قصصت ما رأيتـه .. ولم أكن لأبوح به لك لو لم يحدث ما تمّ من نجاتى على يدك ، ولا أدرى مع ذلك اذا كانت عيناى قد خدعتانى ، فانهما كثيرا ما تخدعان البصير فيقع فى حفرة لايقع فيها الأعمى .. » وهز كتفيه وهو مطرق كأنه يقول : « وماذا يعنينى من ذلك كله ..؟»

- ٢١ -

جعفر بن الهادى

ولم يكن الفضل يجهل استماتة أبى العتاهية فى سبيل المال ، ولم يشك مطلقا فى انه لم ينقل ذلك الخبر الا وهو يتوقع جائزة كبيرة ، فأحب استرضاءه لعله يحتاج اليه فى مثل هذه المهمة مرة أخرى ، فمد يده الى جيبه وأخرج صرة دفعها اليه وهو يقول : « انك شاعر ، وقد تعود الشعراء أن لايقولوا قولا الا أجيزوا عليه وان لم يكن شعرا .. فخذ هـذه الجائزة الصغيرة وستنال أضعافها من مولانا الأمين ، فانه سيأخذه الطرب لنجاحنا فى ابتياع الجوارى البيض فلا يبالى من أجاز ، وسأخبره بأنك كنت لنا عونا فى الحصول عليهن ..» قال ذلك وضحك ضحكة لها صوت وليس لها شكل كأنه يتضاحك ، وجعل يده على كتف أبى العتاهية وهو يقول : « بارك الله فيك ! » ومشى فأحس أبو العتاهية انه يريد الذهاب وحده ، فودعه وقبل يده ثم تحول .. فقال له الفضل : « احذر أن تمضى الى مكان يعرفه ذلك الوزير فانهم يقبضون عليك ويؤذونك ، والأفضل أن تمكث فى هذا القصر مع بعض رجالى ، أو اذهب الى منزلى أقم هناك وأنت فى مأمن .. وعلى كل حال لا تبعد عنى كثيرا » فطأطأ رأسه وتحول

أما الفضل فانه مشى وقد أزاح اللثام عن وجهه لأنه أصبح

فى أمان حتى أقبل على الساحة المجاورة للحديقة ، فرأى الباب مفتوحا على مصراعيه والحرس مشغولون فى حديث مع جماعة من الغرباء عرف الفضل من مجمل حالهم انهم من أهل البصرة ، وأكثرهم من الخدم أو السياس.. بعضهم يتحدثون ، والبعض الآخر يقومون برعاية الخيول .. يربطونها أو يعلفونها أو يصلحون شئونها . فما لبث أن أرسل نظره الى داخل الحديقة حتى علم انهم رجال جعفر بن موسى الهادى ، لأنه شاهده يتمشى مع الأمين فى أحد جوانب البستان .. أما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس ، فتسابقوا الى خدمته

وجعفر بن موسى هو ابن الخليفة موسى الهادى أخى الرشيد ، وكان الهادى قد تولى الخلافة قبل أخيه الرشيد ، ولم تطل مدته فى الخلافة لأسباب سيأتى بيانها . وكان أبوهما المهدى قد أوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادى وهارون الرشيد ، على أن يتولى الهادى أولا وبعده الرشيد . فلما توفى المهدى عام ١٦٩هـ خلفه الهادى فحدثته نفسه أن يخلع أخاه الرشيد ويبايع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم فى أعقابه .. فأعلن رأيه لخاصته ، فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر . ولم يسع الرشيد الا القبول لعجزه عن المقاومة ورجال الدولة كلهم مع الخليفة .. وقد سايروه جميعا الا يحيى بن خالد البرمكى فانه جاء الى الرشيد وشدد قلبه وضمن له الخلافة ، وعرّض حياته للخطر رغبة فى استبقاء

ولاية العهد للرشيد ، وخلع جعفر بن الهادى منها . فغضب عليه الهادى وحبسه وهدده بالقتل .. ولكن البرمكى استطاع بدهائه وقوة حجته من اقناعه أن يقر أخاه الرشيد فى الولاية ريثما يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبايع لجعفر ، ولم تمض مدة على هذا القرار حتى مرض الهادى ومات بغتة ولم يحكم الا سنة وثلاثة أشهر . وشاع يومئذ ان أمه الخيزران عجلت بموته انتقاما منه لأنه أحب أن يغل يديها عن التصرف فى شئون الدولة ، وغيرة على أخيه الرشيد . وذهب يحيى البرمكى فى الليل الى الرشيد وبشره بالخلافة وأقره عليها .. ولذلك حفظ الرشيد له هذا الجميل ، فأطلق يديه فى أمور الدولة . ولم يكن يقدم على أمر عظيم الا بمشورته .. وجعل ولده جعفر وزيرا ، أباح له التصرف فى كل شىء كما قد علمت ..

وكان جعفر بن الهادى عند وفاة أبيه صغير السن ، فلم يعمل شيئا .. ولم يسعه الا السكوت ، وفى نفسه من يحيى وأولاده حزازات ، وهو يعتقد أن الرشيد اغتصب الخلافة اغتصابا وانه تواطأ هو ويحيى والخيزران على قتل أبيه .. وكتم ذلك فى نفسه أعواما ، وكان يقيم فى البصرة وقد أقطعه الرشيد أرضا واسعة وخصص له الرواتب الكبيرة مثل سائر بنى هاشم . فقد كانت السياسة تقضى فى ذلك العصر بالاعتماد على الكرم فى توقى الشرور ، فالخليفة اذا تسنم ذروة الخلافة علم ان الأبصار موجهة

اليه ، وان أكثر الناس حسدا له وغيرة منه هم أهله ، فاذا كان حكيما وسّع لهم أسباب الرزق وأكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف ، لعلمه انها تشغلهم عن الاهتمام بالخلافة وتضعف من عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليها . ولذلك كان بنو هاشم منذ عهد الرشيد وما يليه من أكثر الناس انغماسا فى الترف والقصف ، لا شاغل لهم الا اتتقاء المغنين ، والتمتع بالمأكل والمشرب فى الحدائق والبساتين ، واقتناء الجوارى على اختلاف الطبقات للغناء والتسلية والخدمة . وأكثر ما يكون مقامهم فى قصورهم بالبصرة ، ولا يأتون الى بغداد الا لقبض مرتباتهم أو لابتياع الجوارى أو بعض الآنية ونحوها ، لكن الغالب أن يرسل الرشيد رواتبهم اليهم وهم قعود فى قصورهم

وكان جعفر بن الهادى أحد الهاشميين أصحاب الرواتب الكبيرة . وكان مقيما فى البصرة .. ولكن الترف والقصف لم يشغلاه عما فى قلبه من النقمة على عمه الرشيد ، أو على يحيى البرمكى وأولاده ، وقد زاده نفوذ جعفر البرمكى فى مصالح الدولة حسدا ونقمة . وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد ، فلما رآه بايع لابنيه الأمين والمأمون بعده تحقق من فشله ، وعزم على الانتقام .. ولاسبيل له اليه وليس من يناصره عليه ، حتى اذا ظفر بالفضل بن الربيع تكاشفا وهما متفقان على كراهية جعفر البرمكى وعدم الرضا عن الهيئة الحاكمة .. فجعلا

يعملان على قلب تلك الحكومة ، ويتواعدان على التعاون .. وكان همّ ابن الهادى فى الدرجة الأولى ، أن يسقط جعفر البرمكى من الوزارة .. فاذا سقط سقطت ولاية العهد عن المأمون ، لأنه هو الذى دبرها له .. فلا يبقى بينه وبين الخلافة الا الأمين وهو يعلم مدى ضعفه وتهتكه ، فتقرب منه وعوّل على تحقيق بغيته عن طريق السياسة التى اتخذها الرشيد فى استبقاء الخلافة له ، وذلك بتهيئة أسباب البذخ والترف لبنى هاشم وانشغالهم بالجوارى والغناء عن طلبها ..

فلما رأى ابن الهادى ميل محمد الأمين الى الترف والقصف ، لم يحاول أن ينصحه بالعدول عنهما ، وإنما جعل يسهل له أسبابهما ويساعده فى طلبهما ، ولو اضطره ذلك الى اظهـار الخلاعة أو التهتك فى بعض الأحيان ، والأمين غافل عن ذلك لاه عمن يحدق به من أهل الدسائس وأرباب المطامع . وكان ابن الهادى قد جاء الى بغداد منذ بضعة أيام وهو يتظاهر انه جاء ليتسلم راتبه ، ونزل على الأمين فأخلى له قصرا خاصا بجانب قصره يقيم فيه بحاشيته وأعوانه ويقضيان معظم النهار معا فى اللهو والقصف من الصباح الى المساء .. وكان هو الذى نبّه الأمين الى اقتناء الجوارى البيض المغنيات ، وحرّض الفضل بن الربيع على المبـادرة الى ابتياعهن منذ الفجر ، على أن يعود بهن قبل انقضاء وقت الصبوح فيتمتعون بالراح على رخيم أصواتهن

- ٢٢ -

محمد الأمين

فلما أبطأ الفضل قلق الأمين فانصرف الى شرفة فى قصره تطل على دجلة ، وجلس وعيناه شائعتان لعله يرى الفضل عائدا فى الزورق.. فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يَعُد، ملّ الأمين الانتظار، فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادى يتفرجان على ما فيها من الأقفاص الكبيرة كأنها البيوت ، وفيها أصناف الطير الملون المستورد من بلاد الهند وأواسط افريقيا ، والأقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ ، فى بعضها أسود وفى البعض الآخر فيلة أو نمور .. ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت ، أمر الأمين صاحب كباش المناطحة أن يأتى بها للمناطحة بين يديه ، ومضى الى مجلس فى وسط الحديقة يظلله عريش عال .. وبينما هو يهم بالدخول اليه مع ابن عمه اذ جاءه أحد الخدم وأخبره أن الفضل قادم ، فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن ان الجوارى معه

أما الفضل فانه دخل البستان ماشيا ، وقد شاهد الأمين وابن عمه يتحولان الى العريش وهما بملابس المنادمة . والبستان ينقسم الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملونة ، يتخللها أغراس من الأشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ، ومنها

المولد فى بغداد والمستورد من بلاد الهند وخراسان وتركبستان ، وما بين ذلك من أصناف الرياحين وأزهارها البديعة الألوان ، وكلها فى مغارسها على أحسن نظام يتعهدها البستانى بالمقراض يقلد بها أشكال الحيوانات ، فيجعل بعضها بشكل الطاووس أو غيره من الطيور الجميلة ، والبعض الآخر بشكل الحيتان أو بعض الوحوش الكاسرة كالأسد والنمر .. فيمر الرجل وحوله الأشجار والأزهار والأعشاب من كل صنف ولون ورائحة ، وهو يحسب بعضها أسودا رابضة أو طيورا دارجة مما يسحر الألباب . وبين تلك المغارس أحواض يصل اليها الماء من قنوات مستترة ، وفيها من الأسماك أجملها لونا وألطفها شكلا ، يتعهدها البستانى بفتات الخبز أو بقايا الطعام مما يكثر فى مطابخ الأمراء فى أيام الرغد والرخاء . ناهيك بما رسموه فى طرق الحديقة من أشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف ألوانها ، فيصورون بذلك زهورا بألوانها وأسودا أو فيلة بأشكالها على نحو مايفعلون بالفسيفساء . وكانوا يحضرون لكل من هذه الفنون صناعا من الفرس أو الروم أو الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة وتفننوا فى أساليب التنسيق

على أن روائح الأزهار العطرية فى ذلك البستان لم تكن شيئا يذكر ازاء ما تضوع من ملابس ولى العهد من رائحة الطيب ، ولا سيما المسك ، وكانت عادتهم اذا عزموا على مجلس شراب أو

غناء أن يخلعوا ثوبهم الرسمى ويلبسوا ثوبا ملونا باللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر يسمونه ثوب المنادمة . وهو فى الغالب غلالة رقيقة وملاءة مصقولة ، وكان الأمين يومئذ لابسا غلالة حمراء فوقها ملاءة صفراء مصقولة صقلا شديدا حتى تكاد تقوم قياما من شدة الصقل . وجعل على رأسه بدل العمامة أوالقلنسوة اكليلا من ريحان وأزهار، ضفره له البستانى بصورة جميلة حتى أصبح يشبه القلنسوة ، وزيّن قدميه بخفين سنديين .. وكان رفيقه ابن الهادى فى مثل ذلك ، ولكن ملاءته كانت خضراء وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشى الثمين . وقد سوى شعره على عادة شبان بغداد فى ذلك العصر ، أى انه حدقه على جبينه ، وقصرّه دون جبهته ، وسوّاه مع حاجبيه ، ودوّره الى أذنيه وأسدله الى صدغيه (١)

وكان الأمين ورفيقه قد جلسا فى العريش ينتظران مجىء صاحب الكباش ، والأمين أكثر رغبة فى مقابلة الفضل اذا كانت الجوارى معه .. واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش ، فصاح فيه : « ما وراءك يا فضل ؟ »

فأجاب وهو داخل : « ما ورائى الا الخير يامولاى »

قال : « وأين الجارية أو الجوارى المغنيات ؟ »

قال : « هن آتيات عن قريب .. » ولما أطل الفضل على

(١) نفح الطيب ـ الجزء الثانى

الأمين ورأى ملابسه وحاله ابتسم رغم ارادته ، فابتدره الأمين قائلا : « كيف ترانى بهذا الاكليل وهذه الثياب ؟ »

قال : « أرى انك ملاك فى صـــورة انسان » وكان الأمين يومئذ فى السابعة عشرة من عمره وقد نبت عارضاه وظهر عذاره ، وتجلى ماء الشبيبة فى محياه ، وهو جميل الصورة ، طويل القامة ، أبيض اللون ، صغير العينين ، أقنى الأنف ، سبط الشعر ، وقد انحسر شعره عن جانبى جبهته (١) ، وكان قوى العضل حتى يلقى الأسد فلا يبالى به (٢) ، وفيه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة .. فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره وأحبه ، ولكنه كان سيء الرأى كثير التبذير أرعن (٣) جعل همــه اللهو والقصف باقتناء الجوارى والغلمان ، ولعله سيق الى الافراط فى ذلك بما أراده أهل الأغراض من تضييع الملك على يده أو رغبة منهم فى استرضائه التماسا لسخائه . أما ابن الهادى فكان رقيق البدن جميل الصورة ، قصير القامة ، خفيف العارضين ، حاد العينين ، وكان أكبر من الأمين سنا وأحسن منه رأيا ، وانما سايره فى قصفه ولهوه لغرض فى نفسه

ولما دخل الفضل صاح فيه الأمين : « عليك بثياب المنادمة ، واخلع هذا الثوب فان ابطاءك الى هذه الساعة لاينبغى أن يفسد علينا ما دبرناه من وسائل السرور ، وان كان الصبوح قد انقضى

(١) أبو الفداء ــ الجزء الثانى (٢) المسعودى ــ الجزء الثانى
(٣) فوات الوفيات ــ الجزء الثانى

فنقضى بقية النهار فى الطرب والأنس » ثم صفق فأتاه غلام تركى جميل الصورة لم يبد عذاره بعد ، وعليه دراعة حمراء اللون تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب ، وأرسل شعره ضفيرة طويلة وراء ظهره ، وعلى رأسه شبه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب منحرفة الى جانب واحـد ، فى قمتها هلال من فضة أثقل رأسها ، فتدلى.. فأصبح الغلام أشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله . ولو سمعته يتكلم لثبت عندك انه فتاة لبعده عن خشونة أصوات الرجال لأنه خصى . وكان فى قصر الأمين كثير من أمثاله ، عنى باحضـارهم من أقصى بلاد الترك والجركس وجعلهم طوائف لخدمته ولمجالس أنسه

فلما جاء الغلام وقف متأدبا فقال له الأمين : « من ترى فى بابنا من الشعراء ؟ »

فقال الغلام : « الحسن بن هانىء (أبو نواس) وأبو العتاهية و .. »

فقطع الأمين خطابه قائلا : « ما لنا ولأبى العتاهية وهو من أهل الزهد فلا ينفعنا زهده فى مجلسنا هـذا . وأما الحسن بن هانىء فانه شاعر ظريف » .. قال ذلك وضحك ، ثم التفت الى الغلام وقال : « اصرف الشعراء الا ابن هانىء . وقل لصاحب الشراب أن يعد لنا مجلسا كاملا .. »

فقال الفضل : « وأبو العتاهية لابأس به يامولاى فانه شاعر

ظريف ولا يهمك ما يقولون عن زهده »

فصاح بالغلام : « وأبو العتاهية أيضا » . فمضى الخصى لاعداد ما يلزم

- ٢٣ -

مناطحة الكباش

أما الأمين فاستبطأ صاحب الكباش ، فصفق فجاءه غلام آخر، فصاح به : « وأين صاحب الكباش فانى أحب أن يرى ابن عمى كبشين يتناطحان ، ليس فى بغداد كلها ولا فى البصرة ولا فى سائر العراق مثلهما »

فقال : « انهما معدان للنطاح منذ ساعة ولم يأت بهما الى هنا ضنا بما فى أرض هذا العريش من الفسيفساء ، فان الكباش تقتلعها بأظلافها فى أثناء النطاح ، وهى لا تملك قوتها فوق الحصى فاذا شاء مولاى أن ينتقل الى موقفها وراء هذا العريش رآها »

قال : «حسنا ..» ونهض فمشى ، ومشى ابن الهادى والفضل فى أثره ، وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولى عهد المسلمين من الألعاب الصبيانية ، وقد قال كل منهما فى نفسه : « كيف يثبت ملك هذا ولى عهده ؟ أيستطيع من كان فى حاله أن يحكم مملكة أولها فى بحر الهند وآخرها على شواطىء بحر الظلمات ، وفيها

من أجناس البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضـادة ما لم يجتمع فى مملكة واحـدة ؟ ناهيك بالأحزاب السياسـية ومطامع أهل النفوذ » على انهما سارا وهو يتقدمهما بملابسه الملونة المصقولة ، وقلنسوته المصنوعة من الأزهار والرياحين حتى وصلوا الى بقعة من البستان مستديرة ، وجدوا فى وسطها رجلا كبير اللحية عريضها عليه قلنسوة التجار، ويظهر من ملامحه انه هندى الجنس وبين يديه كبشان كبيران أبيضان ، وقد نقش عليهما بالألوان صورا وأشكالا ، وعلّق فى عنق كل منهما عقدا من العقيق ، وصبغ قرنى أحـدهما باللون الأخضر ، وقرنى الآخر باللون الأحمر .. فلما أقبل الأمين عليه ، وقف الرجل وتقدم لتقبيل يده فمنعه وقال : « أيهما كبشى ؟ »

فأشار الرجل الى صاحب القرنين الأحمرين وقال : « هذا هو يامولاى »

فقال وهو ينظر الى الفضل : « فالآخر اذن كبشك.. فليتناطحا ومن غلب صاحبه علقنا فى عنقه عقدا آخر يشتريه له صـاحب الكبش المغلوب »

فلم يسع الفضل الا اظهار الامتنان من هـذا الانعام وقال : « أرجو أن يغلب كبش مولاى ، واذا غلب كبشى فانه يخجلنى »

فضحك الأمين حتى كاد يستلقى على ظهره وقال : « وأنا أطلب الى الله أن لايغلب كبشك ليس لأنه لك ولكن .. » وضحك

فلم يفهم الفضل قصده والتفت الى ابن الهادى فرآه يبتسم فاستفهم منه بعينيه ، فقال وهو يخفض صوته : « لأن اسـمه برمك » فأدرك الفضل أن الأمين يتفاءل بذلك ، فاذا غلب الكبش «برمك» فكأنه غلب جعفر البرمكى.. ولم يسمّ كبشه «جعفرا» توقيرا لابن عمه جعفر بن الهادى . وأخذ الكبشان يتناطحان وراعيهما يعلم رغبة الأمين فى أن يغلب كبشه ، فكان يبذل جهده فى هذا السبيل حتى تم ما أراده الأمين ، وكان كبشـه الغالب فضحك وسرّ وأمر لصاحب الكباش بجائزة ، ثم جاءه الغلام وهو يقول : « ان صاحب الأدياك قادم يامولاى ، فهل تأذن فى أن تشاهد مهارشتها ؟ »

قال : « ارجعه فقد كفانا الآن ما شهدناه من مناطحة الكباش وآن لنا الدخول للمنادمة » .. قال ذلك ، ومشى نحو القصر على الحصباء فى طرق الحديقة . وكان قصر الأمين قائما على شاطىء دجلة الأيسر وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على النهر. وفى جملتها بهو كبير أشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصورى الفرس، أو هى صناعة تجمع بين فنون الفرس والروم . والسقف قائم على أسـاطين من الرخام محلاة بالذهب ، ولولا سـور القصر الخارجى الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن فى دجلة مقبلة مدبرة . على انهم جعلوا فى السور بابا يمكن النزول منه الى

الشاطىء على مسناة ترسو عندها الحراقات والزلالات . وكان للأمين ولع باقتناء السفن والتفنن فى أشكالها وصورها ، فاصطنعوا له حراقات على هيئة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس أرسلها فى مياه دجلة ، وقد أنفق فى صنعها مالا كثيرا (١)

وأما من جهة البستان ، فللقصر باب كبير هو بابه الأصلى يدخل منه الزوار ، قائم فى جدار على شكل قوس مقعرة نحو نصف دائرة ، والباب فى منتصف القوس يصعد اليه ببضع درجات . والى جانبى الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط فى استدارته ، وقد نقش على أعلا الباب بالخط الكوفى الجميل « محمد الأمين بن هرون الرشيد » والقصر بجملته محاط بسور كبير عال ، على عادتهم فى تعلية الأسوار ..

وكان الأمين وهو ماش فى الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين يديه ويتسارعون فى نقل خبر مجيئه . فلما أقبل على القصر وقف الحجاب احتراما له ، وهو لايبالى ، فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجعفر فى أثره .. فمروا فى دهليز ينتهى الى باحة مستديرة فى صدرها باب يؤدى الى دهليز آخر ينتهى الى دار النساء ، وهى قصرقائم بنفسه يؤدى من بعض قاعاته الى المصطبة التى تقدم وصفها . وفى يمين الباحة المستديرة التى ذكرناها باب يؤدى الى دهليز ينتهى ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والأعوان

(١) ابن الاثير ــ الجزء السادس

والعبيد ونحوهم ، والى يسار الباحة باب آخر يؤدى الى دار الضيوف .. وهى غرف كثيرة ومطابخ وموائد كأنها بلد صغير

– ٢٤ –

دار النساء

فلما وصل الأمين الى تلك الباحة ، تقدم كبير الخصيان السود بين يديه فوسع له ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدى الى دار النساء ، فدخل ومشى فى الدهليز ودعا الفضل وجعفر فتبعاه وخطواتهم لايسمع لها وقع ، لأنهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان . فلما انتهوا من الدهليز الثانى أشرفوا على حديقة فيها الأزهار والرياحين ووراءها دار النساء (الحريم) ، يصعد اليها بست درجات من الرخام الأحمر ، وعلى بابها ستارة ثمينة من الديبـاج سماوية اللون عليها كتابة بطراز القصب هذا نصها .. وهى من شعر حاتم الطائى :

وما أنا بالساعى بفضـل زمامها
لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

وما أنا بالطاوى حقيبـة رحلها
لأبعثهـا خفـا وأترك صـاحبى

اذا كنت ربا للقلوص فلا تدع
رفيقك يمشي خلفهـا غير راكب
أنخهـا فأردفـه فان حملتـكما
فذاك وان كان العقـاب فعاقب

وهى تشير الى رغبه صاحب هذا المنزل فى السخاء . وكان الأمين كثير السخاء . وكان رئيس الخصيان ماشيا بين أيديهم فلما أقبلوا على ذلك الباب تقدم ووسع الستارة بيده فدخل الأمين ورفيقاه الى قاعة كبيرة أشبه شيء بقاعة الاستقبال ، فى كل من جانبيها باب .. يؤدى أحدهما الى مساكن النساء ، والباب الآخر الى مجالس خاصة هى قاعات لكل قاعة منها فرش خاص بلون خاص . ولم يكن غرض الأمين الذهاب اليها ، وانما أراد الخروج الى المصطبة وراء تلك الدار . وكان الفضل وابن الهادى حالما دخلا تلك القاعة سمعا ضرب العيدان على غير نظام ، اذ كان أصحابها يسوونها وهم وراء الجدران ، ولكنهما لبثا ينتظران ما يفعله الأمين . والقاعة المشار اليها مفروشة بالأرمنى من الحرير المزركش وفى جدرانها صور بعض ملوك الفرس والروم على أفراسهم، وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر.. وقد صُنع كثير من هذه الصور ووشى بالذهب أو بالعاج على ألواح من خشب الأبنوس ؛ وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب ، وعلى أبواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير ضخمة من الفضة ،

وفى أرضها بساط واحد ، ربما بلغت مساحته عشرين ذراعا فى عشرين ، وحولها مما يلى الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغشاة بالابريسم الموشى .. وفى زواياها مناور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة فى الليل

فلما وصل الأمين الى هذه القاعة ، وسمع طنطنة العيدان وراءها جلس على سرير من الأبنوس مطعم بالعاج .. كان قائما هناك ، وأشار الى رفيقيه فجلسا .. ثم أومأ الى قيّم الخصيان باشارة فهمها ، فأحنى رأسه وخرج والفضل فى قلق ليعلم هل وصلت قرنفلة ورفيقتاها . وابن الهادى ينظر الى الأمين ويبتسم وفى نفسه أمور عظام لو أطلقها وخرجت زفيرا لأحرقت تلك القاعة بما فيها ، ولكنه كان كاظم الغيظ صبورا . ثم ما لبث أن سمعوا ضرب العيدان ضربا كثيرا على توقيع واحد ، ونغم واحد ، واذا بباب من أبواب القاعة قد فتح وخرج سرب من الجوارى فى أيديهن العيدان .. فمررن فى القاعة عشرات عشرات يضربن على العيدان ضربا رخيما ، ويغنين بصوت واحد . فاذا فرغ العشر ، انصرفن من الباب الآخر ، وجاءت عشر أخر وفى أيديهن عيدان أخر ، وهن يغنين غناء آخر على نغم آخر ، فلما انصرفن جاء عشر آخر ، وهكذا حتى تمت عشرة أفواج . ولم يكن شىء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر ، لأنهما شاهدا مثله فى دور البرامكة ودار الرشيد . وانما أدهشهما ما جاء بعد الجوارى من أسراب

الغلمان والخصيان وغيرهم وعليهم الملابس الثمينة الباهرة مما لم يسبقه الى مثله أحد فى الاسلام على هذه الصورة .. فانه كان يغالى فى اقتناء الخصيان ، ويطلبهم من أقاصى البلاد مهما كلفه ذلك من الأموال .. وأسرف فى ذلك بعد خلافته ، فحملهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وسماهم الجرادية ، وفرض لهم فرضا خاصا واصطنع أجواقا أخر من الغلمان الحبشان سماهم الغرابية؛ وفرض لهم الأموال . وقد أخذ عليه الناس ذلك ونظموا فيه الأشعار (١) ؛ أما فى أثناء ولاية العهد فكان لايزال فى أول رغبته فى هذا الطرب الدخيل

فكان الغلمان يدخلون أفواجا وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة ، وفى أيديهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون ، والأمين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شرابا ؛ لأنه ينوى الشرب فى المصطبة

— ٢٥ —

مجلس طرب

فلما مر الجميع أشاروا الى القيّم اشارة أخرى .. وأشار الى رفيقيه فنهضا وسارا بين أيديهم ، وقد فتح لهم القيّم بابا فى

---

(١) ابن الاثير — الجزء السادس

صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات الى دهليز فى جانبيه أبواب مقفلة تؤدى الى غرف وقاعات عديدة ، وفى نهاية الدهليز وصلوا الى المصطبة ، وكأنهم خرجوا من الخباء الى الخلاء فوجدوا المكان على سعته قد فرش بالنمارق والطنافس ؛ وفى صدره فرش عالية فوق سرير من الأبنوس المطعم بالذهب لايرتقى اليه الا بكرسى ، وحوله عدة مقاعد ووسائد فوق الطنافس وبجوار الأساطين أو الجدران . وقد نصبوا فى وسط المصطبة سماطا هو بساط من جلد جميل الصنع فوقه ملاءة من الحرير ، وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة : طولها شبر وجاءوا بالأباريق البلور أو الفضة وفيها الأشربة والأنبذة وبينها الأقداح على اختلاف أشكالها وألوانها ، ويتخلل ذلك أطباق الفاكهة واللحوم الباردة ومزاهر الأزهار ونحوها ، وقد فاحت رائحة المكان بالطيب العطر.. فصعد الأمين الى سريره وأشار الى ابن عمه فجلس ، ثم التفت الى الفضل وقال : « أراك لا تزال بثيابك فاخلعها والبس ثياب المنادمة » . فأشار مطيعا .. فصاح : « يا غلام .. أحضر ثياب المنادمة »

فجاءوا بثوب معصفر ؛ وأصر الأمين الا أن يجعل على رأسه اكليلا من الزهر مثله . فأطاع ثم صفق الأمين فدخل القيم فقال : « الينا بالمغنيات .. هل أتانا من الجوارى أحد جديد ؟ »

فقال : « كلا يامولاى ؛ ولكن عندنا من المغنيات غير واحدة

ممن ليس فى بغداد أحسن منهن ، حتى ولا فى دار أميرالمؤمنين .. فهل آتى بهن ؟ »

قال : « أحضر الوصيفات بالمراوح أولا ، ثم اختر لنا أحسن المغنيات نستمع لهن ريثما يأتى أولئك »

فخرج وبعد برهة أقبلت جارية تفتن النــاظرين ، يظهر من ملامحها أنها كرجية الأصل .. دخلت المصطبة نافرة كأنها الغزال انفلت من شبكة الصياد ، عليها قميص اسكندرانى شفاف يشف عن أثوابها جميعا ، وفوقه قرطق مفروج أو هو القبــاء المفرد ، وقد أشرق بياضها اشراقا باهرا وجعلت شعرها طرة أسبلتها على جبينها ، وتعصَّبتْ بعصابة قد نقش عليها بصفائح الذهب هذا البيت :

مالى رميتُ فلم تصبنك سهامى ورمَيتنى فأصبتنى يا رامى

وقد أدارت صدغيها وتقوس حاجباها ، ولها عينان قد ملئتا سحرا ، وأنف كأنه قصبة در، وفم كأنه جرح يقطر دما .. وبيدها مروحة عريضة من ريش النعــام مغشاة بالحرير المزركش وقد طرز عليها بالذهب هذه الأبيات :

بى طاب العش فى الضيــ ــف وبى طــاب السرور
ممســـكى ينفى أذى الحــ ــر اذا اشتد الحــرور
النــدى والجود فى وجــ ــه أمــــــين الله نور

مَلِيك أســــلمه الشبــ ـــه وأخــلاء النظــير (١)

وقد قبضت على المروحة بأنامل منقوشة بالحناء فيها خواتم وفى معصمها الأساور والدمالج اذا حركت يدها للترويح سمع لها شخشخة . وفى صدرها هلال من ذهب مرصع بالجوهر وقد نقش عليه هذا البيت :

أفلت من حور الجنـــان وخلقت فتنة من يرانى

فلما دخلت افتتن جعفر والفضل برؤيتها ، ولكنهما تهيبا لعلمهما انها وصيفة الأمين الخاصة جاءت لتروح له . فمشت وهى تنتقل على رءوس أصابعها وتتمايل حتى دنت من الأمين فوسّع لهـا الفضل ، فصعدت على مقعد بجانب سرير الأمين وأخذت تروح بالمروحة وفى يدها الأخرى منديل اذا تنــدى جبينــه بالعرق مسحته له .

ثم دخلت جارية أخرى يظهر من مجمل منظرها أنها روميـــة الجنس ، عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الأحمر ، وقد وضعت على رأسها ضفائر شعر مسدلة كأنها العناقيد تتدلى الى أسفل ظهرها . وفوق الشعر تاج مرصع وفى عنقها عقد ثمين قد تعلق فيه صليب من الذهب المرصع ، وعلى التاج بيتان من نظم الحسن ابن هانىء (أبو نواس) وهما :

---

(١) العقد الفريد ـ الجزء الثالث



« وبعد برهة ، أقبلت جارية تفتن الناظرين ، يظهر من ملامحها أنها كرجية الاصل ، دخلت المصطبة نافرة كأنها الغزال انفلت من شبكة الصياد »

يا راميا ليس يدرى ما الذى فعلا
عليك عقلى فان السهم قد قتلا
أجريته فى مجارى الروح من بدنى
فالنفس فى تعب والقلب قد شغلا

وتمنطقت بمنطقة شدت بزنار ، وعلقت المروحة بها ، وعلى المروحة هذا البيت :

أتهوون الحياة بلا جنون
فكفوا عن ملاحظة العيون

فلما دخلت هذه الوصيفة أشار الأمين اليها فوقفت بجانب ابن عمه جعفر وأخذت تروح له . ثم دخلت جارية ثالثة تختلف فى شكل هندامها عن صاحبتيها ، وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التى تنسب الى سكينة بنت الحسين ، لأنها أول من صنعها فى المدينة منذ قرن وبعض قرن ، ولم تشد فوقها عصابة ولكنها كتبت فوق جبينها بالغالية هذين البيتين :

يا هلالا من القصور تجلى
صام طرفى لمقلتيك وصلى
لست أدرى أطال ليلى أم لا
كيف يدرى بذاك من يتقلى

وقد لبست درعا من القطيفة أبيض اللون كتب على جانبه الأيمن بالتطريز :

(١٢١)

كتب الطرف فى فؤادى كتـــابا
هو بالشـــوق والهوى مختـــــوم
وعلى الجانب الأيسر :
كان طـــرفى على فؤادى بـــلاء
ان طرفى على فؤادى مشـــوم

فلما دخلت علم الفضل انها ستقف بجانبه تروح له ، فمشت وهى تلاحظ ما يبدو من الأمين فاذا هو يشير اليها أن تذهب الى الفضل ، فوقفت الى جانبه وأخذت تروح له

– ٢٦ –

المغنيات وأبو نواس

ثم دخل عدد من الغلمـــان يحملون آنية الشراب ، وهم فى ثياب مصبوغة بألوان قوس قزح ، على أحدهم ثوب أحمر وعلى الآخر ثوب أصفر والآخر أخضر ، وعلى الآخر أحمر وأصفر معا أو من عدة ألوان مما يبهر النظر ، وكلهم فى عنفوان الصبا وغاية الجمال، مع صفاء البشرة . وأكثرهم لايعرفون اللغة العربية ، واذا تكلموها ظهر للسامع انها ليست لغتهم لأن بعضهم من الصقالبة والبعض الآخر من الكرج أو الترك أو الروم ، ومعظمهم حديثو الاقامة فى بغداد وأكثرهم خصيان .. وقد تفنن قيّم الغلمان فى

تزيينهم ، كما تفننت قيّمة الجوارى فى تزيين الوصيفات اللواتى ذكرناهن . فكان على بعضهن قباء كتب على عاتقه الأيمن هذا البيت :

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبير

وعلى عاتقه الأيسر :

خطت صحيفة خده من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بأباريق الشراب ؛ الابريق فى يد أحدهم والكأس بيده الأخرى ، والكئوس من البلور بعضها أحمر اللون أو أزرق أو أخضر ، وبعضها من الذهب الخالص وعليه نقوش كتابية أكثرها أشعار فى مدح الخمر ووصفها ، من أمثلتها :

اشرب على منظر أنيق وامزج بريق الحبيب ريقى
واحلل وشاح الكعاب رفقا واحذر على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى اليك خلّى عن الطريق

وجلس الأمين وصاحباه فى انتظار المغنيات ؛ فاذا هم يسمعون ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية صفراء ليست من الجمال فى شىء لأنهم لم يكونوا يعلمون الجوارى البيض الغناء بعد . ومشت وهى تضرب ضربا مسكرا وتغنى بصوت رخيم ، حتى أقبلت وفى أثرها أربع جوار يحملن العيدان يرقصن على توقيعها . فما سمع الأمين الغناء حتى صاح : « التّى بصاحب الشراب » فجاء رجل هو رئيس السقاة فأخذ يدير أمر

الساقين ، وأرسل بعض الغلمان الى الأمين بقدح دفعه اليه فشربه وأمر للفضل وجعفر فسقاهما .. فتناولا القدحين ولم يشربا ، وانما تظاهرا بالشرب مسايرة للأمين .. أما الجوارى فجلسن على مقعد من الوسائد معد لهن فى أحد جوانب المصطبة ، وبعد أن دارت الكئوس وطرب الأمين قال : « أين الحسن بن هانىء ؟.. أين أبو نواس ؟ »

فقال رئيس الخصيان · « انه فى دار الضيافة يامولاى »

فقال : « ائتى به الآن »

فذهب لاستدعائه فأرجعه الأمين قائلا : « احذر أن يدخل علىّ بغير ثياب المنادمة »

فأشار مطيعا بانحناء الرأس وخرج ، وما لبث أن عاد وهو يقول : « ان أبا نواس بالباب .. »

فقال وقد أخذته هزة الطرب : « يدخل »

فدخل أبو نواس ، وكان جميل الصورة .. وبالرغم من انه جاوز الأربعين من عمره ، فقد كان الجمال لايزال ظاهرا فى محياه . وغلبت عليه ملامح الأهوازيين لأن أمه منهم ، وأرخى لحيته وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلا . وكان أزرق العينين تتجلى فيهما الدعابة والذكاء معا . وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة قبعة (طاقية) حمراء اللون ، وقد تزمل بثوب من ثياب المنادمة شديد الصفرة يتضوع الزعفران منه . فلما أقبل صاح

الأمين به : « أهلا بشاعرنا ، ان هذا المجلس لايحلو بلا شاعر .. والشعراء زينة مجالس الغناء »

فانحنى أبو نواس ووقف ؛ فأشـــار اليــه أن يجلس بجانب الجوارى المغنيات ؛ وأشار الى أحد الغلمان فقدم له وسادة جلس عليها . فتذكر الفضل أبا العتاهية وان هذا وقته . وكان قد أسَرَّ اليه أمرا حينما فارقه ، وخشى أن يكون قد نسيه .. فأخذ يفكر فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من أسباب اللهو، ويظهر التهيب فى مجلس ولى العهد وفى نفسه أمور دفعه اليها جاره جعفر بن الهادى.. واغتنم جعفر فرصة انشغال الأمين بسماع الغناء ، وسأل الفضل عن الجوارى اللواتى ابتاعهن ومتى يصلن ، فأجابه بضم أنامله جميعا وهى شارة الانتظار كأنه يقول : « انهن يصلن قريبا». ثم التفت الى أبى نواس وقال له : « ألا تلقى من أقوالك شيئا يغنينه فيطرب ولى العهد ؟ »

فلما سمع الأمين قوله قال وقد لعبت الخمر برأسه : « لا .. لا يقول شيئا قبل أن يشرب رطلا » وأشـــار الى الساقى فملأ رطلا ودفعه الى أبى نواس فتناوله وشربه دفعة واحدة ، ورده الى الساقى وأشار برأسه أن : « هات أيضا .. »

- ٢٧ -

الطرب بالطعن

فأعجب الأمين برغبته فى الشراب ، وضحك حتى استلقى على ظهره ، وفى يده تفاحة بأكملها ، وقال له وفى فمه قطعة منهـا : « اطربنا يا ابن الاهوازية »

فأجابه والمجون ظاهر على وجهه : « أيريد مولاى أن أطربه بالمدح أو بالطعن ؟ »

فابتدره الفضل بن الربيع قائلا : « ألا تكف عن مزاحك ؟.. كيف يسأل الأمير هذا السؤال ؟ وهل يطرب أحد بالطعن ؟ وهو انما سألك أن تلقى على هؤلاء القيان أبياتا يطرب لها مولانا »

فنظر أبو نواس الى الفضل شزرا وهو يظهر المجون أيضـا وقال : « وما أدراك ماذا يطرب الأمير ؟ أتريد أن تحترف صناعة المنادمة فضلا عن الوزارة ..؟ انى أخاطب سـيدى وهو يفهم مرادى »

فاستغرب الفضل جرأته وأراد أن يجيبه فسمع الأمين يقول : « لقد فهمت مراده » ثم التفت الى أبى نواس وقال : « أطربنا بالطعن ليرى الفضل أن الطعن قد يطرب ما لا يطربه المدح . ألق على الجارية بيتا أو بيتين من هذا القبيل »

فأصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب فى وجوههم ، وحامت أبصارهم حول أبى نواس فاذا هو قد أدنى رأسه من الجارية التى بيدها العود وأسرّ اليها أبياتا ، فسوت العود والكل سكوت حتى الأمين ، ثم أخذت تغنى :

عجبت لهــــارون الامام وما الذى
يود ويرجو فيك يا خلقة السلق (١)
رأى جعفــــرا يزداد بخــلا ودقة
اذا زاده الرحمــن فى ســعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر
لما وضعوه الناس الا على حمق (٢)

وكانت الجارية تغنى وتجيد فىغنائها ، والأمين يهتف طربا عند كل مقطع . وفطن الفضل لسر ذلك منذ بدأت الجارية فى غناء البيت الأول، فأدرك أن أبا نواس يعرض بجعفر بن يحيىالبرمكى عدوه فكان طربه أكثر من طرب الأمين . وكان أكثرهم طربا جعفر ابن الهادى فلم يتمالك أن صاح فى أبى نواس : « لله درك ولا فض فوك » وكان فى يده عقد من الجوهر يلاعبه بين أنامله همّ أن يرميه اليه ، فتذكر انه فى حضرة ولى العهد ولا يستحسن أن يسبقه الى اجازة الشاعر ، فالتفت الى الأمين واستأذنه بالاشارة فأذن له فرمى بالعقد الى أبى نواس فوقع فى حجره ، فتنــاوله

(١) الذئب

(٢) ديوان أبى نواس ١٧٣

ونظر الى الأمين كأنه يستشيره فى أمره فضحك الأمين وقال : « أراك تبحث عن مكان تضع فيه هذا العقد .. ضعه هنا وأشار الى الجارية الواقفة على رأس الفضل وقال : « وهى لك أيضا .. ولكن بعد انقضاء هذا المجلس ، واذا زدتنا زدناك »

فوقف أبو نواس ليشكره لذلك الصنيع ، فأومأ اليه الأمين أن يجلس ويعود الى ما كان فيه ، وأشار الى الساقى فأدار الأقداح وهو يبدل ألوان الأنبذة من نبيذ التفاح الى نبيذ التمر فنبيذ العنب ؛ وهى تتلألأ فى الأقداح بين الصفرة والحمرة والشهبة والصهبة . وأشار الأمين الى صاحب الشراب اشارة فهم مراده منها ، فأمر أحد الخصيان أن يقدم القدح الى أبى نواس بيده ، وكان الغلام جميلا عبلا ، جعد الشعر ، وقد صففه على جبينه بشكل بديع ، فأخذت أبا نواس نشوة الخمر فنظر الى الغلام ، ثم الى الأمين ، فابتدره الأمين قائلا : « صفه وهو لك » فتناول أبو نواس القدح من يده وقال :

يسعى بها خنث فى خلقه دمث
يستأثر العين فى مستدرج الرائى
قد كسّر الشعر واوات ونضّده
فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
عيناه تنفث داء فى محاجره
وربما نفعت فى صولة الداء

انى لأشرب من عينيـــه صـــافية
صرفا وأشرب أخـرى مع نـدمائى

فلما سمع الأمين شعره صاح فيه : « ويلك كفى ..! هو لك ! »

أما الفضل فلمـا رأى الخمر قد دارت برأس الأمين أراد أن يغتنم الفرصة فقال له : « هل نسى مولاى القيان البيض ؟ »

فقال : « ويحك .. كيف أنساهن ؟.. هل أتين ؟ » ونظر الى قيّم الدار مستفهما فقال : « نعم يامولاى قد جئن منذ ساعة »

فقال : « التى بهن الساعة ! »

فخرج وما لبث أن عاد مهرولا مذعورا ، وفى أثره رجل قصير قد اكتسى جلد قرد ، وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل فى أعلاها جلاجل وهو يقهقه قهقهة القردة ، ووثب حتى توسط المصطبة وأخذ فى الرقص ، فقهقه الأمين وأغرق فى الضحك حتى استلقى على ظهره ، ولم يبق أحـد لم يضحك . وعلا الضجيج ، فقـال الأمين : « أليس هذا أبا الحسين الخليع ؟ »

فانتبه القيّم وقال : « بلى يامولاى هو بعينه ــ قبحه الله ــ انه ذهب بعقلى » فقال الأمين : « دعه وامض الى الجوارى »

فعاد وتشاغل الحضور بالضـحك ريثما يعود الرجل بالمغنية قرنفلة وبيدها العود تضرب عليـه ضربا رخيما ، وقد تكحلت وتبرجت وأرخت شعرها على كتفيها . ودخلت الجاريتان الأخريان فى أثرها وبيد كل منهما عود ، فوقفت قرنفلة بين يدى الأمين وهى

تضرب على عودها نغما لم يسمع مثله من قبل ، فأومأ اليهـا الأمين فجلست وأخذت تغنى هذين البيتين :

لم تلـــده أمة تعـ ـــرف فى السـوق اتجارا
لا ولا حـد ولا خا ن ولا فى الخزى جارا

وكان الفضل فى أثناء ذلك يراقب حركات الأمين ، فاذا هو يرفس الأرض برجليه طربا ويصيح : « صدقت .. صدقت .. قبحك الله »

ولم يستغرب الفضل ذلك ، بل كان يتوقعه منه لأنه هو الذى أوعز الى أبى العتاهية أن يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الأمين على أخيه المـأمون ، لما فيهما من التعريض به اشارة الي أن الرشيد حده فى جارية وجده معها (١)

— ٢٨ —

اسماعيل بن يحيى

وعلا ضجيج الضحك وتعالت الضوضاء ، وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل ، فقطع ضجيجهم نباح كلاب كان الأمين قد جعلها على شاطىء دجلة وراء تلك المصطبة ، حتى اذا رأت غريبا نَبَحت نباحا شديدا .. فلما سمعوا نباحها أمرالأمينأحدغلمانه أن

(١) الفخرى ١٩٣

يستطلع السبب ، فخرج من باب سرى يؤدى الى الشاطىء ، ثم عاد مسرعا وهو يقول : « أرى سفينة تدنو من الشاطىء ، أظنها حراقة اسماعيل بن يحيى الهاشمى »

فلما سمعوا ذلك الاسم أسقط فى أيديهم ، واقشعرت أبدانهم كأنك صببت عليهم ماء ساخنا ، ولا سيما جعفر بن الهادى ، اذ امتقع لونه وظهرت البغتة على وجهه ، وأشار الأمين الى المغنيات فسكتن وتحولت تلك الضوضاء الى دهشة ، واستولى السكوت على ذلك الجمع برهة سمعوا فى أثنائها ربان السفينة ينادى بحارته أن يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطىء .. فوجم الأمين وتجلد ، وقد ذهب أثر الخمر ، وتذكر حاله فنزع الاكليل عن رأسه كأنه يريد أن يخفى مجونه وتهتكه ، واقتدى به غيره .. ولكن أنى لهم أن يخفوا مجونهم والأقداح متناثرة بين أيديهم ، والأباريق مملوءة ، والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من وسائل الخلاعة واللهو ..

على أن الأمين تجلد ونهض من مجلسه ، وصاح بغلامه أن يسأل أهل الحراقة عن صاحبها فعاد وهو يقول : « ان اسماعيل بن يحيى يستأذن فى الدخول »

فقال : « يدخل .. أهلا به ومرحبا .. »

ولاحظ الحضور رغبة الأمين فى اخفاء تهتكهم ، فأخرجوا الخليع وأمروا الجوارى بالسكوت ، وجلسوا ينتظرون وصول

اسماعيل وكأن على رءوسهم الطير . وما لبث أن رجع الغلام وفى أثره شيخ جليل المنظر ، وسيم الطلعة ، طويل القامة ، عليه جبة سوداء ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة حولها عمامة من خز ، وهى ملابس العباسيين الرسمية

وكان اسماعيل بن يحيى من كبار بنى هاشم رهط الخليفة .. وكان من أهل التعقل والحزم ، وقد زادته الشيخوخة وقارا .. وهو عالى الجبين ، عريض المنكبين ، مسترسل اللحية ، وقد اشتعل رأسه شيبا ، ولم يستعمل الخضاب ترفعا عن بهرج الدنيا لأنه كان حكيما نيّر البصيرة يرى الأمور كما هى ، ويقدر الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم ومظاهرهم .. فرغم انه هاشمى من أعمام الخليفة ، فانه لم يكن يرى فى النسب الهاشمى فضلا على سواه الا اذا اقترن بالتقوى والصلاح . وكان مطلعا على أمور الدولة ، عالما بما تنطوى عليه شئون أهلها . ولم يكن يحب الرشيد لأنه هاشمى ، ولا يكره جعفر البرمكى لأنه فارسى ، وانما كان ينظر الى الأمور من حيث هى . وغرضه الأول سلامة الدولة العباسية من العلل ، وخلاصها من أسباب الفشل ولا يهمه على يد من تكون سلامتها .

فكان ينظر الى ما يجرى من الدسائس بين الرشيد ووزيره ، أو بين الأمين وأخيه ، أو بين غيرهما من الأحزاب المتناقضة ، نظر الحكيم الناقد يشرف على أهواء الناس من سماء عقله وفلسفته ،

ويسعى جهده فى تلافى ما يخشى وقوعه من مفاسد ذوى المطامع الدنيوية وأرباب الأهواء النفسـانية . فلم يكن يهمه أن تفضى الخلافة اليه بقدر ما يهمه صلاحها وتوطد دعائمها وطول بقائها . وكان أعلم الناس بنواحى الضعف عند الرشيد ووزيره ، ونواحى القوة عندهما ، وله الدالة على كليهما ، والكلمة النافذة عندهما ، ولاسيما الرشيد .. فقدكان يجله ويحترمه ويعظم شأنه ، لما تحققه من كبر نفسه ونزاهته وسلامة نيته ، فضلا عن ذكائه وسداد رأيه. وطبيعى فيمن كان هذا شأنه أن يهـابه الناس ويحترموه حتى الملوك ، فانهم مهما بلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلا لايجتمعون به الا لنصيحة ، يتحققون بالاختبار انها صادرة عن اخلاص تام .. ولا يتباحثون معه الا آنسوا منه حكمة فوق مستوى تفكيرهم .. فكيف اذا أضيف الى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشيخوخة . فلا غرو اذا نال اسماعيل هذه المنزلة عند الرشيد أو رجال دولته ، لما عرف به من الغيرة على سلامة الدولة والتفانى فى سبيل مصلحتها . على انه لم يكن يقدم على نصيحة أومشورة الا اذا رأى النصح نافذا ، ولايقول الا كلاما صريحا .. فاذا أحس أنه فى حاجة الى تلون أو رياء تباعد وتحاشى، ولذلك لم يكن يعجبه الأمين ، ولايرى نصحه نافعا .. فكان يبتعد عنه ويحاذر أن يحضر مجلسه

- ٢٩ -

الدهشـــة

أما مجيئه في ذلك اليوم فسببه انه كان رقيبا على ابن الهادي من عند نفسه لعلمه بما يكتمه من الحقد على الرشيد والبرامكة ، وبلغه أنه يجالس الأمين ويعاشره فلم يعجبه ذلك منه . وكان اسماعيل وجعفر يقيمان فى البصرة مثل أكثر بنى هاشم المتقاعدين الذين يعيشون برواتب الخليفــة وهباته من الأموال والضــياع فينغمسون فى الترف والقصف ويقضون أيامهم بين مجالس الأنس والغناء ، والخلفاء يسهلون لهم هذه الأسباب ليضعفوا عزائمهم عن النهوض لمنازعتهم على الخلافة ، ويشغلوهم عن الدسائس السياسية بالجوارى والقيان ومعاطاة الكأس والطاس

أما اسماعيل بن يحيى فقد كان عفيفا حازما يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم، وعلم ان النصح لاينفعهم فكف عن نصحهم الا جعفر بن الهادى فانه كفله من صغره منذ مات أبوه ، فشب جعفر لايشرب الخمر ولا يميل الى اللهو ، وانما كان يعاشر الأمين ويغريه على زيادة الترف واللهو لغرض فى نفسه لم يكن يخفى على اسماعيل . وكان يخشى بقاءه على عزمه لأنه لا يرى فيه صلاحا للدولة بل هو يخاف عليها منه .. وكثيرا ما نصحه بالرجوع عن

ذلك وهو يعده ويخلف . وعلم منذ أيام وهما فى البصرة أن جعفر أتى بغداد فظنه جاءها لترويح النفس أو لقضاء بعض المصالح أو ليقبض عطاءه ، فلما أبطأ خشى عاقبة ابطائه فلحق به وهو يظهر انه آت لغرض له . فلما وصل الى بغداد واستطلع أخباره علم انه نازل فى قصر الأمين لا يخرج منه . فلم ير بدا من مقابلته هناك ، وكانت له سفينة فى دجلة ، اذا جاء بغداد ركب فيها .. فاستقلها فى ذلك اليوم وقصد قهر الأمين فوجده على تلك الحال

فلما دخل اسماعيل على مجلس الأمين ، تهيَّب كل من كان فيه حتى الأمين رغم شربه الخمر وتهتكه .. فتجلد ووقف لملاقاة ذلك الشيخ الجليل ولم يكن يحلم أن يراه على هذه الصورة ، واما جعفر فوقف منزويا وقد ارتج عليه . ولم يبق ثابت الجأش متجلدا الا الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلا عن دهائه . فانه تقدم الى اسماعيل ، وتبسَّم له ، ورحَّب به ، وأظهر رغبته فى تقبيل يده وهو يقول : « مرحبا بمولاى » وقدم له مقعدا وكان الأمين قد نزل عن سريره ورحب به أيضا

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجوارى والغلمان والعيدان ، والأباريق والأقداح ، وغير ذلك من أسباب الأنس والطرب ، فعلم انه اذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم ، فتظاهر انه لم يكن يقصد الزيارة فى تلك الساعة ، ولكنه توهَّم انه سمع صوت جعفر هناك .. قال ذلك وهو يتجاهل انه رآه

فظهر الوجل على وجه جعفر ، وأقبل متأدبا وهو يتجلد ، وعلم أن اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال · « قد كنت عازما على الخروج من الصباح ، فأبقانى ولى العهد فى هذا المجلس ليسمعنى غناء الجوارى البيض ، وألبسنى ثياب المنادمة . فاذا أحب سيدى أن أنطلق فى خدمته فعلت »

فأظهر اسماعيل أنه مسرور بلقياه وقال : « لا بأس يا ولدى فانى مشتاق الى رؤيتك ، فاذا أردت الانصراف فانزل معى الى السفينة ، ودع القوم فى مجلسهم .. فان مقامى لاينفعهم » .. قال ذلك وتحول ومشى ، فاستأذن جعفر فى تبديل ثيابه ثم يلحق به الى السفينة ..

خرج اسماعيل وأهل المجلس سكوت تهيبا ، وقد سر الأمين بذهابه .. أما جعفر فأسرع الى غرفته ، فلبس قلنسوته وسواده ونزل الى السفينة ، فوجد اسماعيل يتمشى على ظهرها وقد أرسل قلنسوته الى الوراء وظهر الاهتمام على جبينه وعينيه . فلما أقبل عليه ترامى على يديه ليقبلهما فجذبهما منه وقال : « ما هذا المجلس يا جعفر ؟.. أمثلك يفعل ذلك ؟ »

فتراجع وأطرق ولم يجب ، وأمر اسماعيل زبان السفينة أن يمضى بهم الى مرسى بعيد عن القصر ، وأمسك جعفر بيده وسار به الى مقعد فى مؤخر السفينة يشرف على المـاء ، وأجلسه الى جانبه ، ولما جلسا قال اسماعيل : « لم يكن عهدى بك مجالسة

هذا الغلام في مثل هذا المجلس فهل طاب لك اللهو والتهتك ؟ »

قال : « هل ترى فيَّ أثر الشرب ؟ انى والله لم أذق الخمر .. »

قال : « لا أقول انك تشرب الخمر ، ولكننى أعهد فيك التعقل والرزانة ، وكنت أحسبك اذا لقيت الأمين فى مثل هـذه الحال أنّبته ووبخته لا أن تجلس معه وتسايره .. »

- ٣٠ -

مقتل الهادى

فتنهد جعفر وحوّل بصره الى مقدم السفينة يتشاغل بما يراه من سبر النوتية قاع النهر بالعُمُد ليسيروا بالسفينة الى مأمن . فلما رأى اسماعيل سكوته وتشاغله ، أدرك ما يضمره وقال : « يخيل اليَّ انك لا تزال على سـوء نيتك فى هؤلاء ، وكأنك لا تزال طامعا ..؟ »

فلم يتمالك جعفر عن قطع الحديث قائلا : « لا تقل طامعـا ياسيدى ، فانى غير طامع وانما أنا أطلب حقى .. »

قال : « وأى حق تعنى ؟ »

قال : « أعنى .. » وخفّض صوته ، وهو يلتفت حوله مخافة أن يسمعه أحد ثم قال : « أعنى ان هؤلاء الموالى سلبونى حقى بعد

أن قتلوا والدى وأخرجوا الخلافة من يدى ، وأنت أعلم انى أولى الناس بها .. »

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال : « لا أجادلك فيما تدعيه من الحق ، ولكننى لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله .. ما هى العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هـذا المجلس ، وقد طالمـا دافعتنى بمثل هذا القول .. فأخبرنى ما هو حقك وممن تطلبه ؟ »

فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه : « أتسمح لى أن أصرّح بما فى نفسى .. انى أتهيب ذلك بين يديك »

قال اسماعيل : « قل .. لا تخف ، فانى اذا رأيت طلبك صوابا أعنتك عليه والا فانى أنصحك وأكتم أمرك »

قال : « انت تعرف والدى الهادى ـــ رحمه الله ـــ وتعلم انه تولى الخـلافة بوصية جـدى المهـدى ، وان والدى أوصى لى بالخلافة من بعده »

قال اسماعيل : « أظنك تطمع فى تنفيذ وصيته ، وأنت تعلم انه ارتكب بهذه الوصية شططا لأن المهدى ـــ رحمه الله ـــ انما أوصى بالخلافة لأبيك ثم لعمك الرشيـد بعده ، فلما تم له الأمر أراد اخراج الخلافة من الرشيد ومبايعتك بها ، فهل تعد هذا حقا ؟ »

قال : « لا أنكر عليك انه خرج بذلك عن وصيـة المهدى ، ولكنهم راجعوه فرجع وأعاد البيعة الى الرشيد على أن تكون لى الخلافة بعده .. ألا تذكر ذلك ؟ »

قال : « بلى .. أذكره »

قال : « فما بالهم فتكوا على اثر ذلك بوالدى وقتلوه ولم يجلس على عرش الخلافة الا سنة وبعض السنة ؟ »

فقال وهو يظهر الدهشـــة : « قتلوه ؟ ومن قتله ؟ لا أعلم انه مات مقتولا ، وانما توفى من مرض .. ولو زعمت ان أمه الخيزران ساعدت على قتله لرأيت مسوغا لهذا الزعم واما غيره فلا .. »

فتضاحك جعفر وقال : « لا يبعد أن تكون الخيزران قـــد ارتكبت هذا الجرم ، كما يقولون ، لأن والدى أغضبها حين كفّ يدها عن التدخل فى شئون الدولة ، ولكنها فعلت ذلك مدفوعة باغراء ذلك الفارسى .. » قال ذلك وصرّ على أسنانه

فقال اسماعيل : « أظنك تعنى يحيى بن خالد ؟ »

قال : « اياه أعنى ، نعم اياه أعنى .. والدليل على ذلك انه هو الذى وقف فى سبيل والدى وعارضه فى أمر البيعة ، وكان الرشيد قد أذعن للخلع ورضى بتحويل البيعة الىّ ، ولكن يحيى هـــذا حرض الرشيد على رفض هذه البيعة ، ولم يستقر حتى وافقه والدى على أن يرجع البيعة اليه على أن أكون أنا الخليفة بعده . فلما وافقه على ذلك أسرع الى الغدر به ، ولم تمض ليال قليلة حتى قيل ان الهادى مات ، وزعموا ان جدتى الخيزران قتلته ، ولكننى أعتقد انها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائه .

ألا تذكر انه كان أول من عرف بالوفاة فهرول ليلا الى الرشيد وبشّره بذلك ؟.. وقد عرف الرشيد فضله وألقى مقاليد الحكومة اليه كما تعلم . ثم أفضت الأمور الى ابنه جعفر الوزير الحالى ، وهو فيما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح أن يقال انه هو الخليفة وليس الرشيد »

— ٣١ —

البرامكة والدولة

وكان جعفر يتكلم والعرق يتصبب من جبينه واسماعيل يصغى الى قوله ، وربما كان رأيه فى هذا الأمر مثل رأيه ، ولكنه لم يكن يرى أن يشجعه عليه لاعتقاده أن ذلك ليس فى صالح الدولة ، اذ قد يؤول الانقسام الى فسادها ، فعمد الى الاعتراض قائلا : «أراك سىء الظن بالبرامكة كأنك توافق أعداءهم فى الطعن على أعمالهم ، وأنت تعلم ان للبرامكة فضلا على هذه الدولة لايضارعه فضل . وأنا هاشمى كما تعلم والخليفة من لحمى ودمى ، يسوءنى ما يسوءه ويسرنى ما يسره ، ولكننى أراكم ظلمتم هؤلاء الموالى ونسيتم آثارهم فى تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد — ألم يكن خالد من أكبر أعوان أبى مسلم فى نقل هذه الدولة من الأمويين الينا — فلما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم وثار العروس

والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يديه لو لم ينجده خالد ويضمن له التغلب عليهم بالرأى دون الجنود . ناهيك بما كان من تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر ..

« ان البرامكة ــ يا ولدى ــ هم عماد هــذه الدولة وقوام أبهتها .. وهذه بغداد كيفما تلفت، رأيت آثار تدبيرهم فى معاهدها ، فقد أقاموا فيها المكتبات والحلقات ومنازل الجند ومآوى المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة .. وان ما تراه من رواج العلم والفلسفة وتهافت أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس انما أصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء ، أليس يحيى بن خالد أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانيــة الى العربية ؟ وهل تنكر انه هو الذى سعى فى جمع الكتب من الهند وغيرها ..؟ أليس البرامكة هم الذين اســتقدموا أطبــاء الهند لترويج صناعة الطب . ان هؤلاء الأطبــاء بين ظهرانينا الآن ، وخاصة منكة الهندى الذى أشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه ، حتى كدنا نيأس من حياته فعالجه وشفى ..

« أليس هم الذين رغّبوا الرشيد فى انشاء المارستان ، وولّوا عليه طبيبا هنديا من هؤلاء ، وأنشأوا مارستانا لأنفسهم وأسندوا ادارته للطبيب الهندى ابن دهن ؟.. وهل خفى عليك ما للفضل

ابن يحيى من الأثر الجميل فى استخدام الكاغد ، فانى لن أنسى ضيق أصحاب الدواوين من استعمال الجلود والرقوق للدفاتر ، والاروج والسجلات ، حتى أشار الفضل المذكور بالكاغد ، فأنشأنا له المعامل فى بغداد كما ترى . وأرانى لو أردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاتيان على آخرها ، وأنت تعلم عصبيتى فى بنى هاشم ، وغيرتى على هذه الدولة ، ورغبتى فى سلامتها (قال ذلك وتنهد) فلا يعقل أن أقول ذلك عن تهوس أو غرض وانما أقول الحق الصراح ، فلا يغرنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وأمثاله عليهم ، وطعنهم فيهم ، فانهم يفعلون ذلك حسدا لعجزهم عن مجاراتهم »

وكان جعفر فى أثناء تلك الخطبة مطرقا ينظر فى حركة الماء الملامس لجدران السفينة ، وهى سائرة الهوينى ، وكأنه استغرق فى هواجسه فلم يفهم كل ما سمعه . فلما فرغ اسماعيل من كلامه انتبه جعفر وقد ضاقت نفسه من سماع مدح البرامكة وهو يكرههم كرها شديدا ، ولا يرى سبيلا لدفع أدلة اسماعيل .. فلم يرَ خيرا من استئناف الكلام عنهم ، فقال : «هب انهم ملائكة نزلوا من السماء ، ألم يقتلوا والدى ويخرجوا الحكم من يدى ؟ »

قال : « ان دعواك منقوضة أو هى غير ثابتة على الأقل ، اذ لم يقل أحد ان يحيى بن خالد قتل والدك أو سعى فى قتله لاخراج الأمر من يدك »

قال : « أما انه قتله فلا ريب عندى فيه ، وان خفى على الكثيرين . وأما انه فعل ذلك لاخراج الحكم من يدى ، فيدلك عليه انه بعد أن وافقه والدى على أن يبايع الرشيد قبلى عجل فقتله قبل أن يتمكن من البيعة لى . ولما تم الأمر للرشيد ، بدلا من أن يبايع لى بايع لابنه هذا المتهتك ، وأظنه كان عازما على أن يجعل الخلافة لى بعد الأمين فأغراه وزيره البرمكى على مبايعة ابنه الآخر المأمون فأصبحت صفر اليدين ووالله لو .. » وتململ

فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلا : « انى لاعجب من تباين أعمالك وتناقض أقوالك ؛ كيف تكون ناقما على هــذا الغلام وتجالسه فى مجلس المدام وتعـاشره فى أحوال الغرام ؟ ثم انى لا أفهم معنى لهذه النقمة ، ولا كيف يمكن لك أن تنال بغيتك .. وهذا الرشيد على كرسى الخلافة وحوله الجند والأعوان ، وبنو هاشم ينصرونه ويؤيدونه ، وقد بايع بالخلافة لولديه الواحد بعد الآخر ، وهم سيتولون الخلافة بعده .. فلا أرى لنقمتك محلا ولا الى غرضك سـبيلا .. فاقلع عما يجول فى خاطرك من الأفكار الصبيانية وأنت تعلم غضب الرشيد .. اذا اطلع على شىء مما فى نفسك ، فان لحمك يتناثر تنفا بين السماء والأرض.. ولكنى كتمت أمرك وأكتمه لأنى أرجو صلاحك ورجوعك ، وأما اذا تحققت من بقائك على عزمك فحرصى على سلامة الدولة يبعثنى على التفريط فيك .. الا اذا رأيت فى أعمالك سدادا .. فأخبرنى كيف ترجو

الوصول الى الخلافة ؟ »

وكان لتهديد اسماعيل وقع شـديد على جعفر وهو يحترمه ويخافه ، فضاقت نفسه وانحبست عواطفه وكاد يختنق لو لم تفرج عنه دمعتان تعلقتا بين المآقى ، وأطرق خجلا من ظهورهما وظهرت الحيرة فى وجهه ، لكنه لم يصبر عن الجواب فقال : «أراك مستخفا بى وبأعمالى ، وتحسب انى أخبط فى أقوالى .. فاعلم ياعماه انى لا أجهل عجزى عن مناوأة الرشيـد وهو بين جنده وأعوانه ، ولست طامعا فى ذلك .. وانما أطمع فى الظفر بالخلافة بعده ، وهذا سهل اذا سقط وزيره البرمكى ـ اسمع كلامى الى آخره ـ ان الرشيد متى مات فالخلافة تفضى أولا الى الأمين هذا ، وهو لايصلح لها ولا أراه يزداد الا انغماسا فى القصف والترف واللهو ، ولا أظن أهل الدولة الا خالعيه فيبقى أخوه المأمون وهو والحق يقال ذو عقل وحزم ، ولكننى لا أرى أحدا من الهاشميين يحبه لأنه ينتمى الى أخواله الفرس . ولا أظنك تجهل ان جعفر البرمكى هذا هو الذى سعى الى مبايعته بالخلافة لغرض فى نفسه لا يقل عن اخراج الدولة من أيدينا .. أرجو الاصغاء الى آخر كلامى .. فالعقبة الوحيدة فى سبيل ارجاع حقى فى الخلافة هى وجود هذا الفارسى وهو يستحق القتل اذا لم يكن انتقاما من فعل أبيه بأبى فلأنه استأثر بأموال المملكة لنفسه ولأهله ، وأنت ترى ان دخلهم من ضياعهم ربما ضـارع

دخل بيت المال ، فقد أخبرني سهل بن هرون وهو أعلم الناس بذلك ان مبلغ جباية هؤلاء الموالى عشرون ألف ألف دينار (١) فى السنة من ضياعهم ومرافقهم

ولا يخفى عليك ان جباية المملكة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب لايزيد على هذا القدر كثيرا .. فقد علمت من صاحب بيت المال أن مجموع جباية الدولة نحو ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٢) أو ٢٧،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالألف والعشرة آلاف كأننا نستجدى . ناهيك بأسباب الأبهة التى استأثروا بها حتى لقد ترى الخيول الواقفة بباب جعفر هذا أضعاف ما يقف بباب الرشيد . فما أدرانا ماذا يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذا مات الرشيد وتولى الأمين وهو لاه كما تراه ، ألا تذهب الدولة من أيدينا ؟.. أما المأمون فانى أعترف بحزمه ولكننى لا أراه غيورا على استبقاء الخلافة فى أهل بيته ، ولعل ذلك بسبب اتصال نسبه بالفرس من أمه ، ولاذعانه الى مشورة جعفر .. وهو الذى رباه .. »

---

(١) العقد الفريد ــ الجزء الثالث
(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ــ الجزء الثانى

- ٣٢ -

العالية بنت الرشيد

فأعجب اسماعيل بتفكير جعفر ، ولعله رأى فى قوله صوابا ، ولكنه لم يكن يؤمن بفائدة مثل هذا التدبير للدولة .. فأخذ يعارضه قائلا : « أما ثروة البرامكة فلا أنكر عليك ضخامتها ، ولكن ما يدخل من ريعها انما ينفقه البرامكة على الناس بسخاء فى الاحسان أو الرواتب .. فمن منا لايستولى على راتب أو هدية من جعفر أو غيره ؟.. وقد علمت عن ثقة من صاحب بيت مالهم ان ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار من هذه الجباية أى أكثر من نصفها يجعل بدرا عليها صكوك مختومة ، وعلى كل بدرة اسم صاحبها من أهل الدولة أو غيرهم على سبيل الهدية . فالمال راجع الى الدولة وأهلها ولا أظن الخليفة يفعل أكثر من ذلك . ثم ان مقتل هذا الرجل خطر على الخلافة .. حتى الرشيد نفسه لو أراد قتله لم يستطع اليه سبيلا لأن أكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطاء والمعروف .. فاقلع عن هذا وذاك واصغ لنصحى فانى ضنين بشبابك حريص على حياتك . والرأى عندى أن تتقرب الى الرشيد ، فذلك خير لك وأبقى .. وأنا أضمن ما تبتغيه من القربى ، بل أنا أسعى فى ذلك بنفسى »

فلما رأى اصراره على مقاومته ، تظاهر بالقبول مخـافة أن يفشى أمره اذا أغضبه فقال : « وما هى وسائل القربى ؟ »

فآنس اسماعيل قرب رضائه فسرَّ لزوال تلك العقبـة من طريق الدولة فقال : « ما هو أقصى ما يطمع فيه الناس للتقرب من الخلفاء أكثر من أن يتزوجوا بناتهم ؟.. اننى أعدك ان الرشيد يزوجك ابنته العالية .. فما قولك ؟ »

فرأى جعفر ان ذلك الزواج اذا تم لايقف فى سبيل بغيته بل هو قد يساعده على تنفيذها ، فأظهر الاستحسان ولكنه قال : « انها قربى عزيزة ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » وضحك ..

فقال : « لا تكن سيء الظن بالرشيد الى هذا الحد ، فانه أقوى عزيمة وأشد بأسا مما تظن .. وأنا أضمن لك ذلك فى كل حال ، انما أرغب أن ترجع الى البصرة ريثما أوافيك بالخبر »

قال جعفر : « سأذهب حسب أمرك ، ولكننى لا أرى ضررا من بقائى هنا حتى تنقضى هذه المهمة .. »

قال : « حسنا .. اذهب انت الآن الى قصرى ، وأنا أمضى غدا الى الرشيد فى هذا الشأن »

فقال : « ولكن ألا تأذن لى أن أعود الى الأمين فأودعه وآتى ببعض الأمتعة التى تركتها عنده ، فأبيت الليلة هناك ؟ »

قال اسماعيل : « اذهب فى حراسة الله »

وكانت الشمس قد دنت من المغيب ، فطلب جعفر الى اسماعيل أن يأذن بانزاله من السفينة ليركب زورقا يعود به الى قصر الأمين

فأمر اسماعيل بايقاف الحراقة بجانب الشاطىء ، ورأى جعفر هناك زورقا ركب فيه حتى عاد الى قصر الأمين وقد أقبل العشاء وأظلم الليل فوقف عند المصطبة فنبحت الكلاب ، وكانت كبيرة هائلة ، فخاف أذاها ولبث واقفا عن بعد يتردد بين النزول من هناك أو الدخول من الباب الآخر وراء البستان . ولاحظ فى أثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس ، اذ لم يسمع فيها غناء ولا رأى نورا ، فعزم على المسير فى الزورق الى الباب الآخر ، والطريق اليه بعيد

وبينما هو يفكر فى ذلك اذ رأى نورا يظهر فى المصطبة ويدنو من السور ، ثم سمع لغطا خفيفا واذا بيد امتدت فوق الحائط والمصباح فى قبضتها ، فلما رأت الكلاب المصباح سكتت ثم أطل رجل عرف جعفر من مظهره انه قيّم الغلمان فناداه ، فقال الرجل : « سيدى جعفر ؟ »

قال : « نعم .. هل أدخل من هنا ؟ »

فقال بصوت ضعيف : « تمهل قليـلا ريثما أعود اليك ! » وتركه وعاد بمصباحه وجعفر واقف فى الزورق ينتظر رجـوعه ويفكر فى سبب هذا التستر .. وبعد قليل ظهر النور وسـمع صوت القيّم يقول : « تفضل على مهل .. »

فاستغرب جعفر هذا التخوف وصعد من الزورق ومشى حتى دنا من الباب السرى فقابله الرجل بالمصباح وقال : « تفضل يامولاى ادخل .. »

فدخل والرجل يمشى بين يديه بالمصباح ، فمر بالمصطبة فرأى آثار الشراب والطعام لا تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد..فتحيَّر فى أمره ، وحدثته نفسه أن يستفهم عن سبب ذلك التغيير ، ولكنه عدل عن ذلك .. وظل الرجل يسير أمامه حتى بلغ القاعة الوسطى فى دار النسـاء ، فرأى المنـائر فى زواياها وجدرانها قد أضيئت شموعها وليس هناك أحد ، فلم يتمالك أن سأل الرجل : « أين هو مولانا ولى العهد ؟ »

قال : « اننا ذاهبان اليه ياسيدى ، تعال معى ولا تضجر .. »

- ٣٣ -

خبر جديد

فمشى جعفر فى أثر القيِّم وهو يدخل من قاعة الى قاعة ، وكلها مضيئة بالشموع على المنائر ، وفيها الرياش الفاخر يختلف فى كل قاعة لونا وشكلا عما هو فى القاعات الأخر ، حتى وصل الى باب مقفل وقف عنده القيِّم ونقر عليه نقرا خفيفا .. فسمع جعفر حركة ، ثم فتح الباب وأطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال

بثوب المنادمة كما فارقه ، وأمسك بيده وأدخله وهو صامت ، فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الأمين جالسا على طنفسة وهو أيضا بملابس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف ، فعرف انها جارية ، ورأى على وجهها آثار الاهتمام فحيّاهم ووقف .. فأمره الأمين بالجلوس قائلا : « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب »

فجلس ، وجلس الفضل الى جانبه ، فقال الأمين : « قد جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا .. انها من جوارينا وقد كلفناها بالتجسس لنا على ذلك الوزير، فاسمع ما جاءتنا به عن خياناته »

فاستبشر جعفر بما سمعه ، وتطاول بعنقه نحو الجاريه ، ولبث صامتا ، فاذا هى توجّه كلامها للأمين وتقول : « انت تعلم يامولاى ان يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى كان قد خرج على الدولة فى الديلم واجتمع حوله جماعة الشيعة وكلهم ناقم على بنى العباس ، يريدون اخراج الخلافة من أيديهم على ما يزعمون . وبعث أمير المؤمنين الرشيد لحربهم غير واحد ، وهم يزدادون تمردا حتى أنفذ اليهم الفضل بن يحيى أخا الوزير جعفر، فلما وصل بجنده الى الطالقان وعلم ان الرجل متحصن فى جبال الديلم ، احتال فى انزاله واستقدامه ووعده خيرا . فوثق يحيى بمواعيده لأنه من الشيعة مثله ، فجاءه فتلطف فى معاملته وطلب اليه أن يصحبه الى بغداد ويسلم نفسه لأمير المؤمنين فأبى ،

فاستحثه على الذهاب ، على أن يشترط ما أراده ويكتب له الرشيد ذلك بخطه .. فتمّ الوفاق بينهما على عهد أمان كتبه الفضل وبعثه الى مولانا الرشيــد ، فوقّعه للرجل كما تعلمون حتى أتى الى بغداد فاستقبله أمير المؤمنين أحسن استقبال وأجرى له أرزاقا سنية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين ان الرجل لايزال عازما على الخروج .. »

فقطع الأمين كلامها ، وقال وهو يهز رأسه : « نعم .. انه ما يزال على سوء قصده ، وهل تصفو قلوب أولئك العلويين لنا بعد أن بلغ العداء بيننا وبينهم الى هذا الحد ..؟ ولاقلوبنا تصفو لهم»

فقال جعفر : « ومن أدرانا ان الفضل لم يتواطأ مع صــاحبه يحيى العلوى سرا على أمور تقضى بالتريث حينا الى أن يخرجوا علينا جميعا ؟.. »

فقال الفضــل : « وهــذا الذى فكر فيه أمير المؤمنين على ما يظهر لأنه بعد أن أعطاه العهد عاد فأفسده كما ستسمعون »

فأتمت الجارية كلامها وهى تنظر الى الأمين : « نعم .. ان مولانا الرشيد أفسد ذلك العهد ، لا أدرى لأى سبب ، ولكننى علمت ان آل الزبير وشَوْا بذلك العلوى .. فأمر أمير المؤمنين بالقبض عليه وحبسه ، وأنتم تعتقدون الآن انه فى الحبس »

فاستغرب الأمين قولها وقال : « لابد من أن يكون هناك »

قالت وهى تبتسم : « كلا يامولاى .. انه الآن فى طريقه الى أهله .. »

فصاح الأمين : « ماذا تقولين ؟ ومن أطلقه ؟ »

قالت : « أطلقه الوزير جعفر .. »

فقال : « وكيف ذلك ؟.. ما هذه الجرأة ؟ »

قالت : « دعنى أقص عليك ما رأيته رأى العين فى غروب هذا النهار »

فتطاول لسماع حديثها فقالت : « كان الوزير جالسا عصر هذا النهار فى غرفته الخاصة من قصره ، والخدم والجوارى يشتغلون بشئونهم الا أنا ، فقد كنت حريصة على مراقبة من يدخل أو يخرج ، فرأيت يحيى بن عبد الله العلوى المذكور داخلا وحده دخول المتلصصين وليس معه أحد من الحاشية ، فعلمت انه جاء خلسة .. فراقبت طريقه فرأيته قد دخل على الوزير، وجلسا فى الغرفة وليس معهما ثالث ، فعلمت انهما لأمر ما اختليا هناك ، فدرت من ناحية أخرى الى غرفة ، بينها وبين هذه باب مقفل ، يمكن مشاهدة الذين بداخلها من بعض ثقوبه .. فوقفت هناك فرأيت العلوى لما دخل ، وقف له الوزير ورحب به وأجلسه الى جانبه وبش له ، وأمر الخادم أن يقفل الباب عليهما . فلما استقر بهما الجلوس سأله الوزير عن حاله فى الحبس فبكى وشكا الى أن قال : « اتق الله ياجعفر فى أمرى ، ودبّر طريقة لاطلاق سراحى ،

فوالله ما أحدثت حدثا يوجب الحبس » فما فرغ العلوى من قوله حتى رأيت الوزير يلاطفه ويخفف عنه بكلام لم أفهمه ، ولكننى فهمت أخيرا قوله : « اذهب حيث شئت من البلاد »

فلما قالت الجارية ذلك . بدت الدهشة على وجه الأمين وقال : « قبّحه الله على هذه الجرأة ، بل على هذه الخيانة .. كيف يطلق أسيرا أمر والدى بحبسه ؟.. وبعد ذلك ماذا فعل ؟ »

قالت : « فأجابه الرجل ، كيف أذهب وأنا أخاف أن يُقبض علىّ فأرد .. »

قال الفضل : « صدق والله .. »

فقال ابن الهادى : « وكيف أطلقه اذن ؟ »

قالت : « انه طمأنه وبعث معه رجالا من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه وقد رأيتــه خارجا وهو يثنى على الوزير ، والوزير يشجعه ويطمئنه .. »

فصاح الأمين : « قد نجا العلوى اذن ..! »

قالت : « نعم يامولاى ، فعزمت منذ تلك الساعة أن أسرع اليك لأقص هذا الخبر عليك .. .. فلم أستطع الخروج قبل الآن »

فنظر الأمين الى ابن الهادى كأنه يستطلع رأيه فى ذلك فأومأ اليه أن يصرف الجارية ، فأدرك انه لايريد الكلام فى حضورها ، فأشــار اليها أن تمضى الى قيّمة الجوارى وهى تقوم بمكافأتها ،

فنهضت ، وقبّلت ثوب الأمين ، وخرجت ..

فلما خلا جعفر بالأمين والفضل ، أخذ فى التهويل فيما سمعوه ليغريهما على الفتك بالبرمكى فقال : « ان الصبر على هذا التطاول ضعف » ولبث ينتظر ما يبدو من الأمين فاذا هو يضحك ويقهقه . فاستغرب ضحكه فقال : « وما الذى يضحك مولاى ؟ أظنه يرى أن شر البلية ما يضحك !.. »

قال : « كلا .. ولكننى أضحك لما أتوقعه من استغرابك اذا سمعت ما قصه علىّ الفضل قبل مجيئك » والتفت الى الفضل كأنه يأمره بأن يروى الخبر

فالتفت جعفر الى الفضل فرآه يقول للأمين : « أظن مولاى يعنى خبر مولاتى العباسة ؟ »

فأومأ برأسه أن : « نعم .. »

فازداد جعفر شوقا لسماع الخبر ، فأخذ الفضل يقص عليه ما جرى له فى فجر ذلك اليوم فى دار الرقيق ، وما قصه عليه أبو العتاهية من تلصصه ، وما رآه وما سمعه .. وجعفر مصغ وقد تولته الدهشة . فلما فرغ الفضل من حديثه ، لم يتمالك جعفر أن وقف وصاح : « يا للخيانة كيف تصبرون على ذلك ؟ لماذا لا يعلم أمير المؤمنين بهذه الخيانة ؟ »

فقال الفضل : « أما خبر العباسة فلا يجرؤ أحد على نقله الى

الرشيد ما لم يعرض حياته لخطر ، لما تتوقعه من غضبه والعياذ بالله »

فقال جعفر : « كيف نطّلع على هـذه الخيانة ونخفيها ؟ ان اخفاءها خيانة أخرى .. »

قال الفضل : « لابد من الاجتيـال فى ابلاغه ذلك على يد مغنية بالاشارة أو التلميح أو التعريض . أما خبر فرار العلوى فيسهل نقله .. »

فاقتنع جعفر بذلك لعلمه ان خبر العلوى وحده يكفى للفتك بجعفر وهذا ما يتمناه ويرضيه ، فأخذ يشجعه على الاسراع فى نقله . ثم التفت الى الفضل وكأنه قد فطن لأمر هام وقال : «وأين ذهب الطفلان ابنا العباسة ؟ أرجو أن لايكون قد فاتكم ادراكهما والقبض عليهما والاحتفاظ بهما لحين الحاجة ، لأن نقل الخبر اذا لم يكن مؤيدا بوجودهما .. فيا لشقاء ناقله !.. »

فقال الفضل : « لست ساذجا الى هذا الحد.. اننىحالما سمعت القصة ، أنفذت جماعة من رجالى ــ وأبا العتاهية معهم ــ للقبض على الغلامين ولم يرجعوا الىّ بالخبر بعد.. على اننى لست أخشى أن يعجزوا عن القبض عليهما .. »

وبينما هم فيما تقدم من الحديث اذ سـمعوا وقع أقدام فى الغرفة المجاورة ، ثم قرع الباب قرعا تعود الأمين سماعه من غلامه اذا جاء لمسارّته فى شأن.. فنهض الفضل لفتح الباب ، فأطل الغلام

وظل واقفا بالباب ففهم الأمين انه يريد أن يلقى اليه بسر ، وفهم جعفر والفضل ذلك ..

فاستأذنا فى الخروج ، فأَذِنَ لهما ودخل الغلام ، فقال : « ان أحد رجال الشاكرية جاءنا الآن » فعلم انه رسول من عند والدته زبيـــدة لأنها أول من اتخذ الشاكرية من الخدم ، يترددون على الدواب الى جهاتها .. ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها (١) فقال : « وماذا يريد ؟ »

قال الغلام : « جاء ليدعوك الى مولاتنا السيدة زبيدة لأنها تحب أن تراك فى صباح الغد لأمر هام »

فقال : « قل له انى مصبح اليها باكرا ان شاء الله »

فخرج الغلام ، وكان الليل قد أسدل نقابه ، فذهب كلٌ الى فراشه ..

– ٣٤ –

زبيدة بنت جعفر

هى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور وابنة عم الرشيد أخى أبيـــه تزوجها سنة ١٦٥ هـ . وهى تفاخر بنسبها الهاشمى سائر نساء الرشيد لأنهن من أمهات الأولاد ، ولذلك كانت عنده

(١) المسعودى ٣٦٦ – الجزء الثانى

فى المنزلة الأولى . وكانت جميلة الصورة واسمها الاصلى أمة العزيز ، فلقبها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها (١) . وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها ، ولها فى الاسلام مآثر لم يسبقها اليها أحد .. مثل حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل منخفض ومرتفع وسهل وجبل حتى أخرجتها مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة ، فبلغ ما أنفقته ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار ، فضلا عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الألوف عليه . غير ما كانت تنفقه على أهل الفاقة .. وكان لها مائة جارية ، يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد بعشر من القرآن .. حتى كان يسمع فى قصرها كدوى النحل من القراءة

وهى أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجواهر ، وصنع لها الوشى الرفيع ، حتى بلغ ثمن الثوب من الوشى الذى اتخذ لها ٥٠٫٠٠٠ دينار . وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى ، وأول من اصطنع القباب من الفضة والأبنوس والصندل ، وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج ، وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق

واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر ، وأضاءت شمع العنبر على

---

(١) ابن خلكان — الجزء الاول

منائر من الذهب .. وقد تشبّه الناس بها فى سائر أحوالهم (١)

وكان لها قصر فى بغداد على شاطىء دجلة الغربى يسمى قصر زبيـــدة ويلقب (دار القزاز) ، يقع جنوبى قصر الخلد شرقى مدينة المنصور ، وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه فى تلك الحضارة الزاهرة

وكانت زبيدة شـــديدة العصبية لبنى هاشم ، وفى صـــدرها حقد على البرامكة وخاصة جعفر بن يحيى الوزير لأنه كان يحط من قدر ابنها الأمين ويرفع من شأن أخيه المأمون ، مع ان أمه جارية .. وآخر مازاد من نقمتها عليه ، انه حمل الرشيد على أن يبايع للمأمون بولاية العهـــد مع ابنها الأمين ، وكانت تحب أن تكون البيعة له وحده . وزد على ذلك ان الرشيـــد ســـار سنة ١٨٦ هـ الى الكعبة حاجا ومعه أبناؤه ووزراؤه وقواده وقضاته ، وفى جملتهم ابناه الأمين والمأمون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر البرمكى ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوهما فى الكعبة ، وحلف كل منهما على الثبات ، وكانت زبيدة حاضرة فلما حلف الأمين وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر وقال له : « فان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب منه أن يحلف على ذلك ثلاث مرات ففعل .. فحقدت زبيدة عليه ، وما برحت منذ ذلك الحين تترقب الفرص للايقاع به.. وربما كانت أكثر أعداء البرامكة حقدا عليهم ،

(١) المسعودى ٣٦٦ ــ الجزء الثانى

لا تدخر وسعا فى استطلاع أخبارهم لعلها تجد فرصة تتمكن بها منهم . وكانت تعلم أن جعفر يتردد على العباسة ، ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفلين .. ولو علمت ما أحجمت عن كشف أمرهما لزوجها لأنها لم تكن تتهيب منه لما تعلمه من منزلتها عنده

فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ما حدث من الغوغاء عند دار الرقيق ، اطلع على خبر الطفلين أحد جواسيسها عند العباسة.. فنقل الخبر اليها فرأت أن تغتنم أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه ، ولكنها أحبت أن تفاوض ابنها الأمين فى ذلك فأرسلت فى طلبه كما تقدم ..

وبكر الأمين فى صباح اليوم التالى الى دار القرار اجابة لطلب والدته ، فركب جواده والغلمان يسيرون فى ركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة بين يديه على عادتهم فى المسير بين يدى ولى العهد فى ذلك الحين (١) . فسار الموكب محاذيا الشاطىء الشرقى ، وعلى الأمين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السفلى ، فقطعه وسار بعده على الشاطىء الغربى حتى أطل على دار القرار والناس يقفون له فى الطرق ويحيونه ويدعون له بطول البقاء ، ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم فى العصبية العربية .. فيرد تحيتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك

وكانت زبيدة تنتظر مجيئه ، وقد استبطأته مع علمها بطول

---

(١) البيان والتبيين ١٥ – الجزء الثانى ، وابن الاثير ٢٥ – الجزء الثالث

المسافة بين قصرها وقصره ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت .. وكانت قد أعدّت له كل أسباب الراحة والأنس والترحاب لشدة تعلقها به لأنه وحيدها ، وقد تركّزت كل آمالها فيه .. فأمرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالأزهار والرياحين وأعدت له مجلسا تضوعت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر فى غرفة من قصرها سقفها قبّة مصنوعة من خشب الصندل ، ومكسوة بالوشى والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية ، وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتا من الشعر، أو حكما مأثورة ، وعلقوها فى مواضعها بكلاليب من الذهب ، وفى أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم أحد ملوك الفرس يصطاد السباع ، توهم الناظر من اتقان صنعها انه يرى منظرا حقيقيا . وعلى حواشى البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب . وفى وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهر النظر ..

وكان فى قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص ، وفرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالأرمنى فى ذلك العصر من صنع أرمينية ، وهو عشر مصليات بمخادعها ومساندها ومطارحها وبساطها كما وصفناه . فمثل هذا الفرش

لايتقوّم بأقل من ٥٠٠٠ دينار (١) غير البساط وغير مايكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش ، وغير ما فى جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب ، وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون ، ولم يستخدمه أحد قبلها الى ذلك العهد

— ٣٥ —

دار القرار والجوارى المقدودات

وحينما وصل الأمين الى الحديقة ، استقبله جماعة من الخدم الشاكرية أعانوه على النزول عن جواده ، وقد تحوّل صاحب الحربة قبله ومشى بين يديه بالحربة حتى وصلا الى موضع الأزهار، وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الطيب .. فتنحى صاحب الحربة ، ومشى الأمين وحده حتى وصل الى باب القصر فرأى والدته واقفة هناك فى انتظاره .. فلما دنا منها همّت به فضمّته الى صدرها وقبّلته قبلة الوالدة المشتاقة ، فقبّل يدها فأحس ببضاضتها .. وكانت زبيـدة مشرقة الوجه بيضاء عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال، وكانت سوداء العينين كبيرتهما مع ذكاء وحدة وقد استدار خداها وانبسطا من عيش الترف والرغد، وكان فمها صغيرا باسما يعلوه أنف فيه شمم وذقن قليل البروز ليس

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٣ — الجزء الاول

بينه وبين الترقوة غور ولا ثنية ، وقد استدار عنقها واشتد بياضه ؛ وليس فيه بروز ..

وكانت بضة : طويلة القامة مع سمن قليل .. اذا أسرعت فى مشيتها ارتج كتفاها وفخذاها ارتجاج الدلال والرخاء . وقد تزملت برداء من الحرير ارجوانى اللون يستر كل أثوابها ؛ وتمنطقت فوقه بمنطقة مذهبة شدت طرفيها بعروة مرصعة بالجواهر. وقد أرسلت شعرها ضفيرة واحدة على كتفيها . وعصبت حول رأسها عصابة ليس بها شيء من الجواهر . والعصائب كانت لا تزال حديثة العهد لم تبلغ الى نساء العامة . بل كانت مقصورة على بيت الخلفاء والأمراء .. شأن ما يحدث فى الأزياء فى كل عصر. فان الزى الجديد (المودة) تبدأ به عادة بعض الوجيهات فيقلدها أترابها ثم يشيع بين العامة .. والعصائب استنبطتها علية أخت الرشيد لتستر بها عيبا فى جبينها . فاصطنعتها مرصعة بالجواهر كما تقدم. فاستحسن الناس ذلك فقلدوه.. أما زبيدة فكانت لفرط اعتزازها بمنزلتها عند الرشيد حسبا وجمالا وتعقلا . تستنكف أن تقلد سواها . فاتخذت عصابة بسيطة لا جواهر بها . ترفعا عن التقليد .. ولم تضع فى عنقها عقدا . ولا فى أصابعها خاتما . ولا فى معصمها سوارا . تنزها عما يستتبع سواها تقليدها به . فلم يتمالك الأمين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسام وقال : « أراك تقلدين عمتى علية . ان هذه العصائب جميلة يا أماه .

لكننى لا أرى على عصابتك شيئا من الجواهر »

فابتسمت وأشارت بسبابتها الى قدميها ؛ فنظر الى قدميها فاذا هى قد رصعت خفيها بالجواهر .. فأعجب بترفعها وبذخها . وهى أول من لبس الخفاف المرصعة

وكان الأمين يمشى بجانب والدته لايدرى الى أين تسير به . فقطعت الدهليز وبلغت الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها حتى مرّت من دهليز آخر الى القاعة التى ذكرناها .. فلم يبهره ماهنالك من الفراش الثمين ، ولكنه دهش لشىء آخر لم يكن قد رآه من قبل .. ذلك انه لما أطل على القاعة تزايدت رائحة المسك ورأى عند مدخلها صفين من الجوارى الحسان على رءوسهن العمائم وقد سوين شعورهن على أشكال الطرر والأصداغ والأقفيـة ولبسن الأقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة ، فبانت قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب ، وفى أيدى بعضهن جامات المسك وفى البعض الآخر قوارير الطيب .. فلم يتمالك الأمين عند مشاهدة ذلك المنظر عن الدهشة والاعجاب ، وأمه تتماسك عن الضحك ، فالتفت اليها فضحكت فقال : « ما هذه الملابس يا أماه ..؟ أراك قد جعلت هؤلاء الجوارى غلمانا »

فقالت : « فعلت ذلك تشبها بك يا ولداه .. رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت فى تزيينهم كأنهم من الجوارى الحسان ؛ فاتخذت هؤلاء الجوارى أقلد بهن الغلمان كما ترى ، وقد سميتهن الجوارى

المقدودات (١) وسأبعث بهن هدية اليك »

فسرّ الأمين بتلك الهدية .. وكانا قد وصلا الى مجلس معد لهما على سرير من الأبنوس فى صـــدر القـــاعة محلى بالذهب . فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الخز المزركش محشوة بريش النعام ، وأجلست الأمين الى جانبها وهى تنظر اليه ولا ترتوى من رؤيته . ثم أشـــارت الى من كان هناك من الجوارى والغلمان فانصرفوا ..

– ٣٦ –

المشورة والحيلة

فلمـــا خلت به تغير وجهها من الابتسام والأنس الى الهيبة والجلال ، وبدت فى عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء وحدّة الذهن والجـــد فقالت : « كيف قضيت نهـــارك أمس يا محمّد ؟ »

قال : « قضيته كما تحبين ياسيدتى من الأنس والطرب »

قالت : « وفى الليل .. لماذا كنت مستترا فى خلوة ؟ »

قال : « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت : « أخبرنى به الشاكرى الذى بعثته اليك ، فما هى هذه

---

(١) المسعودى ٣٦٦ — الجزء الثانى

الخلوة ؟ »

قال : « هى خلوة يحلو لك سماع خبرها ، وقد كنت عازما على المجئ اليك لأطلعك على سر اكتشفته يسرك الاطلاع عليه . وأنت ما الذى بعثت الىَّ من أجله ؟ »

وكانت متكئة على كتفه ويدها على خده تلاعب بأناملها شعرات فى عذاره ، وتنظر اليه نظر الحنان والعطف . فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت :

« وعندى أيضا ما يهمك الاطلاع عليه ، وأرجو أن تتخلص به من ذلك الفارسى »

فعلم انها تشير الى جعفر البرمكى فبغت وقال : « وخبرى أيضا يتعلق به قبحه الله .. هل تعنين خبره مع العلوى أم مع عمتى العباسة ؟ »

فأجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة فى عينيها وقالت : « هل علمت بخبر العباسة أيضا ؟ »

قال : «نعم..علمت به ، وكدت أتميز من الغيظ ، ولكن لا أظننا ننتفع بذلك عاجلا .. أما خبر العلوى فهو أقرب للافادة منه »

فقالت : « وأى علوى تعنى ؟ وما خبره ؟ انى لم أ مع بشىء من هذا القبيل »

فاعتدل فى مجلسه ، وقصّ عليها ماسمعه مساء الأمس من الجارية

حتى أتى على آخره ، وزبيدة تنظر اليه وعيناها تبرقان استغرابا ودهشة . فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت : « ذلك جزاء من يستهين بسلطة فوضها الله اليه .. ان أباك مع تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسى حتى أصبحت الخلافة له ولم يبق لأبيك الا اسمها .. ولكن سوف يلقى الباغى عاقبة بغيه »

فقال : « لا أنكر عليك أن والدى أطلق يد هذا الوزير فى أمور الدولة ، ولكن ألا تظنين ذلك لازما ليضمن سير الأعمال..؟ وهل يستطيع أمير المؤمنين أن يتولى كل الأعمال بنفسه ؟ »

فقالت والجد ظاهر فىعينيها : « ان اطلاق يده فى شئون الدولة قد يكون له فيه عذر ، ولكن ما عذره فى ادخاله على حريمه بلا اذن ولا حرج ؟ ان جدك المهدى ـ رحمه الله ـ مع استخدامه البرامكة وثقته بهم ، لم يبلغ هذا الحد من اطلاق أيديهم .. ولا عمك الهادى فعل شيئا من ذلك ، ولا أظن أن أحدا يفعل ما فعله أبوك .. » قالت ذلك وقد ظهر الغضب على وجهها فزادها هيبة

قال : « وماذا تعنين يا أماه بدخوله على الحريم ؟ »

قالت : « أعنى ان أباك ـ حفظه الله ـ أمر أن يدخل جعفر على دور النساء فى السفر والحضر ، وأبرز اليه جواريه واخوته وبناته لزعمه أن بينهما رضاعا يحلل ذلك ، فهو يدخل الى قصور نساء الخليفة وبناته واخواته بلا حرج ، فلا عجب اذا ظهر ماظهر من جرأته » . وتنهدت وقد أخذ الغضب منها مأخـذا عظيما ،

وكان فى يدها جام فيه مسك تتشاغل بتفتيته فى أثناء الحديث ، فلما غلب عليها الغضب ارتعشت أناملها ، فوقع الجام من يدها وانتثر فتات المسك على البساط فهمّ الأمين بالتقاطه وهو يقول : « وهل بلغ من اطلاق يده فى دور النساء أن يدخل الى قصرك ويراكِ ؟ » وقد بانت الغيرة فى وجهه

فصاحت : « كلا .. وهل يجسر هــذا المولى أن يرفع بصره الىّ..؟ انه لم يطأ أرض قصرى هذا ولا كلفته بحاجة يقضيها لى ولن أكلفه .. » (١)

وكان الأمين قد فرغ من التقاط المسك ، فأعاده الى الجــام ودفعه الى أمه وهو يقول : « وما الرأى الآن ؟ ان هذا الرجل لا ينبغى أن نستر فعله والا ذهب الأمر من أيدينا واكتسينا العار الذى لايمحى لما ارتكبه هذا الخائن بعمتى .. »

فقطعت كلامه وقالت : « ان أمر عمتك يا بنى أكثر اللوم فيه على أبيك كما قلت لك ، لأنه أباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها ، وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة وهى لم تر رجلا غيره ــ ذلك جزاء من جمع بين النار والحطب ــ على ان هذا لايبرئه من الخيانة .. » وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهى تنظر الى البساط تتفرس فى الطاووس المنقوش فى وسطه .. والأمين قد انقبضت نفسه ، وضاق صدره

---

(١) الاتليدى ١١٣

لأنه مع طول الحديث لم يصل الى الغرض المطلوب ، ولا تجاسر أن يفاتحها بطلب قتله أو الوشاية به . فلما ضــاق ذرعا أطرق وبانت الحيرة فى وجهــه .. ولاحظت أمه ذلك ، فأسرعت الى تطييب خاطره قائلة : « أظنك تريد أن تعرف رأيى فى هــذا الرجل ؟ »

فلم يتمالك محمد أن صاح : «نعم يا أماه لقد ضاق صدرى»

فقالت : « وهل ترى أن نبلغ أباك خبر أخته العباسة ؟ »

قال : « لا أدرى .. وانما أريد أن يقتل هذا الرجل والسلام»

فضحكت وأدارت ذراعها حول عنقه وقبّلته ، ودموع الحنان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الأمر الذى أدخلت نفسها فيه وقالت : « قد كنت عازمة على أن أطلعه على خبر أخته ، ولكن مباغتة الرشيد بذلك لا تخلو من الخطر على الناقل فيكفى الآن أن نبلغه خبر العلوى .. » ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فأخرجت بطاقة دفعتها اليه وهى تقول : « لا تظننى غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى .. انى لا أنسى تشديده عليك بالقسم على كتاب العهد بالكعبة فى العام الماضى ، فقد بلغ من قِحَته وسوء أدبه أن يستهين بك أمامى .. وقد أعددت أبياتا من الشِعر بمعنى ما نحن فيه ، على ان أوصّلها الى أبيك سرًّا من حيث لايعلم ، فنكون قد أبلغناه بالخطر الذى يهدد الدولة من هذا الرجل .. فاذا لم يفلح ذلك فى تحذيره ، عمدنا الى ما هو أبلغ »

فتناول الأمين البطاقة وقرأها فاذا فيها : [١]

قل لأمين الله فى أرضه ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
وقد بنى الدار التى مابنى الـ ـفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيّبك اللحد
ولن يباهى العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد

فلما فرغ من قراءتها أحس بارتياح وقال : « أظنها تقتله لا محالة .. وهل أنت عازمة على ايصالها ؟.. وكيف ؟ »

قالت : « لايهمك ذلك فانى أكلف واحدا من جواسيسنا هناك يلقيها عند مصلّى أبيك ، فاذا رآها قرأها وأظنها تفى بالغرض المطلوب والا فالدواء الناجع عندى .. » قالت ذلك ووقفت ، فوقف الأمين وقد علم انها تنوى الخروج من تلك القاعة ، فمشيا معا وهى تقول له : « أظن انك جائع .. وقد أعِدّت المائدة ، فهلم بنا اليها .. »

قال : « صدقت .. انى جائع ، وهل أعود بعد الطعام الى قصرى ؟ »

قالت : « انى مشتاقة اليك يا محمد .. دعنا نقضى هذا اليوم معا »

---

(١) ابن خلكان ــ الجزء الثانى ، الاتليدى ١١٧

وذهبا الى غرفة المائدة ..

فلنتركهما يتناولان الطعام ، ولنعد الى ما كان من اسماعيل ابن يحيى ومهمته الى الرشيد

– ٣٧ –

قصر الخلد

تركنا اسماعيل بعد مفارقة جعفر فى مساء الأمس ، وهو عازم على زيارة الرشيد فى الغد لمخاطبته فى شأن ابن الهادى والعالية . فلما أصبح ، لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد .. وقضى مسافة الطريق وهو يفكر فى الرشيد ويهيىء الأسلوب الذى ينفذ منه الى مخاطبته فى أمر ابن عمه ، لعلمه بقسوة الرشيد اذا غضب ، وربما سبق الى ذهنه سوء الظن فتعود العائدة وبالا عليه .. لكنه لم يطل على ذلك القصر حتى رأى الناس يسرعون فى الأسواق نحو الشارع الأعظم المؤدى من القصر الى الجسر ، فأمر أحد الغلامين السائرين فى ركابه أن يسأل عن سبب ذلك الهرج فعاد وهو يقول : « ان أمير المؤمنين خارج الى الشماسية لحضور حلبة السباق » فتشاءم اسماعيل من هذا الاتفاق وسبق الى اعتقاده فشل مهمته لأنه لم يوفق فيما كان يريده فى ذلك الصباح ، ولا هو يرجو أن يقابل الرشيد فى المساء لأن الشماسية

فى الجانب الشرقى من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار . فترجّل وتنحى جانبا بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد . فما لبث أن رأى النـاس يسعون الى الفرار .. يدفع بعضهم بعضا كأنهم يساقون سوقا ، ثم رأى خدما صغارا يركضون وفى أيديهم قسى البندق يرمون بها العامة الذين يعترضون الموكب فى الطريق.. وهم فرقة من الخدم يسمونهم النمل (١) ومن ورائهم رجال مشاة على الأقدام عليهم شارة الدولة ، وفى أيدى بعضهم السـيوف المرهفة ، وفى أيدى الآخرين الأعمدة ، ووراءهم رجال فى أيديهم القسى الموتورة (٢) وهم يمشون بوقار وسكون . ووافى الخليفة بعدهم على جواد مخضّب بالحناء عليه سرج مذهب .. وقد تغطى سائر الجواد بالديباج المخوص بالذهب ، والرشيد جالس فوقه وعلى رأسه قلنسوة طويلة ليس حولها عمامة .. لأن الخلفاء كانوا اذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا فى طولها وحدة رءوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة (٣) فكيف اذا ركب وهم مشاة . ورأى سواده مسترسلا حتى غطّى جانبا من ظهر الجواد ..

وكان الرشيد يومئذ فى الحادية والأربعين من عمره ، وقد أشرق وجهه بياضا وأبرقت عيناه ذكاء ، وكانتا كبيرتين ولحيته خفيفة كستنائية اللون ، وشـاربه مستطيل دقيق ، وفى فمه ابتسامة ، وفى يده اليمنى قضيب من الأبنوس طرفه مصنوع من الذهب ،

---

(١) الاغانى ٩٤ ــ ج ٢٠ (٢) المسعودى ــ الجزء الثانى
(٣) البيان والتبيين ٨٤ ــ الجـزء الثانى

وكان الجواد يمشى الهوينى ، ويتبختر فى مشيته ، كأنه يعرف مَن فوقه ، ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظلل الخليفة من الشمس ، ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب الا جعفر الوزير فانه لم يكن معهم . ويلى ذلك افراس الحلبة عليها سروج خفيفة وسياس يقودونها بالارسان ، وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركى له مهارة فى تربية الخيل . وأخيرا فرقة أخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الوراء .

وظل اسماعيل واقفا ينظر الى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المفكر ، وهو يعجب لغرور الانسان واهتمامه بالمظاهر الزائفة أكثر من الحقائق الدامغة .. ونظر فيمن يحف بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين ، وهو يعلم ما فى نفوسهم .. ومنهم من يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت ، ومنهم من يحبه ويتفانى فى خدمته والمرجع العام فى ذلك كله الى حب الذات . ثم فكر فى نفسه وفى ما كان قادما من أجله ، وتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة فى سلامتها ..

وأسف لاخفاقه فى مهمته فى ذلك الصباح ، فركب وعاد الى منزله متألما .. على أن يعود فى صباح الغد لاستئناف ما كان يسعى اليه ..

وبادر فى صباح اليوم التالى فركب كالأمس وغلاماه فى ركابه وعليه السواد والقلنسوة ، وما زال حتى أقبل على قصر الخلد .

وللقصر أربعة أسوار الواحد داخل الآخر فلا يستطيع أحد الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور فى أربعة أبواب (١) وعند كل منها حرس من الشاكرية وقفوا بالأسلحة . فدخل الباب الأول وهو راكب ، فوقف الحرس اكراما له ولم يعترضوه ، لعلمهم انه من كبار بنى هاشم فضلا عن منزلته عند الرشيد ، ودخل الباب الثانى فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه حتى اذا وصل الى الباب الرابع ، تناول الفرس أحد الغلامين ومشى اسماعيل فى طريق واسع يؤدى الى دار العامة ، وغلمان القصر يسيرون بين يديه وهو يمشى الهوينى فى جلال ووقار حتى أقبل على تلك الدار ، وهى التى يجلس فيها الخليفة للعامة ، وبجانبها غرف يقف فيها الشعراء والأدباء والندماء أو يجلسون ريثما يؤذن لهم أو يطلب الرشيد أحدهم . فعلم اسماعيل من جلبتهم وغوغائهم وخلو المكان من الحرس (الشاكرية) ان الرشيد ليس هناك ، فاستغرب ذلك وأحب أن يسأل عنه فاذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعا وسيفه يخبط على جانب فخذه لشدة سرعته . فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته وهو فرغانى الأصل ، وأكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فاجتذبها منه وسأله عن أمير المؤمنين

فقال : « هو فى دار الخاصة يامولاى »

---

(١) الاتليدى

قال : « وكيف ذلك واليوم موعد جلوسه فى دار العامة ؟ »

فقال : « كان عازما على الجلوس فيها ، فجاءه وفد من ملك الهند .. فأحب أن يجلس لهم فى دار الخاصة لأن ذلك أقرب للرهبة والعظمة »

– ٣٨ –

وفد ملك الهند

فتحول اسماعيل نحو تلك الدار ، وقبل الوصول اليها رأى صفين من جند الخليفة الأتراك ، وقد وقفوا باتنظام ولبسوا الحديد حتى لايرى منهم غير حدقات عيونهم ؛ فقال لمسرور : « ما بال هؤلاء ؟.. وما الذى بعث على وقوفهم بالحديد كأنهم فى ساحة الحرب ؟ »

قال : « لما علم أمير المؤمنين بمجىء الوفد سن ملك الهند أحب أن يوقع الرعب فى قلوبهم ليبلغوا ملكهم ما شاهدوه من قوة الاسلام فأمر بوقوف هؤلاء كما ترى » (١)

فانبسطت نفس اسماعيل لما لمسه من رغبة الرشيد فى أبهة الدولة ، ولكنه ما لبث أن تذكر ما يخشاه عليها من الدسائس .. فانقبض صدره . على انه تماسك ومشى نحو الدار بين الصفين

(١) العقد الفريد ١٤٩ – الجزءالاول، وسراج الملوك

حتى دنا من بابها وكان مرتفعا يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الأبيض يتخللها قطع من البلاط الأخضر ، والشاكرية وقوف الى الجانبين وفى أيديهم السيوف .. فدخل مسرور أمامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بحضوره ليستأذن له فى الدخول

فصعد اسماعيل فى أثره وهو يتباطأ فى مشيته ريثما يؤذن له ، فما لبث أن جاء يدعوه للدخول .. فمشى فى دهليز عريض مبلط ببلاط أحمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب والآذن يسير بين يديه ، فرأى فى آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الأبدان كأنها أسود ، وقد أوثقت من أعناقها بسلاسل من الحديد ، وأمسك السلاسل ثلاثة رجال عرف من منظرهم وألوانهم انهم من أهل الهند وهم مكشوفو الرءوس .. فاشتغل خاطره بتلك الكلاب وتهيب من توقد أبصارها وضخامة أبدانها ..

ولكنه تجلد وهو يمر بالأروقة والدهاليز ، والخدم يقفون له حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة بالبسط الثمينة فوقها جلود النمور والسباع ، وفى جوانبها قضب المناور عليها الشموع الملونة . فوقف اسماعيل هناك وهو يتشاغل بقراءة ما نقش على الجدران من أبيات الشعر أو الحكم لعله يحتاج الى اذن ثان على جارى العادة فى الداخلين على الخليفة ، فرأى الآذن قد عاد وهو يشير اليه أن يتقدم لأن مثله لايحتاج الى اذن ثان

فتقدم نحو باب عليه ستارة من الديباج المخوص بالذهب فتحه

الآذن بيده اليسرى وأشار الى اسماعيل باليمنى أن يدخـل ، فدخل الى ايوان كبير طوله ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ، قائم على أساطين من الرخام وعلى جدرانه صور مما فى البر والبحر، نقشت بالذهب والفضة . تتخللها أبيات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب ، وفى أرضه بساط من الديباج الأصفر كأن صانعه قلد به القطيف بساط كسرى .. عليه نقوش بألوان زاهية بينها خيوط القصب تمثل أشجارا وأنهارا وطيورا وأسماكا ، توهم الناظر انه فى حديقة يانعة الثمار جرت فيها الجداول وتغنت فيها الأطيار . وعلى حواشى البساط وشى جميل . وسقف الايوان قبة عظيمة الاتساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة أساطين ، وعلى سقف القبة نقوش وكتابة . وفى وسط الايوان ستارة من الحرير الصينى معلقة عرضا بين الحائطين ، تحجب الخليفة عمن يجالسه على عادتهم فى مجالسة الخلفاء يومئذ ، الا من اختـار الخليفة تقديمه ورفع الستارة بينه وبين أهله وخاصته

ورأى اسماعيل الكراسى المنصوبة خارج الستارة لجلوس بنى هاشم وليس عليها أحد منهم .. ويسمى الهاشميون فى اصطلاح تلك الأيام أبناء الملوك أو الأشراف (١) ؛ وأما الوسائد المطروحة أمام الكراسى لجلوس الخاصة من الأمراء والقواد .. فرأى على بعضها أناسا من الهنود عليهم القبعات المزركشة ، وملابسهم من

(١) المسعودى ١٧٧ ــ الجزء الثانى

نسيج الهند .. عليها صور ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولا سيما الفيل . وفى أعناقهم عقود من الجواهر الثمينة بينها تعاويذ من الذهب تمثل بعض أصنامهم ، وقد جلسوا خاشعين متهيبين ينتظرون أمر الخليفة .. وبين أيديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلعية ؛ فعلم انهم الوفد القادم من ملك الهند وان أصحاب الكلاب فى الدهليز تابعون لهم

فأشار صاحب الستارة الى اسماعيل أن يدخل اذا شاء أو يجلس على أحد الكراسى ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود . وكان اسماعيل قد سمع الرشيد يتنحنح فعلم انه جالس هناك على سريره وراء الستارة ؛ ففضل الجلوس هناك حتى يفرغ من هؤلاء ؛ وهو يخشى أن يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبة الرشيد ؛ ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستار بواسطة الترجمان ؛ وهو صاحب الستارة لأنهم كانوا يختارون أصحاب الستارة من الناطقين باللغات فى مثل هذه الأحوال . فقال الرشيد لرئيس الوفد : « ما الذى أتيتمونا به ؟ »

قالوا : « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا »

فدعا الرشيد بالصمصامة وهى سيف عمرو بن معدى كرب ، وأمر أحد رجاله الأتراك فقطع بها تلك السيوف واحدا واحدا ؛ وأمر أن يريهم ذلك السيف . فرأوه.. فاذا هولا فل فيه ؛ فأسقط فى أيديهم ونكسوا رءوسهم ثم قال : « وما عندكم غير هذا ؟ »

قالوا : « أتينا بكلاب لا يلقاها سبع الا عقرته »

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهيبا من رؤيتها ، ثم سمع الرشيد وهو يقول : « ان عندنا سبعا ، فان عقرته كلابكم فهى كما ذكرتم .. اخرجوها الى السباع فى أقفاصها ، وأمروا السبّاع أن يخرج السبع عليها .. ونحن ننظر الى ما يدور بينها من الروشن »

فخرج صاحب الستارة ، وأشار الى الهنود ، فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب فى الدهليز فساقوها معهم ، وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار وقد سبق أحدهم الى السبّاع فأمره باخراج أسد عظيم فأخرجه ، وجاءوا به الى ساحة أطلق فيها الكلاب القلعية ، ورأى اسماعيل الأسد يخطر ويزأر ، مما يؤكد انه سيمزق الكلاب اربا اربا .. فاذا هى قد مزقته ، ورأى الرشيد ذلك من الروشن فأرسل الى الوفد أن يعودوا الى الايوان كما كانوا ، فعادوا وعاد اسماعيل وهو يستغرب مما رآه من الكلاب فلما عادوا قال الرشيد للوفد : « من أين لكم هذه الكلاب ؟ ومن أى جنس هى ؟ »

قالوا : « هى كلاب سيورية تعيش فى بلادنا لا شبيه لها فى العالم »

فقال : « هذه أحب أن أحفظها .. فتمنوا مقابل هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا »

قالوا : « لا نتمنى سوى السيف الذى قطعت به سيوفنا .. »

فقال لهم : « لا يجوز فى ديننا أن نهدى اليكم السـلاح ، ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم ، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم »

قالوا : « لا نتمنى سواه »

فقال : « لا سبيل اليه » ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم ، وانصرفوا (١) وفى نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة

- ٣٩ -

مجلس الرشيد

أما اسماعيل ، فانه انتظر حتى فرغ الخليفة من ذلك الوفد فعاد الى التفكير فيما جاء من أجله ، وأحب أن يخاطبه على انفراد قبل أن يأتى أحد من بنى هاشم أو سواهم فيحول بينه وبين ما يريد .. وهو يرى الاسراع فى مهمته قبل ذهاب الفرصة ، فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستارة ودعاه للدخول على الرشيد اذ لا حجاب عليه وقال : « لما علم مولانا أمير المؤمنين بمجيئك أمرنى أن أدخلك عليه »

قال : « وأحب أن لا تدخل علينـا أحدا ، ريثما أفرغ من حديثى معه »

---

(١) العقد الفريد ١٥٠ ـ الجزء الاول

فوسع له الستارة ما بين شطريها ، فأطل اسماعيل على الرشيد فرآه جالسا على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجواهر (١) فوق سدة فى صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من أساطين الايوان ، مجللتين بالوشى المنسوج بالذهب ، وقد وقف عند كل منهما وصفاء فى أيديهم المذبات أو المناديل . ووراء السدة من الجانبين شاكريان بيد كل منهما سيف مسلول . والسدة عبارة عن مظلة قائمة على عمـــد من الأبنوس المطعم بالعاج ، سقفها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم جميلة . وفى حاشيته من الأمام والجانبين أهلة من الذهب مدلاة فى كل هلال منها اترجة ذهب مسبك ، يتدلى من كل اترجة درر كبار بينها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام بديع يبهر النظر . والرشيد جالس على السرير فى السدة تحت المظلة وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من كبار الملوك أو نوابهم اذا أراد ارهابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وأبهة الخلافة . وقد لبسها فى ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندى ، فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى وبين ثنـــاياها عقود من الجوهر بشكل مسبحات تملأ الأخلية بين تعاريج العمامة . وفى مقدمتها فوق الجبهة شـــبه طرة من الذهب المرصع بالجوهر واليـــاقوت والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من أسلاك الذهب ، وقد نظمت

(١) الاغانى ١٨٤ ــ الجزء الثالث

بها لآلىء بينها ثلاث كبيض الحمام عند قاعدة العرف .. وكان على الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبى صلى الله عليه وسلم . فهل يسع المقبل على تلك السدة غير التهيب ؟ أما اسماعيل فكان قد تعود ذلك ، وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة ، وكان مع ذلك فى شاغل من اعمال الفكرة فى حال الخلافة وما يخشاه عليها من التدهور .. وهو يعلم شدة انفعال الرشيد وتسرعه اذا غضب ..

فلما أطلّ من بين شطرى الستارة ، قال بأعلى صوته : «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. »

فتحرك الرشيد كأنه يتحفز للقيام اجلالا لاسماعيل ، وابتسم له وهو يقول : « وعليك السلام يا عماه .. مرحبا بك »

فدخل وأسرع فى خطواته ليمنع الخليفة من الوقوف له . أما الرشيد فنهض من مقعــده قليلا ، ومدّ يده وصافح اسماعيل ، وقال : « لقد أتيت أهلا يا عماه ، أمثلك يستأذن فى الدخول ؟ » ثم أومأ الى الوصفاء فقدموا له مقعدا وضعوه بجانب السرير ، وأشار الرشيد اليه بالجلوس وهو يبتسم ترحابا واستئناسا . فجلس وأثنى على ما قوبل به من الرعاية والحفاوة ، ودعا للرشيد.. ولبث ساكتا على عادة من يجالس الخلفاء فانهم لا يبدأون الخليفة بكلام . فاستحسن الرشيد تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال : « لقد أتيتنا لخير ان شاء الله ، فانك منقطع عنا منذ أيام ولا تأتينا

الا لنصيحة أو مهمة ، ونحن كل يوم نرجو لقاءك »

قال : « انى يا أمير المؤمنين أقيم فى البصرة ، وقلما آتى بغداد ، ولو علمت لدخولى على الخليفة نفعا لقضيت سحابة عمرى بين يديه . وأما الآن فقد أتيت ألتمس منه فضلا بالاضافة الى عطاياه المتوالية ونعمه السابغة .. »

قال : « قل ماشئت فانك صاحب الأمر معنا »

فأكبر اسماعيل تلك المجاملة وأحنى رأسه امتنانا ، وبداه ملمومتان فى حجره وقال : « ان الأمر لمولاى ، جعله الله له وحده لاينازعه فيه أحد . وهو ينعم بما يشاء من فضله ، فاذا سمح مولاى بكلمة فانى أستأذنه فى الخلوة »

فأومأ الرشيد فخرج الوصفاء والشاكريان وأقبل هو بكليته على اسماعيل ، وقد أبرقت عيناه اهتماما وتفرسا لعلمه ان اسماعيل لا يطلب الخلوة الا لأمر ذى بال

فنظر اسماعيل الى الرشيد ، وقال : « هل أتكلم ؟.. »

قال : « تكلم .. اطلب ما تشاء .. »

فقال : « لايخفى على مولاى ان جعفر ابن أخى الهادى من خيرة بنى أعمامنا »

فلما سمع الرشيد اسم جعفر أوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات لايروق له تنفيذها ، ولكنه أظهر اللطف وقال : « نعم انه ابن أخى ، فهل هو فى حاجة الى عطاء ؟ »

فقال : « كلا يامولاى .. لأن نِعَم أمير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى على سائر بنى هاشم ، ولكنه يود الزيادة فى شرفه »

فأدرك الرشيد بفراسته ان اسماعيل انما جاء خاطبا ، فتجاهل وقال : « ان قرابة الرسول أعظم أسباب الشرف له ولنا »

فقال : « نعم .. هو كذلك ، ولكنه يحب التقرب من عمه أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين »

فلم يبق عند الرشيد شك فى انه جاء يخطب ابنته لجعفر ، فابتدره قائلا : « كل ما تقترحه يا عماه ينفذ الا خطبة العالية.. »

فاستغرب اسماعيل تلك المفاجأة وقال : « وأنا لم آت لأطلب سواها .. فاذا كان ذلك ممتنعا فالأمر لأمير المؤمنين ، ونحن مطيعون لارادته تدعو له بطول البقاء .. على ان ما خوّلتنيه من الدالة يشجعنى على سؤال أرجو أن لايثقل على مولاى »

فقال : « قل .. فان لك رعاية وحقا »

قال : « لعل أمير المؤمنين لايرى ابن أخيه كفؤا لمولاتنا العالية .. فمَن يا ترى أكثر كفاءة لها من ابن عمها أخى أبيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل (يقصد المنصور) ؟ »

فقال الرشيد وهو يعبث بقضيب الخلافة بين أنامله : « أما الكفاءة فلا ينازعه أحد فيها كما ذكرت .. ولكن سبق السيف العزل .. فان العالية مخطوبة .. »

فاستبعد اسماعيل أن تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو

بخطبتها ، وظن أن الرشيد يقول ذلك ليبرر رفضــه ، فقال : « العالية مخطوبة ؟.. انى لا أعلم بذلك ، ولو علمت به ما أقدمت على طلبها ، ولم أكن أظن أن أحدا يمكن أن يظفر بذلك غير ابن عمها ..! »

فتحرك الرشيد فى مجلسه ، ونظره على البساط ، وقال وهو يحاول اخفاء ما كاد يظهر على وجهه من الانفعال : « نعم .. لكن وزيرنا جعفر طلبها لابراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنـا فلم نرد طلبه .. »

فلما سمع اسماعيل قوله أطرق وتشاغل ببلع ريقه وقد عظم عليه فشله . ولكن غضبه من نفوذ جعفر الى هذا الحد كان أعظم عليه من ذلك الفشل ، على أنه تماسك مخافة أن يظهر غضبه فيؤدى الى النقمة عليه ، وظل مطرقا والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو منه وهو يود الاكتفاء بما تقدم . فلما طال سكوت اسماعيل قال الرشيد : « انه يؤسفنى أن أرد طلبك لولا ما قلت لك من اتمام الخطبة ، وأنت تعلم ان الرجوع عن ذلك لا يليق .. فاطلب لابن أخينا منة أخرى »

— ٤٠ —

الفشل

فرفع اسماعيل بصره ، واغتنم رغبة الرشيد فى التعويض عن

رفضه لطلبه ، وقال : « صدق مولاى ، ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه ، وأنا أعلم ذلك لثقل ما أقاسيه من رجوعى بخفى حنين بعد أن وعدت ابن أخى بهذا الشرف وقد تسرعت فى وعدى ولكننى لم أفعل ذلك الا رغبة فى صيانة الدولة لما يعلمه مولاى من غيرتى على سلامتها .. »

فأدرك الرشيد ما يعرض به من الرغبة فى ارضاء ابن أخيه الهادى ليشغله عن طلب الخلافة أو الوقوف فى سبيلها . وقد تعود الرشيد أن يسمع من اسماعيل ما هو أكثر صراحة من ذلك مما لا يتجرأ سواه على بعضه ، ومع ذلك فان هذا التعريض أثار غضبه لأن الخلفاء العباسيين لم يكونوا يغضبون لشىء مثل غضبهم لما يشتم من رائحة التعرض للملك ولو تلميحا . ولكنه تمالك وكظم غيظه وتجاهل وقال : « انك مشهور بغيرتك على دولتنا وهى انما تتأيد بآراء أمثالك من شيوخ الحكمة وأرباب الرأى السديد وهم قليلون . وأما ابن أخى فانه من لحمى ودمى وأحب له ما يرضيه ، فهل من شىء تطلبه له غير خطبة العالية ؟ »

فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين .. انى أراه يبالغ فى مجاملتى ، ولكن يسرنى أن يعلم الغاية التى أقصدها .. فأرجو منه أن يسند الى ابن أخيه عملا يشغله .. ونظرا لقرابته من الخليفة ، فأطلب له ولاية مصر أو خراسان .. »

فوجم الرشيد عند سماعه ذلك وبدت البغتة فى عينيه وهز

رأسه استغرابا لذلك الاتفاق وقال : « وهذا لا سبيل اليه ياعماه فانى وعدت وزيرى فى صبـاح الأمس بولاية مصر لابراهيـم المذكور ، وأما خراسان فقد وعدته بها لنفسه منذ أيام وقدكتمت ذلك ، ولم أخبر به أحدا ، ولولا انك اسماعيل ما صرحت لك به .. »

فضاق اسماعيل ذرعا من توالى الفشل على هـذه الصورة ، وعاد الى الاطراق واعمـال الفكرة ، ولم ير بدا من التصريح بغرضه من تلك الاقتراحات .. فعاد الى ما فطر عليه من حرية القول ونسى موقفه وما يعلمه من سوء العاقبة اذا غضب الرشيد فقال : « فليأذن لى أمير المؤمنين فى أن أبوح له بما فى ضميرى ، فأخاطبه باعتبار انه هرون بن محمد ، وأنا ابن عمه اسماعيل بن يحيى .. » وتنحنح واعتدل فى جلسته والرشيد يتجلد لسماع قوله ، وهو يكاد يتلقفه بعينيه من شدة التنفس

فقال : « أنت تعلم غيرتى على سلامة هذه الدولة وشـدة محافظتى على بقاء هذا الخاتم بيد هرون ، وهذه البردة على كتفيه ، وتعلم أيضا ما قد يجول فى خاطر ابن أخيك .. وأنا أعلم عجزه عن الظفر به ، ولكن المصلحة وحسن السياسة يقضيان علينا بتلافى أسباب الفتن ، لئلا يرى أعداؤنا ضعفا فينا فيغتـالونا ، وهم كثيرون ، يكفى منهم الروم فى القسطنطينيـة ، والأمويون فى الأندلس.. وأنا أومن بعجزهم عن الفوز ، ولكن الحكمة تستدعى

التكاتف وجمع الكلمة . وهذا سهل على الرشــيد اذا استخدم ذكاءه ودهاءه فيشغل أهل المطامع من أهله بخدمة دولته بدلا من أن يتفرغوا لاقلاق راحته .. »

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفا من استرساله فى الحديث حتى يصرح بأكثر من ذلك ، فيغلب الغضب عليه ولا يقوى على التماسك فقال : « قد كان بودنا أن نولى ابن أخينا مصر ، لولا ما قدمته من الوعد بها لابراهيم .. فهل ترى لى حيلة أخرى ؟ »

فأسرع اسماعيــل بالجواب قائلا ، وقد غلبت عليه الانفــة والاستقلال بالرأى : « لى حيلة واحدة .. »

قال : « وما هى ؟ »

فقال وكفاه على ركبتيه كأنه يتحفز للقيام : « تبايع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الأمين والمأمون) .. افعل ذلك ولو على سبيل الرضاء .. »

فلما سمع الرشيــد قوله ألقى القضيب من يده على السرير ونهض بغتة ونزل الى البساط بسرعة حتى انحرفت البردة عن كتفيه وكادت تسقط ، وقد نسى موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ، ثم أصلح البردة وجعل يخطر فى الايوان .. فنهض اسماعيل وقد أدرك أن بقاءه هناك أصبح خطرا ولا فائدة منه ، وأجّل التصريح عما فى نفسه لفرصة أخرى . فتراجع من موقفه وقد رأى بنهوض الخليفة مسوغا لخروجه من حضرته لأن ذلك من علامات الاذن

بالانصراف عند الخلفاء ، ولكنه لم يشأ الخروج على تلك الصورة لئلا يسيء الرشيد الظن به فقال : « أظن ان أمير المؤمنين قد ندم على ما سمح لى من اطلاق لسانى بين يديه ، وأظننى قد تطاولت فى الدالة عليه الى أبعد مما ينبغى فتدخلت فيما لايعنينى .. فأعتذر له عن جسارتى .. »

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على حائط الايوان ، فلما سمع قوله تحول اليه وتكلف ابتسامة لم تخف غضبه ، وقال : « ان اسماعيل عندنا فى المقام الذى تعلمه ، وله فضل النصح والمشورة على الدولة ، فلا يزعجك ما رأيته من وقوفى فجأة . واذا غضبت فان غضبى لك لا منك ، وكيف أغضب من شيخ بنى هاشم وحكيم بنى العباس؟ ولكن ساءنى انك لم تطلب أمرا ممكنا لكى أجيبك اليه حالا ، مع رغبتى فى رعايتك واكرامك .. »

فأدرك اسماعيل من خلال قوله ما كان يحاول اخفاءه من الغضب ، وما يتكلفه من التلطف فى الجواب ، فقال : « أشكر لمولاى تفضله وحسن قصده ، والظاهر ان سوء طالع ذلك الرجل قد أوجب هذا الاتفاق .. اذ لكل وقت طالع وكأن طالع هذه الساعة لا يوافق حظه .. فهل يأذن مولاى بانصرافى الآن وتؤجل ذلك الى ساعة خير من هذه ؟ »

فسر الرشيد لطلبه الانصراف فى تلك الحال وقال : « لابأس

من انصرافك يا عماه »

فرجع اسماعيل وهو منحن يمشي القهقرى بين يديه على جارى العادة فى الخروج من مجالس الخلفاء حتى وصل الى الستارة ، وخرج والرشيد واقف ينظر اليه ، وقد احتدم فى نفسه من الغضب ما أقلقه وحبب اليه الخلوة بنفسه

— ٤١ —

عبد الملك بن صالح

أما اسماعيل فخرج توا الى جواده ، وقد ندم على مجيئه .. فركب ومشى الغلامان فى ركابه ، وهما غافلان عما يتقد فى قلبه من الغضب وما يتردد فى ذهنه من الأسف على حال تلك الدولة بما يعلمه من تضارب الأحزاب واختلاف الأغراض . فوصل الى قصره والشمس قد تكبدت السماء ، فوجد ابن الهادى فى انتظاره . واستفهم منه عما جرى ، فقصّ عليه بعض الخبر وأبلغه عذر الرشيد فى امتناعه عن زواجه بالعالية ، وبالغ فى الاعتذار عنه لئلا يثير غضبه .. ولم يخبره بطلب ولاية مصر ، ولا ولاية العهد الى أن قال : « وانى آسف لما اتفق لى من الفشل ، والرشيد أكثر أسفا منى على ذلك ، ولكن لا حيلة لنا فى الواقع فاصبر وكن عاقلا ، وسنغتنم وقتا غير هذا للتحدث فى هذا الأمر ، فان الرشيد

حسن الظن بك .. »

فلم يَخْفَ على جعفر غرض اسماعيل من تلطيف الخبر، ولكنه سايره وقال : « انى مذعن لأمرك .. ولكن هل تعلم السبب الذى بعث على خطبة العالية لابراهيم ؟ »

قال : « كلا .. ولكن للوزير دالة على الخليفة ، ولعبد الملك دالة على الوزير ، فيبدو انه طلب منه أن يتوسط له بخطبتها عند أمير المؤمنين وهو ابن عمها وكفء لها فأجاب طلبه »

قال : « لو كان الأمر كذلك لهان ، ولكننى أقص عليك السبب ليثبت لديك ما قلته عن استخفاف هؤلاء الموالى بالخليفة وأهله . أخبرنى جاسوس لى عند جعفر فى صباح هذا اليوم ان هذا الوزير كان فى مجلس أنس خلا فيه بندمائه ، فلبس الحرير وتضمخ بالطيب .. وكذلك فعل سائر جلسائه ، وأمر حاجبه أن يحجب عنه الجميع الا عبد الملك بن بحران قهرمانه .. فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بحران . وكان عبد الملك بن صالح ابن‌عمنا يترقب فرصة يخاطب فيها الوزير فى بعض حاجاته ، فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك بالباب ، فظنه ابن بحران فأمر بادخاله فدخل وهو فى سواده وقلنسوته فرأى القوم فى ملابس المنادمة . ولما رآه جعفر اربد وجهه ، وأنت تعلم ان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب

المنادمة ودخل وسلم وقال : « اشركونا فى أمركم وافعلوا بنا مثل ما تفعلون بأنفسكم » فجاء الخادم وألبسه ثياب المنادمة ، وأحضر الطعام فأكل ، وبنبيذ فأتوه برطل فشربه ، ثم قال لجعفر : « والله ما شربته قبل اليوم » . فزاده جعفر من النبيذ وأتوه بالطيب فتضمخ ، ونادم القوم أحسن منادمة فذهب عن جعفر خجله . فلما أراد عبد الملك الانصراف قال له جعفر : « اذكر حاجاتك فانى لا أستطيع أن أكافئك على ما كان منك» . فقال : « ان فى قلب أميرالمؤمنين موجدة علىّ فتخرجها من قلبه وتعيد الىّ جميل رأيه فىّ » . فقال : «قد رضى عنك أميرالمؤمنين وزال ماعنده منك». فقال : «وعلىّ أربعةآلاف درهم دينا» قال : «تقضى عنك ، وانها لحاضرة ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على أحسن ماعنده لك » . قال : « وابراهيم ابنى أحب أن أرفع قدره بنسب ينتمى الى الخلافة» . قال : « قد زوجه أميرالمؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » (١)

«فانظر الى هذه الجرأة التى ليس أغرب منها الا رضاء الرشيد بها ، وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبيذ ونحن نلوم ابن عمنا الأمين مع صغر سنه على شربه ونعده خليعا ، وهذه هى الخلاعة ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان

---

(١) ابن خلكان ١٠٥ ــ الجزء الاول

الرشيد أطاع جعفر ، ولم يفكر فيما يترتب على ذلك من ضعف الملك »

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادى وهو يكاد يتميز غيظا ، ولكنه اختصر فى الجواب وأظهر الاستخفاف بالقصة وقال : « هكذا أبلغك الجاسوس ولا يخلو قوله من مغالاة .. ومع ذلك فليس هذا بالأمر الهام ، وانني أرجو أن تكتم ما دار بيننا وتصبر لنرى ماذا يكون »

فسكت جعفر عن احترام ، لا عن اقتناع ، فقال اسماعيل : « فاذهب الى البصرة وسألحق بك بعد يومين »

فقال : « سمعا وطاعة » فودعه وأظهر انه يتأهب للسفر ، وانشغل اسماعيل عنه ، فاختفى يوما ثم أتى الى الفضل بن الربيع فى منزله .. وكان الفضل لايزال يفكر فى أسلوب يبلغ الرشيد به خبر العلوى ، وقد عاد محمد الأمين وأخبره بحديث والدته أم جعفر وما دار بينها وبينه من خبر العلوى وما فى نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك ، فلما جاءه ابن الهادى رحب به فأخبره بما سمعه عن أمر عبد الملك بن صالح وزواج العالية ، وما يدل عليه ذلك من ضعف الخليفة واستبداد البرامكة وحرّضه على ابلاغ خبر العلوى الى الرشيد

فقال له الفضل : « قد أعددت كل شيء .. »

قال : « وهل اخترت من يقوم بذلك ؟ »

فقال : « ليس لنا الا أبو العتاهية ، فانك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة »

قال وقد تذكر أمرا قد نسيه : « وهل عاد من اقتصاص أثر الطفلين ؟ »

فقال : « عاد وقد قبض عليهما وحبسهما فى مكان أمين لوقت الحاجة »

فأبرقت أسارير جعفر وقال : « لقد قتل البرمكى لا محالة .. والآن دبّر ما تراه لابلاغ الخبر الى الرشيد ، فانى منصرف من بغداد لأن عمى اسماعيل ألح علىّ فى الانصراف وأنا واثق انك كفء لانجاز العمل .. »

قال : « كن مطمئنا » ..

فودعه ورجع وهو يتوهم انه أغرى الفضل واستخدمه فى مصلحته ، والفضل يعتقد انه استخدم ابن الهادى لغرضه ، لأنه اذا سقط البرامكة عادت الوزارة اليه .. ولم يخف عليه ما فى نفس ابن الهادى على الرشيد وانه انما يسعى فى مصلحة نفسه لارجاع الخلافة اليه ، ولذلك كان يوهمه انه يسعى فى مساعدته على نيل الخلافة على حين انه كان يعمل على ارجاع الوزارة له .. ولا يهمه أكانت وزارته للرشيد أو لسواه . فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعى متضاربة ، ولكن الغرض متفق فيها

كلها وهو اسقاط البرامكة بأية وسيلة كانت . واذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه

– ٤٢ –

المناجاة

فلندع الفضل فى مساعيه .. ولنعد الى الرشيد ، فقد تركناه فى الايوان وحده ، فلما خلا بنفسه ساءه خروج اسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلال قدره ، فأخذ يفكر فيما دار بينهما ، ويردد ما قاله له ، فلم يجد فى امكانه أن يفعل غير ما فعله . فجعل يخطر فى الايوان جيئة وذهابا ، وقد ذهب عنه الغضب وتراكمت عليه الهواجس ، فتذكر حاله مع وزيره ، وما بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى أصبح أكثر وجاهة ونفوذا من أبناء عمه ، ثم عاد الى صوابه ، فرأى انه مضطر لذلك ببواعث كثيرة ، لأن الوزير قابض على مصالح الدولة يدير شئونها ويتصرف فى أعمالها بحكمة ودراية . وقد أراحه من مشاغلها وخفف عنه أثقالها ، فضلا عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لأبيه يحيى من الفضل عليه ، وهو الذى أقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمه من ميله الى الشيعة العلوية ، وما يراه من كثرة الطاعنين عليه ، ولكنه

كان يحمل طعنهم عليه محمل الحسد منه

وبينما هو يمشي فى الغرفة ويفكر على هذه الصورة اذ لاحت منه التفاتة الى السرير فرأى القضيب الذى كان قد وضعه هناك فتقدم ليتناوله ويتشاغل به فى أثناء هواجسه ، فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فاذا فيها الأبيات التى قرأتها أم جعفر زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها .. فلما بلغ الى قوله :

ونحن نخشى انه وارث ملـكك ان غيبك اللحد
ولن يباهى العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد

توارد الدم الى رأسه ، وحمى غضبه ، فأعاد النظر الى البطاقة فقرأها ثانية وهو يعمل الفكرة ، وقد نسى البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها على ذهنه ، فعاد الى التفكير فى جعفر ، وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخليفة ويولى الأمصار لمن يشاء ، ويهب الأموال بلا مشورة ، لا يخشى بأسا ، ولا يخاف اعتراضا ، فقال فى نفسه : « لقد آن لك ياهرون أن تستيقظ من نومك وتنظر فى أمر هذا المولى وما بلغ من تطاوله ، فانه لا يلبث أن يمد يده الى أعظم من ذلك ، والعياذ بالله ! » ثم وثب من موقفه والقضيب مشهر بيده كأنه يهاجم عدوا وهو يقول :

ان سهامنا اذا وقعت بقدر ما تعلو بها رتبه

واذا بدت للنمــل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه (١)

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيــه من النعيم والأبهة ، وتصور انه اذا مات أفضى الأمر الى جعفر لأنه لا يجهل ضعف إبنه الأمين ، ويعرف قوة المأمون وهو ابنه أيضا ، ولكن يميل الى الفرس لأنه ربى فى حجر جعفر وشبَّ على حب الشيعة ، فاذا أفضى اليــه الأمر وجعفر حى خرجت الخلافة من بنى العباس . فندم على تسليم المأمون الى جعفر واهمــال الأمر الذى كان ينبغى أن ينظر فيه قبل كل شىء .. وهو بقاء الدولة لبنى العباس. ثم تذكر كيف حرَّضه جعفر على المبايعة للمأمون ، ولم يكف عنه حتى أطاعه ، فتوهَّم ان ذلك انما فعله لينقل الخلافة الى الشيعة بعد ذهابها من يد الأمين .. فصرّ على أسنانه ندما ثم عض أنملته وهز رأسه وقال :

لقد بان لى وجه الرأى لى غير اننى
عدلت عن الأمر الــذى كان أحزما
فكيف يرد الدر فى الضرع بعــد ما
توزع حتى صــــار نهبــا مقســما
أخاف التــواء الأمر بعــد استوائه
وان ينقض الحبل الذي كان أبرما

وعاد فرجع الى رشده وأعمل فكرته فى حقيقة الواقع ، فغلب

---

(١) المسعودى ٢٠٨ ــ الجزء الثانى

عليه الخوف من جعفر .. لما يعلمه من كثرة مريديه وأنصاره وفيهم جماعة كبيرة من خيرة رجال الدولة ، حتى بنى هاشم ممن غمرهم بعطاياه وأسَرَهم بأفضاله .. فكانت هذه الهواجس تتردد فى مخيلته وهو يمشى فى الايوان ، ويداه وراء ظهره . واتفق وهو فى ذلك أن وقف أمام الستار ، فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب هذا نصهما :

وإياك والأمر الذى ان توسعت
مواردہ ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه
وليس له من سائر الناس عاذر

فلما قرأهما أمسك نفسه وعاد الى صوابه ، ونظر الى البطاقة التى فى يده وقال : « لعل الذى كتب هذه الأبيات من حساد جعفر وهم كثيرون ، وانى على أى حال صابر له ، أترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة »

– ٤٣ –

باب الرشيد

قضى فى تلك الخواطر وأمثالها حينا وهو يقف تارة ، ويمشى أخرى ، وعليه تلك الملابس الفخمة ، واذا بالحاجب يدخل وهو

يقول : « ان الشعراء والندماء بباب العامة منـذ الصباح لأنه يوم الجلوس لهم .. فهل يأمر أمير المؤمنين ببقائهم أو بصرفهم ؟ »

فلما سمع الرشيد قوله انتبه لنفسه كأنه هب من النوم ، وتحير فى أمره لأنه فى حال لايروق له معها مجالسة الندماء والشعراء ، وانما يفضل الخلوة ، ولكنه استنكف أن يشعر أحـد بقلقه اذا صرف الشعراء فقال : « مَن بالباب من هؤلاء ؟ »

قال : « هم كثيرون وفيهم المقيمون فى بغداد من أهل الرواتب المعينة والأرزاق الجارية ، وفيهم الوافدون للاستجداء من أطراف البلاد »

فقال : « أما الوافدون فنأذن لهم فى وقت آخر ، اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال أن يسخو لهم فى العطاء ويطيّب خواطرهم .. ومن بالباب من أهل الرواتب ؟ »

قال : «فيهم من العلماء الأصمعى ، والكسائى ، وأبوعبيدة» فقطع كلامه وأشار اليه بيده ولسان حاله يقول : « دعنى من العلماء واذكر غيرهم »

فقال : « أما الشعراء فمنهم الحسن بن هانىء (أبو نواس) وأبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة .. وأما .. »

فأشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لأنه كان يستطيب شعره لما فيه من الطعن على العلويين ، ولكنه لم يجد فى نفسه ميلا لسماع الشعر أو الأدب ، وأدرك أنه لايجلو ما فى خاطره

غير الغناء فقال : « دع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلون الى قاعة الشراب فى هذا القصر ، وأخبرنى هل ببابنا أحد من الندماء والمغنين ؟ »

فقال : « أما المغنــون فرأيت منهم بعض أصــحاب مولانا ابراهيم بن المهدى أخى أمير المؤمنين ، الذين هم على طريقته فى الغناء ، كابن جامع ، وابن نابه ، وابن أبى العوراء ، ويحيى الملكى ، ورأيت بعض أصحاب اسحق الموصلى المعجبين بطريقته وسمعتهم يتقارعون فى أى الطريقتين أفضل .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال : « دعنا من هذه الطبقــات فانى لا أرى الاجتماع للمناظرة فى طرق الغناء اليوم .. فادع برصوما الزامر ، وأبا زكار الربابائى الأعمى ، وحسينا الخليع . وأما الغناء فأحب سماعه من قيان القصر .. » ثم أطرق وقال : « ولكن ذلك لايحلو الا بوجود ابراهيم الموصلى .. ادع لى مسرورا الخادم »

فأشار مطيعا وخرج .. ثم أتى مسرور بسيفه وفظاظته وحيّا ، فقال له الرشيد : « الّى بابراهيم المغنى على عجل .. »

فظل مسرور واقفا .. فعلم الرشيد انه يريد أن يتكلم ؛ فقال : « ما بالك لا تذهب ؟ »

قال : « لا أدرى أين أجد ابراهيم الآن ، وأمير المؤمنين قد أذن له أن يختلى بأهله يوما فى الاسبوع لا يطلبه فيه .. وهذا هو اليوم »

فقال : « احضره حيثما كان ولا تراجعني .. »

فلم يسعه الا الطاعة فخرج . وصفق الرشيد فجاءه أحد الغلمان فقال : « ائتى بصاحب الملبس » وهو الذى يلبس الخليفة ثيابه فأتى .. فقال له : « انى عازم على مجلس منادمة فألبسنى ثيابها » فخرج ثم عاد ومعه عدد وصفاء يحملون تلك الثياب ، وهى غلالة وشى منسوجة بالذهب ، وعمامة صغيرة موشاة ، وأزرار رشيدى عريض العلم مضرج .. تلك كانت ملابسه الصيفية فى مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون فى أيديهم المباخر فيها العود والند . وفى أيدى آخرين جامات الطيب . فبدأ صاحب الملابس بنزع ما على العمامة من الحلى حتى حل العمامة وأخذ البردة والجبة ، ثم ألبسه الغلالة وعممه وناوله الازار فاتشح به . فلما فرغ من لبسه خرج من باب فى الايوان يؤدى الى دار النساء وما زال ينتقل من رواق الى آخر . ومن دار الى أخرى حتى دخل دارا مفروشة الصحن بالرخام والحيطان موشاة بالوشى المنسوج بالذهب . ومنها الى قاعة أرضها وحيطانها مرصعة بالوشى المذكور ، وقد نصبوا له هناك سريرا من الصندل وأرخوا فى منتصف الغرفة ستارة من ذلك الوشى المطرز عليها نقوش جميلة ، وحول أرض الغرفة الوسائد من الوشى المطرز وليس عليها أحد ، لأن الشعراء يجلسون فى القسم الآخر من الغرفة وبينه وبينهم الستار

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه تذكر انه جائع ولم يتناول الطعام منذ الصباح ، فأمر صاحب الطعام بأن يأتيه ببعض الأطعمة المستعجلة . فنصبوا له سماطا وأتوه أولا بالمرق من السكباج تنشيطا لجسمه ، ثم جاءوا بالبقول المطبوخ . ثم الدجاج فالشواء من الحمام أو الدراج ؛ فأنواع السمك . وبعض ما يطبخ بالنوابل من اللحم والبقول . ثم قدموا له رقاقا من السنبوسج المحشية باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل . ثم الحلوى من الفالوذج واللوزينج . وأخيرا النقل للتعلل بعد الطعام . وكان يأكل وخاطره قلق حتى اذا فرغ من الطعام سمع عودا يضرب ضربا مطربا على نغم لم يسمعه من قبل

فأصاخ بسمعه فأطربه ذلك الصوت ؛ وعلم انه آت من الرواق وبينه وبين ذلك المكان ستارا ؛ فشعر بذهاب الانقباض عن صدره شيئا فشيئا ، وهو يعجب لذلك النغم الغريب . وقد أدرك من نعومته انه صوت جارية فصاح : « من يغنينا فى الرواق ؟.. جزاه الله خيرا »

فسمع الجواب من وراء الستار : « هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها » فعلم الرشيد ان الذى يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه : « قبحك الله .. وأى قرنفلة ؟ »

فقال : « هى جارية أرسلها مولانا ولى العهد هدية لأمير المؤمنين فى هذا الصباح . غنى ياقرنفلة ، ان الخليفة طرب لصوتك

فيا لسعادتك .. ويالينني كنت مكانك فيغنيني ذلك عن اللطم والصفع على الأقل »

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك . وضحك سائر السامعين الا حسينا المذكور فانه استأنف الكلام قائلا : « هــذا هو حظى بتقربى من الخلفاء ، أنا أبكى وهم يضحكون .. فعسى أن يسعدنى الحظ وأصير قرنفلة أو وردة يشمنى الناس ويسمعون صوتى أو يرفقون بجلدى .. ولكننى أخاف ــ لادبار سعدى ــ أن يجاب دعائى ويقع الالتباس فى طلبتى فيجعلنى القضاء بطيخة أو سكباجة فيأكلنى الناس ويتمتعون بى وأصير أنا الى ظلمـــة الأحشاء وبئس الظلمة . غنى يا قرنفلة غنى .. أطلب من الله أن يبقينى على ما أنا عليه .. وقد قيل : نحس تعرفه ، ولا ســعد تتعرف به .. »

فأغرق الرشيد فى الضحك ، ولم يبق أحد هناك الا قهقه ؛ ثم سكتوا جميعا ينتظرون ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده أحد من الندماء أو الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب، فلم يكن يرى وجهه فى ذلك المجلس الا الغلمان والوصيفات الواقفات فى خدمته أو الترويح له . وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجسا مما كان فيه ذلك الصباح ثم قال : « قد علمت ان هذه القينة جــديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من فى هذا القصر من القيان .. قبح الله ابراهيم الموصلى .. أين هو ؟ »

فقال الحاجب : « قد ذهب مسرور فى أثره ولم يأت بعد »
فقال : « انصبوا الستارة لهذه المغنية وضموا اليها أحسن من فى قصرنا من القيان ممن أتقن الصناعة على يد ابراهيم .. وأحضروا الشراب .. »

- ٤٤ -

مجلس المنادمة

فسُر السامعون بتلك الأوامر لما سيشنف آذانهم من معجزات الطرب . وكان فى قصر الرشيد ثلثمائة قينة فيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها (١) .. من المتقنات للضرب على آلات الطرب ، وان تفاوتن فى المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصنعة . غير ألفى جارية لا يحسن الغناء وهن السرارى . فأسرع الغلمان لتدبير ذلك .. وكان المنوط بالسرارى والقيان مسرور الخادم وهو غائب فناب عنه قيّم الجوارى . ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج اليه من الأباريق والأقداح من البلور والذهب والفضة ، وعليها النقوش على نحو ما وصفناه فى مصطبة الأمين . وأما الأشربة التى تعاطوها فى ذلك المجلس فأنواع.. الأنبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر

(١) أعلام الناس ١١٣.

أو التفاح أو المشمش أو غيرها من الفاكهة اللذيذة ، وأشربة من محلول العسل أو الدبس أو غيرهما . فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقى بأباريق الشراب على الرشيد ، فشرب قليـلا وهو محجوب عن القيان بستارة ، وعن الشعراء بستارة أخرى ، ومع القيان برصوما ، وأبو زكار . وكان كلما غنت احداهن صوتا عرفها وطرب لها وناداها باسمها . ثم صاح بالحاجب فأتى ، فقال له : « قل للحسن بن هانىء أن ينشد ما عنده »

فبلغه أمر الرشيد فقال أبياتا كان قد هيأها فأنشدها انشادا على عادة الشعراء فى مجالس الخلفاء ، فطرب الرشيد وصاح : « وأنت يا ابن أبى حفصة ؟ »

فقال : « لبيك يا أمير المؤمنين » وأخذ ينشد قصيدة نظمها فى مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلويين ، ذكرته بما كاد ينساه من هواجسه فصاح فيه : « دع عنك هـذا الآن .. قل لأبى العتاهية هل هو باق على الزهد فى الشعر ؟ »

فأجاب أبو العتاهية : « ان ما نسـمعه يا أمير المؤمنين من أسباب الطرب يرمى الزهد بالمنجنيق »

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول : « هـذا هو الشعر بعينه .. فقل بيتا أو بيتين »

قال : « سمعا وطاعة .. وسأتلو ما يحضرنى بعد قليل لأنى تركت النظم من زمن طويل »

وبينما هم فى ذلك اذ دخل مسرور ، فلما رآه صاح فيه : « ويلك .. أين ابراهيم ؟ »

قال : « هو بالباب يا مولاى .. لقد أتيت به من أقاصى الأرض .. »

قال : « ادخله التى ليكون قريبا من هؤلاء القيان يعلمهن أو يساعدهن »

فدخل ابراهيم وسلم فأمر له الرشيد بالجلوس ، وقال له : « نظننا قد أزعجناك لدعوتنا اياك على غير انتظار .. ولكننا آثرنا لذتنا على راحتك .. فاعذرنا »

فخجل ابراهيم لهذه المجاملة وقال : « نحن عبيد أمير المؤمنين واذا دعانا الى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال : « اسمع الغناء الجديد .. » والتفت الى صاحبة ستارة القيان وقال : « ان ابراهيم أستاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد »

فصاحت الجارية : « غن يا قرنفلة .. »

فلما سمع الموصلى اسمها ابتسم وقال : « قرنفلة هنا ، ان هذه المغنية نادرة فى رخامة الصوت واتقان الصنعة ، وطالما كنت أتمنى دخولها فى جملة قيان القصر .. وهى من جملة الجوارى البيض اللواتى تعلمن الغناء على يدى ومن أكثرهن براعة واتقانا »

قال الرشيد : « ان ولدنا محمدا أهداها الينا فى هذا اليوم

ولم أر وجهها بعد ...»

قال : « ووجهها جميل يا مولاى ! »

فصاح حسين الخليع من وراء الستار : « نحمد الله لأن أستاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال »

فضحك الرشيد وأمر الساقى فصب له قدحا ولابراهيم قدحا وقال : « ان حسينا خفيف الروح .. اشرب هذا القدح يا ابراهيم »

فصاح حسين الخليع من الداخل : « جزى الله أمير المؤمنين خيرا لأنه أنصف بينى وبين مغنّيه ، فأعطانى خفة الروح وأعطاه القدح ، كأن خفاف الروح لايشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا»

فضحك الرشيد وقال لابراهيم بصوت منخفض : « قبحه الله رمى حجرا فأصاب اثنين .. فقد جعلنى من الثقلاء وهو لايدرى »

فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال : « أستميح عذر أمير المؤمنين ، فان منع الشراب عنى قد أسكرنى فخلطت .. ورميت القول جزافا .. ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ، ولذلك فلا أظن كلامى قد تجاوز ابراهيم خطوة واحدة .. »

فضحك ابراهيم وقال : « كن مطمئنا يا حسين فانى قد حبسته عندى فاكفف عنى »

— ٤٥ —

تغير الحــال

ثم قال الرشيد : « نسمع يا قرنفلة .. »

فأخذت تضرب على العود وحدها وتغنى والرشيد يبالغ فى استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها ، وفيهن من كانت لها حظوة كبرى عند الرشيد .. فسمع الخليفة لغطا وراء الستار أعقبه ضحك فقال : « وعلى أى شىء يضحكن ؟ »

قالت صاحبة الستارة : « ضياء (احدى القيان) تقول ان أمير المؤمنين معجب بقرنفلة وهى لا تحسن الا صوتا أو صوتين تعودتهما ، فاذا أمر أحد الشعراء بنظم بيتين تغنيهما ارتجالا اتضحت الحقيقة »

فصاح الرشيد : « أحسنت ، أحسنت .. هات يا أبا العتاهية بيتا أو بيتين مما نظمته الآن »

قال : « لبيك يا أمير المؤمنين .. هل أقولُ وعلىّ الأمان مما ربما كان ؟ »

فاستغربوا سؤاله ، ولا سيما الرشيد .. ولكنه ظن انه يقول ذلك من قبيل المجون خوفا من القيان فقال : « عليك الأمان »

قال : « وتجيزنى يا أمير المؤمنين غير اجازة سائر الشعراء ..

لأنى لم أقل الشعر من زمن بعيد ؟ »

فازداد الرشيد استغرابا لهذه الشروط ، ولكنه ما زال يحسبه مازحا فقال : « ونجيزك »

قال : « وتسمح لى أن أرى وجهك على حدة ؟ »

فضجر الرشيد من كثرة الشروط ، ولكنه تحمله وقال : « ولك ذلك أيضا .. قل ! »

فقال : « لا تعجب يامولاى من دالتى وجرأتى فقد قيل :

ولن يباهى العبد أربابه   الا اذا ما بطر العبد »

فلما سمع الحضور هذا البيت ، ظنوه يشير الى جرأته فى شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . وأما الرشيد فحالما سمع قوله تذكر أنه قرأه منذ ساعة فى تلك البطاقة ، فانقبضت نفسه ، وأدرك أن أبا العتاهية لم يقدم على ذلك الا وفى نفسه شىء يريد أن يفضى به اليه ، وخاصة بعد أن اشترط أن يرى وجهه — كناية عن مقابلته — فتغير الرشيد .. ونسى ما كان فيه من الطرب وأصبح همه الاطلاع على سر تلك البطاقة ، فنهض للحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئا مما فى خاطره لأنهم كانوا لايعلمون شيئا من أمر تلك القصيدة . ثم صفق فجاء مسرور ، فأسر اليه أن يجيز الشعراء والقيان وأن يأتيه بأبى العتاهية وحده ، وأحس الموصلى بوجوب الانصراف فاستأذن فى الخروج .. وخرج سائر من كان فى المجلس

وتحولت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار . أما مسرور فعاد ومعه أبو العتاهية ، وقد قبَضَ على عنقه لاعتقاده انه السبب الوحيد فى انقلاب سرورهم الى كدر ، ولم يكن يشك فى أن الرشيد سيأمر بقطع رأسه

أما أبو العتاهية فانه أقدم على ذلك الخطر طمعا فى مبلغ كبير من المال وعده به الفضل بن الربيع ، ومع جبنه وضعفه فقد غلب الطمع عليه حتى حمله على تلك المخاطرة فدبّر هذه الوسيلة ؛ وكان مطلعا على تلك القصيدة . ولا يبعد أن يكون هو ناظمها لأم جعفر، وقد علم ان أم جعفر بعثت بها باكرا ؛ وانها وضِعَت على سرير الخليفة فى دار الخاصة ؛ ولا بد من أن يكون الرشيد قد رآها وقرأها ؛ فالاشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فاذا استزاده قص عليه خبر اطلاق العلوى . على انه لم يشعر بمقدار الخطر الذى عرّض نفسه له الا حينما رأى انقلاب ذلك المجلس من الغناء والضوضاء الى الانقباض والسكوت ، فخفق قلبه وخاف على حياته وخاصة بعد أن قبض مسرور على عنقه وجاء به الى ما بين يدى الرشيد ، فانه دخل تلك الغرفة وقد انحرفت عمامته وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فحالما وقع نظره على الرشيد ترامى على قدميه وأخذ فى تقبيلهما وغلب عليه البكاء ،فتحقق مسرور عند ذلك انه مذنب ولا يلبث أن يسمع أمر الخليفة بقتله ، فوقف ويداه

على قبضة الحسام ؛ وعيناه على شفتى الرشيد ..

أما الرشيد فلما رأى ما استولى على أبى العتاهية من الرعب وما أظهره من التذلل والاستعطاف ، بعد أن أعطى الأمان ، أشفق عليه وقال : « لا بأس عليك يا أبا العتاهية .. انك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء .. قم ولا تخف .. »

فلما سمع تلك العبارة ؛ وقف وهو مطرق لايرفع بصره عن الأرض والرعدة لاتزال ظاهرة فى ركبتيه ويديه ؛ وظل ساكتا خائفا حتى سمع الرشيد يأمر مسرورا بالخروج . فرمقه بطرف عينيه .. فلما تحقق من خروجه ؛ اطمأن خاطره ورفع بصره الى الرشيد بخشوع

— ٤٦ —

السر

فاتكأ الرشيد على السرير ، وأومأ اليه أن يجلس .. فجلس جاثيا على البساط والدموع لاتزال فى عينيه فقال له : « لاتخف يا أبا العتاهية انك فى أمان »

فأجاب وصوته مختنق : « هل أنا آمن يا أمير المؤمنين ؟ »

قال : « أنت آمن اذا صدقتنى »

قال : « آمن منك ومن وزيرك ؟ ! »

قال : « لا تكثر من الأسئلة .. اذا أمنك أمير المؤمنين فلا خوف عليك .. »

فتنفس الصعداء حتى هدأ روعه ، ثم قال : « وسيعلم مولاى انى انما ركبتَ هذا المركب الخشن فى سبيل خدمته ».

قال وقد مل الانتظار : « قل لى من أين عرفت هذا الشعر ، ومن الذى أطلعك عليه ؟ »

فقال : « لم يطلعنى عليه أحد .. »

قال : « وكيف عرفته ؟.. لعله من نظمك ؟ »

فقال : « نعم .. »

قال : « وما الذى حملك على نظمه ؟ »

فقال : « حملنى على ذلك أمر عرفته وعلمت أن ليس بين رجال بطانتك من يجرؤ على أن يطلعك عليه ، فلجأت الى هذه الحيلة فى ابلاغه اليك ، فأرجو أن لا أكون قد أسأت الى نفسى والى أهلى »

قال : « لا بأس عليك .. وما هو ذلك الأمر ؟.. وما صلة وزيرنا به ؟ »

فقال : « انه يتعلق به وحده ياسيدى ، وسأقصه عليك ، فاذا تحققت من وقوعه فأنا آمن ، والا فدمى مسفوك »

قال : « اقصص الخبر ولا تخف .. »

فقص عليه حكاية العلوى ونجاته على يد جعفر الى آخر الحديث ..

وكان أبو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف وينقطع ، والرشيد مصغ بكل جوارحه وجأشه رابط .. فلما أتى على آخر حديثه سأله : « هل أنت واثق من صدق هذه الرواية ؟ »

فقال : « لو لم أكن واثقا .. بل لو لم أكن على يقين من الأمر ، ما عرّضت حياتى لهذا الخطر العظيم »

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده ، فأكبر أن يدخل ذلك الشاعر بينهما .. ورأى أن من الحزم والحكمة أن يغالطه فاغتصب ضحكة وقال : « لاريب عندى انك أقدمت على كشف هذا الأمر غيرة منك على مصلحة الدولة ، ولذلك فأنت أهل للشكر والجائزة .. ولكنك كلفت نفسك عناء عظيما بلا طائل لأن وزيرنا لم يأت بهذا العمل من نفسه ، فهو لم يطلق ذلك العلوى الا باشارتى ، بعد أن تحققت انه لا بأس من اطلاقه »

فلما سمع أبو العتاهية ذلك أسقط فى يده وتولاه الخجل ولكنه اطمأن باله على حياته وقد ربح المال الذى وعده الفضل به .. على أنه ظل خائفا من جعفر ، اذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال : « أحمد الله على أن ذلك لم يحدث الا برأى أمير المؤمنين .. وقد اطمأن بالى على حياة الوزير ، ولكننى أصبحت أخشى على حياتى منه اذا بلغه انى نقلت هذا الخبر ، فيحسبنى من أعدائه .. »

فقطع الرشيد كلامه قائلا : « لا تخف .. فانى سأكتم ذلك عنه .. كن مطمئنا » قال ذلك ونهض ، فنهض أبو العتاهية وقد هدأ روعه .. أما الرشيد فقد انحبس غضبه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه .. فعل ذلك رغبة فى اخفاء ما فى نفسه عن أعداء جعفر . ولم يخف عليه أن أبا العتاهية لم يأت من عند نفسه ، وان الفضل هو الذى أرسله .. ولكنه اكتفى بما سمعه وصفق فجاء مسرور مسرعا كالبرق الخاطف ، فقال له الرشيد : « خذ أبا العتاهية ، ومر صاحب بيت مالنا أن يعطيه ألف دينار ، وأطلق سبيله .. »

فقال : « سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين.. » وأمسك أبا العتاهية بيده وخرج به ..

فلما خلا الرشيد الى نفسه ، هاج بلباله وعادت اليه وساوسه ، فتذكر ما دار بينه وبين اسماعيل فى ذلك الصباح وكيف رده خائبا رغم قرابته ، وجلالة قدره ، رعاية لحق جعفر .. وكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق أسيرا عهد به اليه . فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين . فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسى موقفه وجعل يمشى ذهابا وايابا على غير هدى ، ويخاطب نفسه قائلا : « هل أنا فى حلم ؟ أيرتكب جعفر هذه الخيانة وقد أحببته وأكرمته ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد الأحكام وأطلقت يديه فى شئون الدولة ؟ وهل يعقل أن

يكون ما سمعنه وشاية من الحساد ؟ لا يعقــل ذلك .. ولكن كيف أتصور أن يغدر بى جعفر ويطلق عدوا سلمته اليــه مع ما يعلمه من بغضى للعلويين . بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته ؟ وهذا أيضا لا يعقل .. الا أن يكون الرجل مصابا فى عقله .. لأنه يعلم بطش هرون اذا غضب .. »

– ٤٧ –

مداعبة السـباع

قضى ساعة فى هذه المناجاة وهو لايستقر فى موقفه ، وأخيرا هدأ من غضبه وأخذ يعمل فكرته فيما يجلو عنه هذه الشكوك، فرأى أن يسأل جعفرا نفسه عن حقيقة هذا الخبر ، فاذا كان صحيحا بادر الىالانتقام . فأمسك غضبه وتجلد .. وكانالرشيد مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوى الارادة له قدرة عجيبة على الكظم وكتمان ما فى نفسه ، فصفّق فجاءه مسرور فقال له : « قد حدث ما يستدعى حضور الوزير الى هنـا ، فادع لى صاحب الطعام واذهب أنت الى الوزير فادعه الىّ »

فسأله : « ماذا أقول له ؟ »

فأجاب : « قل له ان أمير المؤمنين أحب أن تتناول معه العشاء فى هذا المساء .. ولا تقل غير ذلك .. »

فقال : « سمعا وطاعة » .. وخرج

وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، فلما جاء صاحب الطعام قال له : « اعد مائدة أتناول عليها العشاء مع الوزير ، ولتكن فاخرة .. »

فأشــار مطيعا وخرج . ومكث الرشــيد وحده فعادت اليه أفكاره وقد تعب منها .. فأحب أن يلهو الى أن يأتى جعفر، فخطر له أن يخرج الى حديقة القصر يمتع فيها نظره ، فأمر برداء تزمل به، وجاء غلام ألبسه النعال وسوّاها بقدميه .. فخرج الرشيد الى الحديقة ومشى بين الأشجار والرياحين الى حيث لا يعلم

فما لبث أن وجد نفسه بجانب أقفاص السباع ، وكان بينها أسد قد تعود الرشيد أن يلهو بمداعبته وهو داخل القفص . فلما وقع نظره عليه شعر بشىء لَفَت انتباهه .. وهو ارتياح طبيعى فى الانسان اذا رأى الأسد أو غيره من السباع فى قفص . ولعــل سببه الاعجاب بقوتها والدهشــة من منظرها غير ما يجيش فى النفس من حب التمثل بها .. ومنظر السباع يهيج ثورة النفس فى الانسان ، فكيف اذا كان ثائرا ؟.. فوقف الرشيد عند القفص ، وأمر حارس السباع أن يرمى للأسد طعامهُ ، فأتى بخروف كان قد ذبحه وقطعه قطعا صغيرة ، فرمى له قطعة منها فوثب الأسد عليها والتقمها دفعــة واحدة لأنها صغيرة ، ووقف ينتظر أخرى فنهى الرشيد الحارس أن يرمى اليه شيئا ، فراح الأسد يزأر ،

ويمشى فى القفص ذهابا وايابا وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر الى الحارس بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما ، والحارس يريه اللحم عن بعد .. فلما استبطأ الطعام ، أقبل يضرب قضبان القفص الحديد برأسه تارة ، وبمخالبه تارة أخرى .. يحدّق فى قطعة اللحم وهى فى يد الحارس ويزأر ويكشر عن أنيابه والحارس يضحك والرشيد يشارك الأسد فى الغضب ، وقد ازداد عبوسا وازدادت أساريره انقباضا حتى كاد يفتك بالحارس عنه .. وكأنه تصور نفسه شريكا له فى ذلك الغضب ، لأن حاله مع جعفر مثل حال الأسد مع حارسه ..

ولكن الوحوش ليس لها ما يمنعها من اظهار احساسها .. فتغضب وتقلق وهى فى أقفاصها . أما الرجل العاقل فيتحكم فى غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهى بين يديه ، كما كان الحال مع وزيره فى ذلك اليوم . فرأى نفسه أسدا عاقلا .. فاذا لم يستطع امساك نفسه كان حيوانا أعجم

كان الرشيد يفكر فى ذلك .. والحارس ينتظر أمره ليرمى قطعة اللحم للأسد حتى زأر الأسد زأرة نبهت الرشيد ، فأشار الى الحارس فرمى له قطعة اللحم فانقض عليها ، وعاد الى الزئير حتى رمى القطعة الثالثة والرابعة ، وهكذا حتى شبع . فربض ووضع رأسه بين ساعديه ولم يتحرك ، ولكن عيناه ما زالتا تبرقان والحنق ظاهر فيهما

قضى الرشيد ساعة يلهو بذلك المنظر حتى سرّى عنه ، وزاد تمكنا من اعتقاده فى أن رابط الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان وأمسك غضبه كان أسدا عاقلا . وأراد أن يكون هو ذلك الأسد فى تلك الليلة

فلما غابت الشمس وأخذت الظلال تتكاثف فوق قصور بغداد وبساتينها ، رجع الرشيد الى قصره وهو يسير بين الأشجار بثوبه الموشى وعمامته المزركشة ، والغلمان يتباعدون عنه احتراما له ، وقد لاحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه ، والرشيد يحسب أن سرّه لا يعرفه أحد .. وبينما هو فى ذلك اذ سمع دبدبة وصهيلا، وصلصلة وضوضاء بباب القصر ؛ فعلم انه موكب جعفر فتجاهل وظل ماشيا حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور فأخبره بأن الوزير ينتظره فى تلك الدار

فقال له : « ادعه لموافاتى الى القاعة التى كنا فيها فى أصيل هذا اليوم »

ومشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد أضيئت فيها الشموع على مصابيح من الذهب ؛ وفاحت روائح البخور والطيب ، فتربع على السرير .. ولم تمض برهة حتى أقبل الحاجب يخبره بمجىء جعفر ، فقال له : « فليدخل .. ليس على الوزير حجاب »

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبة على جارى عادته فى مجيئه لمقابلة الخليفة وهى ملابس العباسيين الرسمية . وكان جعفر خائفا

من ذلك الطلب فى آخر النهار، لعلمه بما يتوقعه من وشاية حساده به فى أمر العباسة بعد أن اطلع أبو العتاهية على سره ورأى ابنيه مع والدتهما رأى العين . فلما دعاه مسرور الى الرشيد أوجس خيفة ؛ وسأل عما يريد منه فقال : « لا أدرى » . ولم يتوسم فى وجه الرجل سوءا ومع ذلك ركب فى موكبه الحافل ، وفيه جماعة من الفرسان الأشداء ممن يتفانون فى نصرته ؛ ودخلوا معه الى الباب الرابع على غير المعتاد فيمن يدخل قصر الخلد من القادمين الا بنى هاشم والوزير وأمثالهم من المقربين . فترجّل جعفر وأقبل على دار الخاصة ، ومسرور يسير بين يديه لا يتكلم

— ٤٨ —

المداجاة

فدخل الوزير تلك القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وقلبه يرتجف خوفا . فلما أقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال : « ليتك جئتنى بمثل ملابسى ، فان مجلسنا مجلس أنس » .. ودعاه للجلوس بجانبه على السرير . فحيّاه وجلس متأدبا وقد سرى عنه واطمأن باله . وجعلا يتطارحان الأحاديث والرشيد يحتفى به ويلاطفه . ومما قاله : « لقد دعوتك رغبة فى أنسك لأنى شعرت بملل فى أثناء النهار على أثر مقابلة ذلك الوفد

الهندى» .. وأقبل يقصّ عليه ماجاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السيورية وما كان من قوتها وفتكها بالأسد

فأجابه جعفر : « ما زال قصر الخلد مصدر الأبهة والسؤدد ، ولازال أميرالمؤمنين مؤيدا بنصرالله يتزلف له الملوك والسلاطين»

والقارىء يعلم ما فى قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من الخوف من بطشه اذا اطلع على حاله مع العباسة ، وما يعتزمه من النجاة بها اذا اطلع الرشيد على سرهما .. فكانا يتداجيان وفى قلب كل منهما غل على صاحبه ، وما زالا فى ذلك حتى آن وقت العشاء ، فمُدَّ السماط وقد أعدت عليه ألوان اللحوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة والرياحين وأصناف البقول ، ووقف الغلمان بأباريق الماء وأقداح الشراب . فجلسا يأكلان ، والرشيد يبالغ فى اكرام جعفر حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف فيلقمه بيده (١) ويناوله السنبوسجة بعد السنبوسجة ، والتفاحة بعد التفاحة ، ويبش له ويحادثه ويضحك لحديثه حتى تطرق الى حكاية العلوى فقال له : « وماذا حـدث لذلك العلوى الذى عهدت به اليك ؟ »

فقال جعفر : « هو على حاله يا أمير المؤمنين ، لا يزال فى الحبس كما أمرت »

فابتسم الرشيد وقال : « هل هو هناك ؟ »

---

(١) ابن الاثير ٧٠ ــ الجزء السادس

فقال جعفر : « نعم يا أمير المؤمنين »

قال الرشيد : « بحياتى ؟ »

ففطن جعفر الى أن سؤاله لم يكن سؤالا عاديا ، فبغت وظهرت البغتة على وجهه وقال : « لا وحياتك .. بل أطلقت سراحه .. لأنى لم أجد مكروها عنده ولا خوف منه .. وزد على ذلك ، انى أخذت عليه المواثيق والعهود حتى لايعود الىشىء مما كان فيه »

فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت فى يده وهو يقول : « بورك فيك .. فقــد فعلت ما كنت أرجوه منك ولم تتجاوز ما فى نفسى »

فاستأنس جعفر بتلك الملاطفة ، وخاصة بعد أن غيَّر الرشيد الحديث ، وأخذ يمازحه ..

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسيل، فغسلا أيديهما وجلسا يتحدثان ســاعة ثم اســتأذن جعفر فى الذهاب فأذن له الرشيد ومشى لوداعه الى باب القاعة . فلما ودعه ورجع صرَّ على أسنانه ، وقال فى نفسه : « قتلنى الله ان لم أقتله »

أما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولا انخدع بملاطفته ومجاراته ، فقد خرج وهو يعلم أن مركزه أصبح فى خطر لاعتقاده أن تلك القصة لم يرد ذكرها عرضا كما أحب الرشيد أن يوهمه ، ولا كان ينوى اطلاق العلوى كما زعم .. وكيف يصدق ذلك وقد كان هذا العلوى مطلقا ومعه أمان بخط الرشيد وختمه ، فما

زال الرشيد يسعى حتى أفسد الأمان ومزّقه ، وأمر بالقبض عليه ، وحبسه خوفا منه .. فهل ينطلى على جعفر انه كان ينوى اطلاقه مع ما اختبره من طباع الرشيد ، وكظمه الغيظ ، وملاينته.. ولكنه أظهر انه صدّق قوله ، وافترقا وهما يتخادعان ويتداجيان ويظن كل منهما انه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع

— ٤٩ —

الخروج للصيد

عندما رجع الرشيد بعد وداع جعفر ، دخل غرفة النوم وهو يفكر فيما مرّ به ذلك اليوم من الغرائب . فتذكر مجيء اسماعيل فى الصباح وما كان من رده ، ولم يقض له حاجة رعاية لحق جعفر وزيره ، وما عرفه بعد ذلك من استبداد هذا الوزير فى الأمور واطلاقه سراح ذلك العلوى ، حتى قام فى نفسه أن يقتله . ورأى انه أساء معاملة اسماعيل وهو يثق بنصائحه وحسن قصده ، فأحس بحاجته الى مجالسته ليطلعه على ما فعله جعفر ويبوح له عما نواه من الفتك به لأنه كان شديد الثقة باخلاصه ، ولم يكن يثق بأحد من أهله أو رجال دولته مثل ثقته به ، وقد يتطرق بهما الحديث الى الاعتذار له عن رده خائبا . وشعر الرشيد بضيق صدره ، فلم ير خيرا من خروجه للصيد يفرج به كربه . فلما

أصبح دعا « مسرورا » خادمه وأمره أن يوصى أصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى أرض دجيل (قرب بغداد) الى أن قال : « وهل تعلم مقر اسماعيل بن يحيى ؟ »

فقال مسرور : « نعم يا مولاى .. »

قال الرشيد : « اذهب اليه وادعه ، ولكن لاتزعجه بفظاظتك»

فقال مسرور : « واذا سألنى عما يريد أمير المؤمنين منه ؟ »

قال الرشيد : « قل له انى عازم على الصيد ، وأحب أن يكون معى »

فأشـــار مطيعـــا ، وخرج الى الفهادين والبيازرة والحجالين وأصحاب الصقور والكلاب وسائر خدم الصـــيد والقنص .. فأمرهم بالخروج الى أرض دجيل . وكانت لهم عادات وطرق فى خروجهم الى ذلك المكان يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب أو تدريب .. وكانوا يتصيدون فى أرض « دجيل » وهى بقعة من الأرض ، مساحتها عدة فراسخ فى مثلها ، وقد أحاطوا احدى جهاتها بسور على هيئة نصف دائرة مبنى بالأعمدة المنصوبة ، وقد شد بعضها الى بعض بالأمراس أو الأسلاك على شكل سور منيع ، وكانت عادتهم فى الصـــيد أن يطاردوا الحيوانات التى يريدون صيدها نحو ذلك السور من مقـــره ، فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم ، وهى تفر أمامهم بين الأعشاب والأدغال ، فلا يزالون يضيّقون

عليهـا حتى يدخلوها وراء ذلك السور ، ولا يكون لها مجـال للفرار .. فاذا انحصرت فى ذلك الموضـع ، أقبـل الخليفة ومن معه من الخاصة وتأنقوا فى القتل .. فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقى (١)

وكان من عادة الرشيد اذا خرج للصيد أن يتجول جانبا من النهار على الجواد فى أرباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وآن أوان صيدها ، فيأتى ويباشر قنص بعضها بنفسه ، أو يتفرج على البزاة والصقور والفهود .. كيف يستخدمها أصـحابها فى الصيـد مما يطول شرحه . أما فى ذلك اليوم فقـد جعل الخروج الى الصيد حيلة لأجل مخاطبة اسماعيل كما قدمنا

أما اسماعيل ، فلما جاءه أمر الرشيد بالحضور اليه ليرافقه فى الصيد لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد ، وكان الرشيد فى انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . وما أقبل اسماعيل على القصر حتى رأى أصحاب الصيد خارجين بصـقورهم وبزاتهم وفهودهم ، وقد ارتدوا الملابس الخفيفة ، وفى جملتهم أصحاب اللبابيـد .. وعادت الضـوضاء وتزاحم الناس . هذا يلاعب صقره ويحرضه على طائر مار فوق رأسه فاذا تحفز الصقر أمسكه . وذاك يقود فهده بسلسلة من

---

(١) الفخرى ٤٨٠

الحديد ، وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه انها وراء شجرة هناك ، والكلب لايكترث لأنه لم يشم رائحة الفريسة .. وعلا ما يترتب على ذلك من الضوضاء واختلاط الأصوات بين ضهيل ونباح وهرير وصرصرة وقعقعة وصلصلة وطقطقة وهدير. فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثانى من أبواب القصر فلقيه مسرور وقال له : « لا يترجَّل مولاى لأن أمير المؤمنين خارج بموكبه وقد أمرنى بذلك »

فوقف حتى رأى الرشـيد قادما على جواده بثيـابه الخفيفة والفرسان حوله فى موكب الصيد ، فلم يتمالك عند ذلك عن الترجل فابتدره الرشيد قائلا : « اركب ياعماه واجعل فرسك فى محاذاة فرسى »

فركب وأراد أن يسير متأخرا عنه تأدبا ، على جارى العادة فى مصـاحبة الخلفاء ، فطلب منه أن يحاذيه ، وقال له : « ليس اسماعيل ممن يطالب بمثل هذه التقاليد .. وما دعوتك لمرافقتى الا للاستئناس بك »

— ٥٠ —

المفاوضـة

فدعا له وسار بجانبه .. وأمر الرشيد مسرورا أن يطلق أصحاب

الصيد الى عملهم فى دجيل كالعادة ريثما يصل . وسار الرشيد واسماعيل لايتكلمان . أما هذا فسكت عن تأدب اذ لايليق أن يبدأ هو بالكلام .. وأما الرشيد فقد سكت عن هاجس غلب عليه . وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد وأشرفا على بساتينها وأرباضها ، فأمسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم فرسان الموكب انه يطلب الانفراد ، فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام باد على محياه : « ما الذى حدثتك به نفسك حينما خرجت من عندى أمس ؟ »

قال : « لم تحدثنى بشىء غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتأييد سلطانك »

قال : « ذلك هو عهدى بك ، على انك لو عتبت على هرون وانتقدته لما وجدت سبيلا الى لومك ، لأنى لم أرع حقك وقد أسأت معاملتك فى سبيل رجل لم يرع حقى ولا حق بنى العباس .. » قال ذلك والتفت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى ، ومد يده الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بأنامله وهو ينتظر ما يبدو من اسماعيل

أما هذا فأدرك ما فى نفس الرشيد وانه يضمر سوءا لجعفر ، فشق عليه ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران ، فتجاهل

وأقبل يشكر للرشيد حسن ظنه الى أن قال: « أرى أمير المؤمنين يبالغ فى اكرامى .. ومحال أن يأتى أمرا يوجب اللوم .. وهب انه فعل ذلك فهو لايمكن أن يلام .. وانما ساءنى انه غير راض عن مواليه ، ولو صرح لى بما يريد وأوضح لى الكلام لزادنى منة..»

فقطع الرشيد كلامه وقال : « أظنك تتجاهل ياعماه ، ومثلك لا يفوته ادراك ما أريد ؟ »

فقال : « اذا صدق ظنى فان الرشيد يشكو من وزيره »

قال : « وهل تستغرب شكواى من رجل سلمت اليه مقاليد دولتى وأطلقت يديه فى كل شئونى .. وقدمته على أهلى وذوى عصبيتى ثم هو يسعى فى هلاكى ؟ »

فقال : « معاذ الله أن يكون ذلك .. وما وزيرك يا أمير المؤمنين الا من بعض مواليك يتفانى فى مصلحة دولتك .. ذلك هو عهدى به .. »

وكانا يتخاطبان والفرسان يسيران متحاذيين بين الأشجار الباسقة وقد تشابكت أغصانها ، تظلل الطرق ، فبعدا عن المدينة وهما يسيران الى غير مكان مقصود . واتفق عند ذلك انهما أشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ، يدور طريقها حول الضيعة .. فدارا حولها حتى اقتربا من بابها ، فنظر الرشيد الى بيدرها وكثرة الغلال فيه ، وما يسرح من الماشية الكثيرة حوله ، والتفت الى اسماعيل وقال : « لمن هذه

الضيعة يا اسماعيل ؟ »

فعلم اسماعيل انها لجعفر وقد أراد الرشيد أن يتخذ ذلك حجة على ما يريد من الطعن عليه فقال : « هى لأخيك جعفر بن يحيى »

فتنفس الرشيد الصعداء وقال : « ولو سألتك عن سائر ما فى هذه الضاحية من الضياع لما أجبت غير هذا الجواب ، لأن الذى دعوته أخى قد ملك أهله كل ما يحيط ببغداد من الضياع والبساتين .. أرأيت كيف أغنينا هؤلاء البرامكة وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم حتى صارت البلاد لهم ، وأصبحت مواكبهم أعظم من مواكبنا ، وأموالهم أكثر من أموالنا ؟.. واذا كانت هذه ضياعهم قرب هذه المدينة ، فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق فى سائر البلدان ؟ »

فشق على اسماعيل ذلك القول غيرة منه على سلامة الدولة فقال : « انما البرامكة عبيدك وخدمك ، وما ضياعهم وكل ما يملكون الا لك .. »

وكان الرشيد لا يتوقع من اسماعيل دفاعا عن رجل كان بالأمس سببا فى فشله ، فسمت منزلته فى عينيه ، ولكن ساءه دفاعه لأنه كان يتوقع منه أن يجاريه فيما ينويه ، شأن كل غاضب مستبد . فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وقال : « أراك حسن الظن بأعدائى وتحسبهم

عبيدا لى ، والبرامكة يعـدون بنى هاشم عبيـدهم وانهم هم أصحاب الدولة ، وان لا نعمة لبنى العباس الا والبرامكة أصحاب الفضل عليهم فيها »

فلم ير اسماعيل أن يدافع أكثر من ذلك لئلا يتحول غضب الرشيد اليه فقال : « ان أمير المؤمنين أبصر بخدمه وعبيده »

فأدرك الرشيد انه خشى غضبه ، ولم يصرح بما فى نفسـه فأحب أن يسمع رأيه فقال : « ليس لذلك صحبتك ياعماه ، ولا هذا عهدى بك .. هل تسايرنى وتجارينى خوفا من غضبى ؟ »

فتحير اسماعيل فى أمره وتردد بين أن يجيبـه أو يبقى على الكتمان . ومع ما يعلم من منزلته عند الرشيد ، لم يكن ليطلق لنفسه الحرية الا وهو يحاذر من غضبه .. اذ لايستبعد أن ينقلب الرشيد عليه اذا تبادر الى ذهنه سوء الظن به . وهذا جعفر لم يبلغ أحد ما بلغه من الدالة والنفوذ حتى صـار الرشيد يدعوه أخاه ويدعو والده يحيى أباه . فلمـا شك فيه أصبحت حياته فى خطر . فظل اسماعيل ساكتا يفكر ، وهو يسير بجانب الرشيد ولا يدرى الى أين يسير به

فانتبه فاذا هو بباب المدينـة ، فرأى مسوغا لتغيير الحديث فقال : « أرانا قد عدنا الى بغداد . فأين الصيد ؟ »

قال : « لم أخرج للصيد الا حيلة لمرافقتك . وقد أوصيت من يقوم به عنى .. ولكنى لم أسمع منك غير ما يقوله سـائر

الناس ممن يجالسوننا ويصانعوننا ، وأنت شيخ بنى هاشم وحكيمهم فلا أقبل منك هذه المصانعة .. »

فقال : « أرى أمير المؤمنين حسن الظن بى ، وأنا بحمد الله عند حسن ظنه .. ولكننى لم أسمع منه سؤالا صريحا فأجيبه ..»

— ٥١ —

التصريح

وكان الرشيد لما دخل المدينة ، قد عاد الموكب الى المسير بين يديه فقال : « نحن داخلون بغداد ، وعما قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونتحدث »

فأوجس اسماعيل خيفة من عاقبة ذلك الحديث ، ولكنه تجلد وسكت حتى اذا دخلا القصر ترجلا وسارا الى غرفة خاصة ، فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى جانبه فجلس وهو مطرق ينتظر مايقوله الخليفة . فاذا هو يقول : «دعك من الدفاع ، وقل ما فى نفسك ، ألم تر هؤلاء الأعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة وأموالها دوننا ؟ »

قال : « بلى .. ولكنهم فعلوا ذلك بارادة أمير المؤمنين ، ولو لفهمهم انه يريد غير ذالك لأذعنوا لأمره »

قال : « وهل أمرتهم أن يستأثروا بكل شىء دونى ؟ »

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين أن يبوح له بما يعتقده من فضل البرامكة على الدولة أو يسايره فى أقواله ، فغلب عليه استقلال رأيه فقال : « أما وقد أكرمنى أمير المؤمنين بحسن ظنه ، فلا ينبغى أن أكتمه شيئا مما يجول فى خاطرى .. ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ولا خلاف فى ذلك ، ولكن أمير المؤمنين أعلم الناس بما كان من بلائهم فى مصلحة هذه الدولة من عهد جدهم خالد فى خدمة جدك المنصور . وقد عرف هذا الملك النبيل فضل خالد فقدمه كما قدم أمير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر .. ولا يخفى على الرشيد ما لهؤلاء من الأثر الصالح فى خدمة دولته وتنظيم ادارتها وسائر شئونها ، غير ما لهم من المآثر فى رفع منار العلم وأسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الأطبـاء من الهند وفارس الى بغداد ، وقد بنوا المارستان وأدخلوا الكاغد وعمّروا بغداد بنقل الكتب .. وهم لم يفعلوا ذلك الا والرشيد راض عنه .. وأخشى أن أطيل الكلام .. »

وكان اسماعيل يتكلم وهو يرقب ما يبدو من الرشيد ، وكأنه قرأ فى وجهه قرب استيائه من ذلك الثناء ، وانه لا يرضيه الا ما يقوّى عزمه على الفتك بهم .. فاستدرك قائلا : « ولا أنكر انهم من الجهة الأخرى قد استأثروا بالأموال .. والانسان مطبوع على الطمع ، ولكنى علمت عن ثقة أن الأموال التى تجمع من غلتهم فى كل عام مهما كثرت فانهم يوزعون معظمها على أهل الفاقة »

فضحك الرشيد اغتصابا وهز رأسه وقال : « لايفعلون ذلك على سبيل الاحسان ولكنهم يبتاعون الأحزاب ، ولا يلبثون أن يجندوا علينا الجند » .. قال ذلك وتنهد

فابتدره اسماعيل قائلا : « معاذ الله .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه : « كيف لا ، ووزيرنا الذى دعوته أخى يمالىء العلويين علينا ؟ »

فأجفل اسماعيل وقال : « يمالئهم ؟ »

فقال الرشيد : « نعم .. انه أطلق سراح يحيى بن عبدالله »

فقال اسماعيل : « يحيى العلوى ؟ »

قال الرشيد : « أطلق سراحه بدون اذنى ، ولا شك فى ذلك وقد اعترف هو نفسه به »

فلم ير اسماعيل بابا للدفاع ، وتحقق ان الرشيد لن يرجع عن غضبه بعد ذلك لعلمه بما فى نفسه على الشيعة العلوية فقال : « انها جسارة وتطاول .. وهل تظنه فعل ذلك عن عمد وقصد سيىء ؟ »

فقال الرشيد : « مهما يكن من قصده فان فعله هذا لا أستطيع الصبر عليه .. »

فقال اسماعيل : « وما الحيلة يا مولاى ؟ »

قال الرشيد : « الحيلة ؟.. قد حلّ قتله ، والسلام .. »

فأكبر اسماعيل تسرعه الى هذا التصريح وقال : « اذا قتل

أمير المؤمنين عبيده فانه مالك الرقاب يفعل ما يشــاء .. ولكنه أعلم منى بما يترتب على هذا الأمر .. وقد قال لى السـاعة ان البرامكة يبتاعون الأحزاب بالأموال .. »

فأطرق الرشيد واسماعيل وكلاهما يعمــل فكرته .. ثم رفع الرشيد بصره وقال : « فما الذى يراه ابن عمنا ؟ »

قال اسماعيل : « ألا ترى أن تفرق بينه وبين أحزابه بعمل توليه اياه خارج بغداد ؟ »

فأبرقت أسرّة الرشــيد عند ســماعه رأيه وقال : « ذلك ما عزمت عليه وسأوليه خراسان .. فاذا بعد عن بغداد فكّرنا فى شأنه .. »

فسر اسماعيل بقبول الرشيد ذلك ، وقال : « نِعْم الرأى هذا .. »

فقال الرشيد : « انه رأى سديد ، وبعد ذلك ننظر فى أمره » ثم توجه نحوه بكليته وقال وهو يتفرس فيه : « واعلم يااسماعيل انى لم أطلعك على سرى هذا الا لعظم ثقتى بك .. وانى آمرك أن تكتمه فانه ما علم به أحد غيرك ، فاذا بلغهم شىء مما جرى علمت انك أنت الذى أبلغته .. هل فهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من ذلك التهديد . ولما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجــة تحقق أن مشــيرى الملوك اذا لم يســايروهم ويداهنوهم كانت حياتهم فى خطر فقال : « أعوذ بالله أن أقدم

على افشاء أسرارك يا أمير المؤمنين »

ثم تزحزح الرشـيد من مجلسه ، فعلم اسـماعيل انه يريد الانصراف ، فوقف واسـتأذن فأذن له فخرج ، وقد عظم عليه ما سمعه وأصبح خائفا على الدولة من تغير الرشيد ، وانطلق الى منزله وهو يصبر نفسه ليرى هل يعمل الرشيد بما قاله

— ٥٢ —

اسماعيل وجعفر

وفى صباح اليوم التالى ، علم ان الرشيد بعث الى جعفر فجاءه فأجلسه الى يمينه وأكرمه غاية الاكرام ، وبش فى وجهه وحدثه ساعة وأهداه هدايا كثيرة فى جملتها غلام خادم من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجها وأكملهم ظرفا ، كاتبا ، حاسبا ، لبيبا ، وان جعفر سرّ سرورا كاملا بذلك .. فعجب اسماعيل من مقدرة الرشيد على كتمان ما فى نفسه من شدة الحنق والضيق والغضب . وربما تبادر الى ذهنه ان الرشيد قد صفح وذهب ما يحفظه على جعفر لولا ما علمه من اطلاق سراح العلوى ، والرشـيد يكره تلك الشيعة ويخاف منها على ملكه

ثم علم اسماعيل بعد يومين ، ان الرشيد خلع على وزيره وعقد له لواء على خراسان فظنه قد صفا له .. فتمنى أن تزول الضغائن

بهذه الطريقة وتعود المياه الى مجاريها ، ولاسيما بعد أنعلم برضاء جعفر عن هذه الولاية واسراعه فى ارسال أعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد .. فانهم ذهبوا وضربوا مضـاربهم هناك وأخذوا يتأهبون للرحيل الى خراسان ، والبلد بعيد الشقة يحتاج الى الأحمال والأثقال . فلما تحقق اسماعيل من قرب سفر جعفر ، رأى أن يزوره ويودعه ويسعى فى ازالة ما قد يكون باقيا فى نفس الرشيد بوسيلة خطرت له

وأما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب ما فى قلبه على الرشيد ، ولكنه رأى فى سفره الى خراسان بابا للفرج .. وعزم على مخابرة العباسة فى شأن الفرار معه . ففى اليوم الذى احتفلوا بالخلع عليه عاد الى قصره فى الشماسية وهو من جملة قصـور البرامكة فى ذلك الحى . وكان لهم عدة قصور هناك أشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية وقصر له آخر فى باب البردان (١) ، وكان جعفر فى ذلك العام مقيما فى قصره بباب الشماسية ، ولا تقل قصوره فخامة عن قصور الرشيد ، يكفى ما تقدم من وصفها فى القصيدة التى دسّتها أم جعفر الى زوجها وفيها قول الشاعر فى وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التى ما بنى الـ
ـفرس لهـا مثلا ولا الهنـد

---

(١) الاغانى ٧ ــ الجزء الخامس

الدر واليـاقوت حصـــباؤها
وتربهــــا العنبـر والنـــد

فهذا بعض ما كان من فخامة هذا القصر وأمثاله من قصــور البرامكة مما يضيق المقام عن وصفه ووصف ما فيه من الرياش الفاخر ، وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الأمين ودار القرار (قصر زبيدة) فقِس عليها ..

فعاد جعفر الى قصره المشار اليه ، وهو لا يصـــدق انه ولى خراسان .. وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة ، فتبادر الى ذهنه ان الخليفة ليس فى قلبه غل عليه ، أو انه ولاه خراسان خوفا منه على دولته اذا ظل فى بغداد ، فاستقوى نفسه واستضعف الرشيد ونسى خوفه منه . فلما عاد الى القصر أمر قهرمانه أن يهتم بالرحيل ويوصى قيّم الجوارى والعبيد وكاتبه أن يتهيأوا فى الغـــد . ودخل القصر وكان قد أعجب بالخادم الذى أهداه الرشيد اليه لأدبه وفرط جمـاله ، فاصطحبه الى قاعة ريشـــها سماوى اللون لاعتقاده أن هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ، ودخل الغلام لمؤانسته . ثم جاءه الحاجب يقول : « ان اسماعيل بن يحيى بالباب .. »

فنهض جعفر لاستقباله وأدخله حتى أجلسه فى صـــدر مجلسه لأنه كان يجل مقامه ويثق به ، لاعتقاده بصـــفاء نيته وصـــدق لهجته ، ولكنه لاحظ فى أثناء حديثه انه يكتم أمرا يريد اطلاعه

عليه ، فصرف مَن كان فى مجلسه من الناس .. ولم يبق فى الغرفة سواهما ، وأقبل جعفر بكليته ليسمع حديثه فقال اسماعيل : « يا سيدى أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير ، كبيرة المساحة ، عظيمة المكانة ، فلو تنازلت عن بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده »

فلما سمع جعفر قوله تبادر الى ظنه ان الرشيد أوفده للتوسط فى ذلك ، فزاد استخفافا به وثقة بنفسه ، وغلب عليه الحقد لما يقاسيه من تصرفه معه ، وظن أنه قد نجا من قبضته بانتقاله الى خراسان قبل أن يكشف أمر العباسة . وكان حسن الظن باسماعيل ، وكثيرا ما ذكر فضل بيته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقه لأن هذا هو اعتقاده ، فلم يمتنع عند سماعه ذلك عن التصريح برأيه فى هذا الأمر فقال : « والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك الا بفضلى ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا . أما كفى انى تركته لا يهتم بشىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، ودخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا»

فندم اسماعيل على مجيئه اليه وخشى أن يترتب على حديثه أمر يبلغ الرشيد فيعده منه افشاء ، فغيَّر الحديث حتى اغتنم

فرصة للاستئذان وخرج

— ٥٣ —

العباسة وأرجوان

أما جعفر فعاد الى صوابه بعد ذهاب اسماعيل ، فرأى انه أخطأ بما بدر منه طعنا فى بنى هاشم واسماعيل منهم . فسبق الى وهمه انه ربما باح للرشيد بما سمعه منه .. فلا يبقى سبيل للصلح ، فزاد رغبة فى عزمه على الفرار بالعباسة والولدين ، وصفق فجاءه خادمه الخاص حمدان ، وكان شديد الاعتماد عليه .. فأسرّ اليه بعزمه وقال له : « نحن مسافرون غدا الى معسكرنا فى النهروان فاذهب الى عتبة وقل لها تخبر مولاتها العباسة أن تكون على أهبة الرحيل ريثما أبعث اليها من يحملها اليّ .. أفهمت ؟ »

فقال حمدان : « نعم يا مولاى فهمت .. »

وخرج حمدان مسرعا للقيام بهذه المهمة ..

وكانت العباسة فى أثناء هذه الحوادث على أثر اجتماعها الأخير بجعفر وما سمعته من وعده بالذهاب الى خراسان وذهابها معه ، لا تنفك تفكر فى هذه الأمنية وهى لا تصدق انها ستظفر بها ، لأنها كانت تفضل الاقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين فى كوخ حقير على الاقامة فى تلك القصور الفخمة تحت الخطر وأعين

الرقباء .. ولا سيما بعد أن اطلع أبو العتاهية على سرها ورأى ولديها بعينيه وحدث ما حدث من اساءته . فكانت لايهدأ لها بال خوفا من أن يبلغ ذلك أخيها ــ والعياذ بالله ــ وكانت لاترى اثنين يتساران الا ظنتهما يتباحثان فى شأنها ؛ ولا رأت كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها الا حسبتها آتية للقبض عليها . ولم تكن تتعزى بشىء مثل اجتماعها بجاريتها عتبة ، وكانت تبوح لها بمخاوفها وهذه تطمئنها وتمنيهــا حتى علمت فى ذلك اليوم ان الرشيد عقد لجعفر على خراسان ، ورأت النــاس يتسابقون فى الطرق لحضور الاحتفــال بذلك ، فكادت تطير فرحا ومكثت تتوقع ان يأتيها رسول جعفر ، وانقضت عدة ساعات حتى علمت بخروج أعوان جعفر ورجاله الى النهروان ولم يأتها الرسول ، فخطر لها أن يكون حبيبها قد شغل عنها .. وشككت فى صدقه ــ والمحب كثير الشكوك ــ وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت جالسة معها فى الشرفة التى انتظرت فيها جعفر منذ أيام . واذا بحمدان مقبل بملابس أحد خدم قصرها .. فلما رأته قادما أرسلت عتبة لاستقباله واستلام الرسالة منه ، فلما لقيها قص عليها المهمة التى أتى من أجلها ، وألح عليها أن تبلغ مولاتها بأن تكون على أهبة السفر بما خف حمله.. وأن تتنكر فى ملابس احدى الجوارى حتى اذا جاء الرسول ، وهو أنا ، فلا يحتاج فى اخراجها الى أكثر من كلمة .. فلما أخبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وأمرتها

باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى من فمه ، فدخل ووقف متأدبا فقالت له : « كيف فارقت سيدك ؟ »

فقال حمدان : « هو بخير ، ويبلغك السلام يامولاتى .. »

قالت : « ومتى تظننا نخرج من هنا ؟ »

قال : « ربما فى صباح الغد .. »

فالتفتت الى عتبة لفتة فهمت انها تذكرها بالولدين : الحسن ، والحسين .. فقالت : « انهما فى مأمن مع الخادمين كما تعلمين ، ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز أو حيث يكونان ، وتتخلصين من هذه المخاوف »

فتنهدت العباسة تنهدا عميقا ، ولكن البِشر كان يتجلى فى وجهها ، فصرفت حمدان ودخلت الى غرفتها وأخذت عتبة فى الاستعداد للسفر ، وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل ، والعباسة منفردة فى تلك الغرفة ، فما لبثت أن أصابها رد الفعل فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها ، لأنها تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدى أخيها ، وستترك ذلك القصر بما فيه من أسباب السعادة وقد تعودته وألفت قاعاته وحدائقه وأثاثه وخدمه وجواريه وكل شيء فيه . نعم انها تفضل الاقامة مع حبيبها فى كوخ ، على الاقامة وحدها فى قصر . ولكن الانسان ابن العادة اذا ألف شيئا شق عليه فراقه ؛ فكيف بها وقد ربيت فى ذلك القصر ولم تخرج منه الا نادرا . على أنها كانت اذا تصورت

ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدأ روعها . ثم يعترضها ما تخافه من نقمة أخيها اذا علم بفرارها على تلك الصورة ، وربما حمله غضبه على تجريد الجيوش فى طلبها . فكادت هذه الهواجس تثنى من عزمها وهى تغالب عواطفها وتمنى نفسها بالنجاة .. وبينما هى فى تلك الخواطر اذ تذكرت خادما لها كان أمينا على سرها فى أثنـاء مخاوفها حتى جعلتـه رئيس الخدم فى قصرها ، واسـمه « ارجوان » . وكانت تستأنس به فى ابان اضطرابها وقلقهـا ، فرأت أن تصطحبه فى فرارها ، فنادت عتبة وكانت منهمكة فى اعداد المعدات فأتت ، والغبار يعلوها والانهماك ظاهر عليها ، فقالت لها العباسة : « أين أرجوان ؟ »

فقالت عتبة : « هو هنا فى القصر .. هل أدعوه ؟ »

قالت العباسة : « ادعه .. فانى أرى أن نصحبه معنا »

فخرجت عتبة ، ثم عادت ومعها ارجوان . وكان أسود اللون أصله من بلاد البربر فى شمال أفريقيا ، وقد ربّى فى قصرالمنصور وكان مقربا له لأن أم المنصور بربرية . وكان طويل القامة وأكثر طوله فى ساقيه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ فى نحوالخمسين من عمره .. ولولا قلة الشعر فى وجهه من نتائج الخصى ، لظهرت شيبته وبانت كهولته . ولكن هؤلاء الخصيان قلما تعرف حقيقة عمرهم بمجرد النظر اليهم . وكان ارجوان قد ربّى العباسة منذ طفولتها وأخلص الخدمة لها ، وهى قد تعودته واحسنت الثقة به .

فلما استقدمته فى ذلك اليوم وقف بين يديها ، فنظرت اليه والدمع فى عينيها ، فلما رآها تبكى بكى معها وقال بصوته المؤنس ولحنه الأعجمى : « ما الذى تأمرين به يامولاتى ؟ »

قالت العباسة : « نحن مسافرون ، وأحب أن تخرج معنا »

فقال ارجوان : « انى عبدك وطوع ارادتك .. »

قالت العباسة : « أتدرى الى أين ؟ »

فقال ارجوان : « الى حيثما تشاءين .. ولو الى القتل »

قالت العباسة : « بورك فيك يا ارجوان ، فاشتغل مع عتبة فى اعداد ما يلزم .. وهى تنبئك بالخبر »

فقال ارجوان : « سمعا وطاعة .. » وخرج مع عتبة ، فقصت عليه ما هم فيه ، فأخذ فى التأهب

فلنتركهم فى ذلك .. ولنعد الى الرشيد

— ٥٤ —

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد أكثر كتمانا لسره مما ظهر لاسماعيل .. فمع شدة ثقته به ، لم يطلعه على كل ما ينويه لأن غضبه لاطلاق سراح ذلك العلوى ظل راسخا فى نفسه . وقد ولى جعفر خراسان وعقد له عليها ليجربه ويستطلع كنه قلبه ، فأهداه ذلك الخادم الجميل

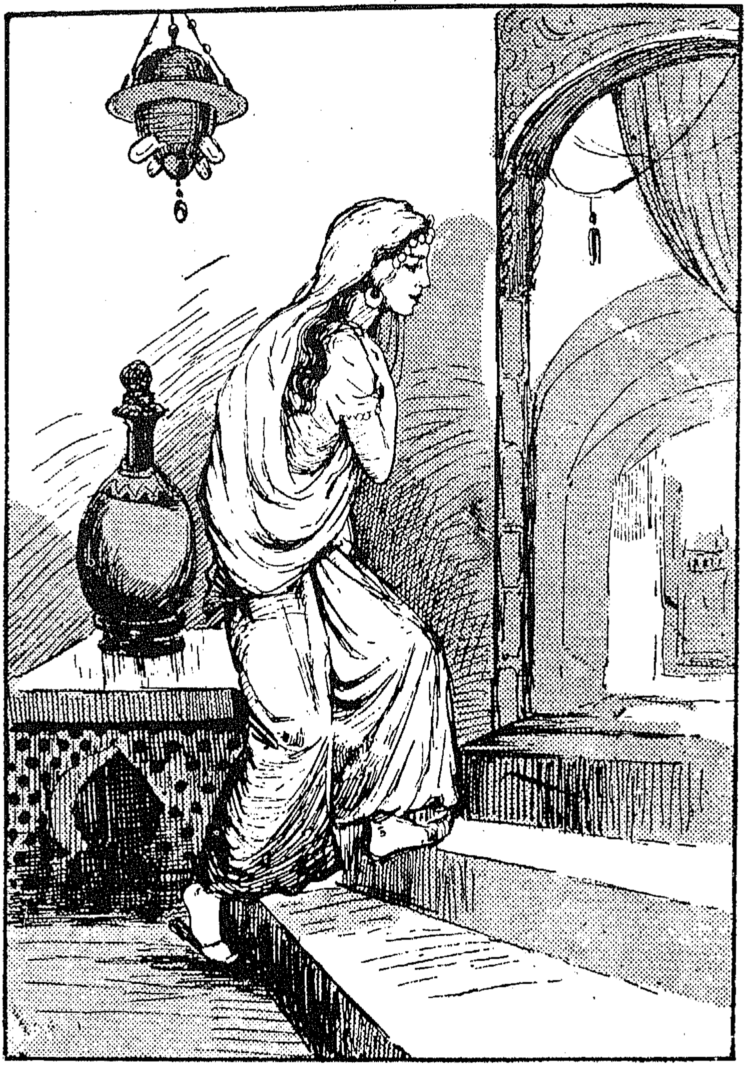
جاسوسا ينقل اليه أقواله ، وكان الخادم المشار اليه واقفا ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر ، فكتب بذلك الى الرشيد حالا. فلما وصل كتابه اليه تحقق من سوء نية جعفر ، فعاد الى مخاوفه وكان جالسا على سريره .. فلما قرأ الكتاب هبَّ من مقعده وقد عظم الأمر عليه .. ورأى الفرصة ضيقة لا تأذن باعمال الفكرة . وخيِّل له ان وزيره اذا خرج من بغداد أفلت من بين يديه ، وأهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه وأشكل عليه أمره ، فأخذ يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا كأنه أصيب بجنَّة ، وأحس بحاجته الى من يباحثه فى ذلك ، ولم يعد يرى أن يخاطب اسماعيل بعد ما علمه من حديثه مع جعفر وصداقته له وان كان لايشك فى أمره .. فانه انما يلتمس المداولة مع من يجاريه فى عزمه ، ولا يعارضه كما فعل اسماعيل ..

قضى الرشيد ساعة فى التردد حتى كاد يتقد غيظا ، فخطر له أن يشاور امرأته زبيدة فى الأمر على غير المألوف من شأن المرأة فى ذلك العهد . ولكن الرشيد كان يحب زبيدة ويحترمها ويتبرك بمشورتها ، ويعلم مابينها وبين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك أحس بارتياح عظيم ، وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسرورا وأمره أن يهيىء له برذونا ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يسير معه أحد سواه

فأعد له البرذون فركبه وقــد تلثم ومشى مسرور فى ركابه ، فلما أقبل على الدار لم يعرفه الحرس .. ولكنهم عرفوا مسرورا ففتحوا له فدخل الحديقة ، ثم ترجّل الرشيد وأمر مسرورا أن يسبقه الى زبيدة فيخبرها بمجيئه . فلما أخبرها أدركت انه انما جاءها فى تلك الساعة لأمر هام .. فخرجت لاستقباله فى القاعة التى استقبلت فيها ابنها محمــدا منــذ أيام ، وقد أضيئت فيها الشــموع فزادتها بهــاء . ولبست هى أفخر ثيــابها وتطيبت واستقبلته أحسن استقبال ، وعليهــا العقود من الجوهر ، وفى رأسها الدبابيس المرصعة ، وفى صدرها الحلى المنمقة على أشكال بديعة .. حتى خفافها كانت مرصعة كما علمت ، وأقبلت ترحب به وتلاطفه . أما هو فمع شدة غضبه ، لم يتمالك عند رؤيتها من الابتسام .. وجلس على السرير وأمسك بيدها وأجلسها الى جانبه وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من أنواع الحلى ، وقد زادها ضــوء الشموع لمعــانا ورونقا . أما هى فلحظت ما وراء ذلك الابتســام من الغيــظ ، ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب فقالت : « مرحبا بأمير المؤمنين .. لقد آنسنى بلقياه وشرّفنى بمجيئه ، فهل يأمر بطعام أو شراب ؟ »

فلم يسعه الا أن قال : « لم آتك للطعام يا ابنة العم .. »

فقالت وقد أبرقت عيناها تفرسا واستطلاعا : « لخير جئت ان شاء الله .. »



«وخرجت زبيدة لاستقبال الرشيد في القاعة التى استقبلت فيها ابنها محمداً منذ أيام ، وقد أضيئت فيهـا الشموع فزادتهـا بهـاء . . .»

فمد يده الى جيبه ، وأخرج الكتاب الذى جاءه من جاسوسه ودفعه اليها ولم يتكلم ، فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها ، فلما فرغت من قراءته أعادته اليه وهى تضحك فقال لها : « أراك تضحكين كأنك لم تقرئى الكتاب ..؟ »

قالت : « بلى .. قرأته »

قال : « لا أظنك تدركين ما ينطوى عليه ، الا اذا أخبرتك بما ارتكبه هذا الفارسى ؟ »

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر العباسة ، فتجاهلت وقالت : « وماذا ارتكب ؟ »

قال : « انه أطلق سراح الرجل العلوى الذى لم نقبض عليه الا بشق النفس ، ولم نكد نتحقق اننا حبسناه واتقينا شره حتى عاد فأطلق سراحه . وأنت تعلمين من هذا الكتاب ان هذا العبد قد شمخ بأنفه حتى أصبح يهددنا .. فمن يضمن انه اذا سار الى خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من أيدينا ؟.. فأشيرى علىّ ، فانى أتبرك بمشورتك »

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف ، ولم يكن أحد من أهل الخافقين يجرؤ على ذلك بين يدى الرشيد سواها ، لأنه كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب ، فكيف اذا أضيف اليهما نفوذ صاحب الحق ، لأنها كثيرا ما نصحت له أن يعدل عن الاستسلام لجعفر وأهله

وهو لايطيعها ، بل كان يحمل ذلك منها محمل الانتقام منهم . فلما جاءها الآن يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت : « مثلك يا أمير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل مخمور غريق فى بحر عميق ، فان كنت قد تيقظت من سكرتك ، وتخلصت من غرقك أخبرتك بما هو أعظم من ذلك كثيرا ، وان كنت لاتزال على الحالة الأولى .. تركتك »

فأثرت لهجتها هذه على الرشيد تأثيرا عظيما .. ولولا حرمتها عنده ما أمسك عن الفتك بها فقال لها : « قد كان ما كان .. فقولى أى شىء أعظم من هذا ؟ »

قالت : « ان الأمر الذى سأحدثك عنه ، قد أخفاه عنك وزيرك .. وهو أقبح من الخبر الذى عرفت وأشنع »

فغضب الرشيد وقال : « ويحك .. وما هو ؟ قولى »

فأعرضت بوجهها عنه وقالت : « انى أجل نفسى عن أن أخاطبك به .. وعليك أن تحضر أرجوان الخادم ، وتشدد عليه وتوهنه ضربا فينبئك بالخبر »

فكاد الرشيد يتقد غيظا ونهض سريعا وصاح : « ارجوان ؟ خادم العباسة أختى ؟ »

قالت : « نعم .. خادم العباسة أختك »

فصاح الرشيد : « أين هو ..؟ استدعيه »

فصفقت زبيدة فجاءها أحد الشاكرية الواقفين ببابها فقالت :

« اذهب حالا وادع لنا ارجوان الخادم من قصر العباسة »

فأجاب مطيعا وخرج ، وظل الرشيد فى انتظاره كأنه على لظى الجمر ، وزبيدة جالسة بين يديه ، ولم يفه أحدهما بكلمة

— ٥٥ —

كشف السر

وكان ارجوان مشتغلا بالتأهب للسفر كما علمت ، وقد اطلع على سر مولاته وسبب سفرها ، وهو حريص على راحتها متفان فى سبيل مرضاتها ، فان أولئك الخصيان اذا طابت سرائرهم كانوا نعمة على مواليهم ، لأن الرجل منهم اذا أخلص النية نسى نفسه ، وانقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه . ولعل السبب فى ذلك انهم لايتزوجون فلا يعلقون آمالهم بولد أو ابنة ، فتنصرف عواطفهم الى مواليهم يسرون لسرورهم ، ويحزنون لحزنهم ، لا يبالون بما يقاسونه فى سبيل ذلك ، ولا يهمهم ان كان مولاهم على حق فيما يعمله أو على باطل . وكان أرجوان من أطيب الناس قلبا وأكثرهم تعلقا بمولاته ، ولاسيما العباسة ، فانها نظرا لما كانت تتمتع به على يده من أسباب الراحة بما يسهله لها من دخول جعفر الى قصرها وخروجه ، فانها كانت تبالغ فى اكرامه وتتلطف فى معاملته وهو يزداد تفانيا فى خدمتها

فكان ارجوان فى ذلك المساء يعد معدات السفر .. واذا بالخدم يدعونه فخرج ، فرأى شاكريا ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زبيدة فقال : « ما وراءك ؟ »

قال الشاكرى : « مولاتنا أم جعفر تستدعيك »

فقال ارجوان : « الساعة ؟.. »

قال الشاكرى : « نعم .. فى هذه الدقيقة »

فقال ارجوان : « تمهل ريثما أخبر مولاتى العباسة بذلك »

فقال الشاكرى : « لا داعى الى اخبارها ، فانها كلمة تقولها مولاتنا لك ، ثم تعود .. »

فصدقه ارجوان وخرج ، والعباسة لا تعلم ..

أما الرشيد فكان قد ملّ الجلوس فى تلك القاعة ساكتا ، فنهض وتمشى فى دهليز الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويقول فى نفسه : « ماذا عسى أن يكون ذلك الأمر العظيم ؟.» على أن ترفع زبيدة عن التصريح به واحالة ذلك الى ارجوان الخصى نبّهه الى انها فضيحة تمس العرض ..

ثم سمع حركة فى الحديقة فعلم ان الشاكرى قد عاد ، فتقدم حتى رجع الى القاعة ، وكانت أم جعفر قد خرجت منها لئلا تسمع ما يدور بين الرشيد والخصى

فدخل الشاكرى وقال : « ان ارجوان بالباب يا أميرالمؤمنين»

فقال الرشيد : « هاتوا السيف والنطع »

فأتاه الشاكرى بهما ، فبسط النطع فى الدهليز خارج القاعة ، ووضع السيف بجانبه . ثم صاح الرشيد : « أين أرجوان ..؟ أدخله »

ولما سمع ارجوان صوت الرشيد بهذه اللهجة أسقط فى يده فدخل وركبتاه تصطكان من الخوف ووقف متأدبا ، ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف من شدة الارتعاش ، ولم يجسر على أن يرفع بصره عن الأرض . فأشار الرشيد إلى مسرور بابعاد الخدم والشاكرية واغلاق الأبواب حتى لا يعلم أحد بما يدور فى هذا الشأن ، ثم نظر الي ارجوان قائلا : « برئت من المنصور ان لم تصدقنى فى حديث جعفر لأقتلنك »

فعلم انه يسأله عن أمر جعفر مع العباسة فظل ساكتا ، ولو أراد أن يتكلم لم يطعه لسانه من شدة الخوف . فصاح فيه الرشيد : « ما بالك .. تكلم والا فهذان هما النطع والسيف .. » ثم صاح : « مسرور .. »

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب بأسرع من لمح البصر، فأشار الرشيد اليه ، فتناول السيف وانتضاه ووقف بجانب النطع ينتظر أمر الخليفة ، فلما رأى ارجوان ذلك جثا عند قدمى الرشيد وأخذ يقبلهما ويبكى ، فتلطف الرشيد فى خطابه فقال له بصوت هادىء : « قل الصدق ولا تخف .. ما الذى تعلمه من أمر جعفر الوزير وأهل ذلك القصر ؟.. قل حالا .. »

فقال ارجوان وصوته يكاد يختنق ، ولسانه يتلعثم من شدة الخوف والبكاء : « الأمان يا أمير المؤمنين »

فقال الرشيد : « نعم .. لك الأمان ان قلت الصدق ، والا فاننا سوف نقتلك بهذا السيف .. واعلم اننا مطلعون على كل شيء »

فحدثته نفسه أن يحافظ على سر مولاته تفانيا فى سبيل مصلحتها ، ولكن الضعف البشرى غلب عليه ، وهو يغلب على كبار الرجال فى مثل هذه الحال ، فكيف بعبد خصى مهما بلغ من اخلاصه ؟.. على انه انتحل لنفسه عذرا لاقراره . وذلك ان الرشيد لم يسأله الا وهو يعلم كل شيء ، فاذا أنكر قتل ولم تنتفع مولاته بقتله ، أما اذا اعترف وظل حيا فقد يستطيع انقاذها ، أو خدمتها فى شيء . مرّت تلك الخواطر فى ذهنه فى لحظة واحدة ، ولما عمد الى الاقرار أحس بوخز الضمير لئلا يقع من اقراره ضرر على مولاته العباسة ، فأطرق وتشاغل ببلع ريقه ، ولا ريق فى فمه لما أصابه من الجفاف لشدة خوفه وهول موقفه ، ولاحظ الرشيد تردده ، فصاح فيه : « تكلم .. أو أقتلك .. »

فقال ارجوان وصوته يتلجلج : « ان جعفرا .. قد تزوج أختك العباسة .. منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاثة بنين .. أحدهم .. له ست سنوات ، والآخر.. له خمس سنوات ، والثالث عاش سنتين .. ومات قريبا ، والاثنان الباقيان .. قد أرسلهما الى مدينة الرسول .. وهى حا .. مل .. بالرابع .. » واختنق صوته

– ٥٦ –

الانتقام

وكان الرشيد يسمع كلامه ، والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ ارجوان من كلامه قال له الرشيد : « كيف يقع ذلك وأنت تعلم به ولم تخبرنى ؟ »

فتشدد ارجوان عند هذا السؤال لأن جوابه سهل عليه وقال : « أنت أذنت لوزيرك بالدخول على أهل بيتك ، وأمرتنى أن لا أمنعه فى أى وقت شاء ليلا أو نهارا .. »

فقال الرشيد وهو يصر على أسنانه : « أمرتك أن لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لماذا لم تخبرنى أول الأمر ؟ » (١) ثم التفت الى مسرور وقال : « اضرب عنقه »

فأمسكه مسرور بيد من حديد وقاده الى النطع بعنف ، كأن له عليه ثأرا دمويا فسقط ارجوان وهو يصيح : « الأمان .. الأمان .. »

فلم يمهله مسرور حتى يقول الثالثة ، لئلا يجيب الرشيد طلبه فيعفو عنه وهو سفاك غليظ القلب ، يلذ له منظر سفك الدماء ،

(١) إعلام الناس ١١٤

ويفتخر بعدد الذين قتلهم ، وبسرعة فتكه بهم ، فابتدر أرجوان بضربة سيف على عنقه فأزاح رأسه عن كتفيه

أما الرشيد فحوّل وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، وكانت متربعة على فراشها ، وقد أطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلا تحفزت للقيام ولم تقم . أما هو فلم يلتفت الى شيء من ذلك لما هو فيه من الحنق ، وقال وصوته يرتجف ، ولحيته ترقص وقد امتقع لونه : « أرأيت ما عاملني به جعفر ..؟ وما ارتكب من هتك عرضي وفضيحتي بين العرب والعجم »

فقالت زبيدة في صوت هادئ وجأش رابط : « هذه شهوتك وارادتك .. عمدت الى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة ، جبار في نفسه ، فأدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله ، وهي أحسن منه وجها وأنظف منه ثوبا وأطيب رائحة ، لكنها لم تر رجلا غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب »

فقال الرشيد : « ألا تزالين تعنفينني .. والله سأمحو هذا العار عني بالدماء »

فسرّها تهديده وأحبت أن تمكنه من عزمه انتقاما من جعفر فقالت : « سنرى ما يكون .. وأخشى انك اذا رأيت وزيرك غيرت عزمك اذ يغلب عليك حنان الأخوة فتعفو عنه ..! » . قالت ذلك وهي تتشاغل بتثنية أهداب كمها المزركش بالقصب ، وبان

الغضب والعتب فى عينيها

فأحس الرشيد بما ينطوى تحت تلك العبارة من القوارص ، وشعر انه صاحب الذنب وحده لأنه كثيرا ما سمع نصحها له فى هذا الشأن ولم يعرها التفاتا ، ولكنه استكبر تعريضها بذلك فى تلك الساعة ، ولولا احترامه لها ما صبر على توبيخها . ومع ذلك فقد كظم غيظه وتجلد وتنهد ونظر اليها وقال : « كفى يا ابنة العم .. فما علينا الا كتمان هـذا الخبر ما استطعنا الى كتمانه سبيلا .. وأى انسان علمت انه اطلع عليه قتلته .. الا أنت .. وقد قتلت ارجوان بعد أن امّنته ، لأنى لم أطق صبرا أن أرى رجلا يعلم بهذه الخيانة التى لطختنى بها أختى ووزيرى الذى أسميه أخى » ثم انتبه لنفسه وندم على تصريحه بما فى خاطره على جعفر، ولاسيما بين يدى زبيدة وهى أشد أعدائه نقمة عليه . فتماسك وحاول الابتسام والتجلد وقال : « ولكن الانسان موضع الخطأ والنسيان .. »

فأدركت زبيدة ما يتضارب فى خاطره من العواطف وأحست انه يهم بالخروج ، فوقفت له وحاولت اجلاسه فامتنع وودعها وهو لا ينظر اليها اما خجلا أو حنقـا . فأمسكت بيـده واستوقفته فوقف وهو لايلتفت اليها فقالت : « تمهل .. ألا تحب أن تعرف مكان الغلامين ؟ »

فأجفل الرشيد وقال : « الغلامان ؟.. علمت انهما فى المدينة »

قالت زبيدة : « كلا .. بل همـا فى مكان قريب أنا أعرفه ، وسيحضران متى شئت »

فقال الرشيد : « فى بغداد ؟ »

قالت زبيدة : « نعم .. »

فتحول الرشيد عنها وصاح وهو لايزال فى القاعة «مسرور»

فحضر مسرور أسرع من البرق ، فقال له الرشيـد وزبيدة واقفة : « هل رأيت شيئا الليلة ؟ »

فقال مسرور : « كلا يامولاى .. لأنى أعمى أصم » وهىعلامة تحريضه على الكتمان ، ثم أمره أن يأتيه بالبرذون .. وسار فى أثره فأتاه به ، فركبه وساقه نحو قصر الخلد ، ومسرور يعدو فى ركابه وقد مضى هزيع من الليل . فقضى الطريق وهو غارق فى بحار الهواجس وقد نسى نفسـه لمـا جاش فى خاطره من أمر العباسة . وأعمل فكرته فيما دهسه من الأمر العظيم ، فرأى ان ملكه وسطوته وأمواله أو أى شىء مما حازه من نعيم الدنيـا لا يخفف عنه وطأة ذلك المصاب . وحدثته نفسه أن يستقدم أخته فى تلك الساعة أو يذهب اليها ويفتك بها ، ولكنه خشىالفضيحة، فجعل يصبر نفسه الى الغد لعله يهتدى الى سبيل آخر

- ٥٧ -

التردد

أما العباسة فقد كانت فى غفلة عن كل ذلك ، تهتم باعداد معدات السفر ، وعتبة تبذل جهدها فى طمأنتها وتطييب خاطرها ، وتمنيها بما ترجوه لها من السعادة متى خرجت من بغداد ، وأقامت فى خراسان ، اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا أعملت فكرتها واستخدمت عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . اما اذا استشارت قلبها وتصورت اجتماعها بحبيبها ولا رقيب عليهما .. فيقومان بتربية الولدين فى طمأنينة وسلام ، فلا يحرمان من حبهما وحنانهما ، تبرق أسرتها وتنبسط نفسها ، ثم يعترضها غضب أخيها اذا علم بصنيعها .. فتعود الى الانقباض . وأخيرا أحست بانفراج كربتها فجأة لخاطر طرق على ذهنها يغنيها عن هذه المخاوف . وذلك أن تكتم اسمها وخبرها فى خراسان ، فتعيش مع زوجها وولديها متنكرة حتى يقضى الله بما يشاء . وكانت هذه الخواطر تخفف من مخاوفها ، ولاسيما اذا تذكرت ارجوان خادمها الأمين لأنه كان من أعظم أسباب تعزيتها

وبينما هى فى تلك الهواجس رأت عتبة تعدو نحوها والبغتة

ظاهرة على وجهها ، فخفق قلبها وتصاعد الدم الى محياها ، ولم يكن أسرع من وقوع الرعب فى ذلك القلب لما تعلمه صاحبته من الأخطار المحدقة بها من كل جانب ، ولا سيما فى تلك الساعة وهى على ما قدمناه من القلق . فلما رأت عتبة على هــذه الصــورة صاحت فيها : « ما وراءك ؟ »

فقالت عتبة : « ارجوان .. » وسكتت

فبغتت العباسة وقالت : « ماذا جرى له ؟ »

فقالت عتبة : « لا أعلم أين هو ؟ »

قالت العباسة : « أليس هو فى القصر ؟ ابحثى عنه لعله فى احدى الغرف يقوم باعداد معدات السفر .. »

فهمّت عتبة بالخروج وهى لا تنويه ، ثم عادت ووقفت متحيرة وأطرقت وهى تتشاغل بحك صدغها ، فازدادت العباسة خوفا ، وقالت : « ما بالك يا عتبة ؟.. ماذا جرى لأرجوان ؟.. قولى أين هو ؟.. »

فقالت عتبة : « لا أدرى يامولاتى ، ولكن أخبرنى أحد الخدم انه خرج من القصر و ... »

فقطعت العباسة كلامها قائلة : « خرج من القصر ؟ !.. أفى مثل هذه الساعة يتركنا ؟.. والى أين ذهب ؟ »

فقالت عتبة : « لا أعلم .. » وغصت بريقها

فصاحت العباسة : « ويحك قولى .. أين هو ؟ »

فقالت عتبة : « أظنه ذهب الى دار القرار .. »

فصاحت العباسة : « دار القرار ، ذهب الى أم جعفر ، وأى شغل له هناك ؟ »

فقالت عتبة : « أخبرونى ان شاكريا جاء فى طلبه على عجل ، ولم يمهله ريثما يستأذنك .. »

فعضت العباسة على شفتيها وأطرقت لحظة ، ثم استأنفت السؤال قائلة : « شاكرى جاء فى طلبه ؟.. وماذا تظنين سبب ذهابه ؟ »

فقالت عتبة : « أظنه ذهب لأمر مخيف .. »

فقالت العباسة : « أمر مخيف ؟.. ولماذا ؟.. قد يكون ذهابه لغرض بسيط ..! »

قالت عتبة : « بل هو ذهب لأمر مخيف .. لأن أمير المؤمنين هناك الليلة .. »

فضربت العباسة يدا بيد ، وصاحت : « أمير المؤمنين هناك ؟.. ومن أخبرك بذلك ؟.. قولى .. لقد أزعجتنى ياعتبه !.. »

فقالت عتبة : « علمت انه هناك من جاسوس لنا فى قصر الخلد جاءنى من ساعة وأخبرنى ان الرشيد ركب برذونه وجاء الى دار القرار ومعه الخادم اللعين مسرور .. ولم أنقل لك هذا الخبر فى حينه لأننى كنت منشغلة فى الاستعداد للسفر ، وكنت

أحسب مجيئه لأمر خاص به ، فلما علمت بذهاب ارجوان على هذه الصورة وقع الرعب فى قلبى فجئت اليك .. انى خائفة من عاقبة ذلك ياسيدتى .. »

فأطرقت العباسة وقد أخذ الخوف منها مأخذا عظيما ، وعمدت الى التفكير فيما سمعته .. وارتبكت فى أمرها ، فقالت : « ما الذى تخافينه من استدعاء ارجوان وأخى هناك ؟ ! .. ومع ذلك فنحن على أهبة السفر غدا »

قالت عتبة : « صدقت .. وأنا قد فرغت من الاستعداد ، ومتى رجع ارجوان ورأينا فى الأمر ما يدعو الى سرعة الذهاب خرجنا حالا .. ألا تخرجين فى هذا المساء ؟ »

فقالت العباسة : « ولكن الوزير أمرنا أن ننتظر حتى يأتينا رسوله .. »

فقالت عتبة : « سنرى .. وسأرسل خصيا يتجسس خبر ارجوان ويعود الينا سريعا »

قالت العباسة : « افعلى .. » وتحولت عنها الى الشرفة التى تعودت أن ترى رسول جعفر منها اذا جاءها بخبر .. وخرجت عتبة لارسال الخصى

— ٥٨ —

العباسة والرشيد

وقفت العباسة فى الشرفة ساعة ، وعيناها تتطلعان الى الطريق ، والظلام يحجب بصرها .. وكلما رأت شبحا ظنت انه رسول جعفر

ظلت العباسة على هذه الحال حتى مضى نصف الليل ، والهواجس تتقاذفها ، فلما استبطأت عتبة همّت أن تبعث فى استقدامها ، فاذا هى آتية تعدو مهرولة والدمع يتساقط من عينيها وقد نبش شعرها ، وامتقع لونها ، وابيضت شفتاها ، فصاحت العباسة : « ما بالك يا عتبة ..؟ ما لى أراك تبكين ..؟ ماذا حدث ؟ »

فأسرعت عتبة وأمسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة ، وهى لا تتمالك عن الارتعاش وقالت : « اذهبى ياسيدتى .. انزلى من هذه الشرفة .. أطلبى الفرار بنفسك .. »

فقالت العباسة : « ماذا جرى ؟ هل عاد الجاسوس الذى أرسلته ؟.. ماذا قال ؟ »

فقالت عتبة : « عاد .. ولم تنفعنا عودته .. انزلى من هذه الشرفة واختبئى فى الشارع ، وسأرسل اليك من يصحبك الى مولاى الوزير .. انزلى .. انزلى .. »

فاستغربت العباسة حالها ، وقالت لها : « ماذا جرى ..؟ قولى .. »

فقالت عتبة وصوتها يرتجف ويتقطع : « أمير المؤمنـــين .. يامولاتى .. أمير المؤمنين » وأومأت بيدها نحو الداخل

ففهمت العباسة ان الرشيد جاء الى القصر ، وأدركت ان الأمر بلغ أشده وان الساعة آتية لاريب فيها ، لأن أخاها لايأتيها بعد نصف الليل الا لأمر عظيم ، ولاسيما بعد تلك المقدمات .. فعظم عليها الأمر لأول وهلة فوقفت لحظة . ثم غلبت عليها عزة النفس ونسيت ما كانت فيه من الاضطراب ، وأكبرت أن تفر على هذه الصورة وهى لا تضمن النجاة . وتحولت رعدتها الى سكينة ، وثاب اليها رشدها ، وظلت واقفة مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحرضها على الفرار من تلك الشرفة .. ثم سمعت دبدبة ، ووقع أقدام كثيرة ، فاجتذبت ثيابها من عتبة وقالت : « دعينى ، فانى أحب أن أرى أخى وأسمع قوله » ثم تراجعت وهمست فى أذنها قائلة : « ارسلى رجلا سريع الخطى يمضى الى الوزير فيخبره بما جرى لنا ليكون على حـذر من أمر نفسه ، مخافة أن يصيبـه ما أصابنا .. لأن مجىء أخى بعد منتصف الليل على هذه الصورة يدل على خطر يهددنا جميعا »

قالت العباسـة ذلك ونزلت من الشرفة نحو الدار ، فلقيت الرشيد مارا فى الدهليز نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عبـاءة واسعة لأنه جاءها متنكرا ، وكان قد ذهب الى قصره على أن يؤجل أمر العباسة الى الغد ـ كما تقدم ـ فعظم عليه القلق ولم

يستطع النوم ، فبادر اليها ومعه مسرور خوفا من أن يبلغها غضبه فتعمد الى الفرار لعلمه بمن يحيط به من جواسيسها وجواسيس جعفر ، ولم يكن يتوقع أن يراها خارج الفراش .. فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر !

أما العباسة فتجلدت ورحبت بالرشيد قائلة : « لقد شرفنى أخى بزيارته ».

فلم يجبها الرشيد ، بل ظل ماشيا الى مقصورة لها فى أحد جوانب القصر تعوّد أن يجالسها فيها اذا زارها .. فتبعته وركبتاها تصطكان وهى تحاول أن تهدىء من روعها ، وقد ذهب خوفها من الموت ، لأن توقع المصيبة شر من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكمت عليه المخاوف وتحقق من وقوع الخطر ، تجلد ورجع اليه رشده .. فالعباسة تشددت وقام فى نفسها أن تناقش أخاها الحساب .. فاذا قتلت بعد ذلك فلا تندم على الحياة

وكانت عتبة تمشى فى أثرها وهى تبكى وتتمتم ، فأشارت اليها العباسة أن تنصرف لأداء المهمة التى كلفتها بها.. ورأت العباسة فى دهليز الدار مسرورا الخادم واقفا ، فلما وقع نظره عليها حيّاها باحترام فلم ترد عليه التحية لعلمها بفظاظة قلبه ــ والنساء يكرهن أهل الغلظة والخشونة بلا سبب يدعو الى الكراهية ــ وما زالت العباسة تمشى وراء أخيها الرشيد حتى دخل المقصورة وجلس على

المقعد وهو يلتف بالعباءة وعلى رأسه عمامة صغيرة من الوشى . وتوسمت العباسة فى وجهه الغضب الشديد حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه ، فتجاهلت ووقفت أمامه تنتظر ما يبدو منه

أما هو ، فقد أمرها باغلاق الباب فأغلقته ، ووقفت فى جرأة لم يعهدها فيها من قبل ، فابتدرها قائلا : « أراك فى ثياب السفر يا عباسة فالى أين ؟ »

فقالت العباسة : « الى حيث لا أرى أخا ، ولا أخاف ظلما »

— ٥٩ —

الجدال

فاستغرب الرشيد مفاجأتها اياه بهذه الجرأة على حين انه لم يكن يتوقع منها غير التذلل والتضرع ، فحمى غضبه ؛ ولكنه صبَّر نفسه ريثما يوجه اليها بعض الأسئلة ويسمع اجابتها عنها .. قال : « أتعلمين لماذا جئتك فى هذا الليل والناس نيام ..؟ الا أنا وأنت ؟ »

فقالت العباسة : « كلا .. »

قال الرشيد : « فلماذا بادرتنى بهذه الوقاحه ؟ »

فقالت العباسة : «سألتنى سؤالا ، فصدقتك فى الاجابة عنه !»

قال الرشيد : « لقد جاء الصدق متأخرا بعد الخيانه التى ارتكبتها »

فقالت العباسة : « لا أعتقد انى ارتكبت خيانة .. ولو سألتنى مثل هذا السؤال من قبل ما كذبتك »

قال الرشيد : « ألم تكونى أخت أمير المؤمنين ؟ »

فقالت العباسة : « بلى .. وأرجو أن لا أزال أخته »

قال الرشيد : « ومثلك تخون أخاها فى رجل من الموالى ؟ »

فقالت العباسة : « قلت لك انى لم أرتكب خيانه قط ، وحاشا لله أن أخون أحدا .. »

قال الرشيد : « أتجيبيننى بهذه القحة ، وقد أصبح أمرك مشهورا حتى أذللتنى بين الملأ بأمر أتيته لم يخطر ببالى ؟ »

فقالت العباسة : « وأى أمر تعنى ياهرون .. أو لعلك تعد الصدق خيانة ؟ »

قال الرشيد : « أعنى أمرك مع جعفر الوزير الذى لم يرع حرمتى ولا خشى سطوتى .. »

فأحبت العباسة عند ذلك أن تجادله بالبرهان لعله يرق لها ويعذرها ويبقيها ، فقالت : « ان الوزير لم يخرق لك حرمة ، ولا أراد بك سوءا .. فارفق يا أخى ولا تتعجل فى حكمك .. »

فصاح الرشيد فيها : « لا تدعينى أخا لك .. فانى برىء من قرابتك .. »

فقالت العباسة : « تبرأ مني ما شئت .. ولكن ذلك الرجل لم يرتكب خيانة .. »

قال الرشيد : « ويحك .. ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟.. فاعلمي أني عرفت كل شيء ، وقد صارحني ارجوان خادمك الخائن بسرك .. واذا أصررت على الانكار فان ولديكما يشهدان على ذلك .. »

فلما سمعت العباسة ذكر ولديها تحرك حنانها ، وخيل لها انها اذا أصرت على الجفاء دفعته الى ايقاع الأذى بهما ، فصغرت نفسها وضعف عزمها عن المقاومة وغلب عليها الحنان ، واستسهلت في سبيل استبقائهما أن تتذلل وتستعطف ــ وليس أشد وقعا على قلب الوالدين من أن يصابوا في أولادهم ، فاذا خافوا ذلك لا يبالون بما يضحون في سبيل انقاذهم ، ولو ارتكبوا أكبر الكبائر في هذا السبيل ، والاستعطاف من أسهل الوسائل ــ فجثت العباسة عند ركبتي الرشيد ، وأرادت أن تتكلم فسبقتها العبرات ، فظنها تهم بالاعتراف بجريمتها توطئة للاستغفار فحول وجهه عنها وقال : « قد تحققت اني مطلع على حقيقة فعلك فلم ترى بدا من الاعتراف والاستعطاف ، ولكن هيهات ، ان من يأتي ما أتيت به لا علاج له غير القتل الشنيع »

فكفكفت العباسة الدمع وتجلدت وهي لا تزال جاثية وقالت : « اني لا أستعطفك من أجل نفسي ، ولا أنا أعترف بجريمة ..

ولكننى أطالبك بحق لا أخالك تنكره »

قال الرشيد : « وأى حق تعنين ؟ »

فقالت العباسة : « تمهل يا أمير المؤمنين — ولا أقل يا أخى لئلا أغضبك — تمهل وأنا أذكر لك ذلك الحق .. »

فتجلد الرشيد وقال : « قولى .. »

فقالت العباسة : « ألم تعقد علىّ لجعفر عقدا شرعيا صحيحا ؟ »

قال الرشيد : « بلى .. ولكننى فعلت ذلك ليحل لكما أن ينظر أحدكما الى صاحبه .. وليس لما وراء ذلك »

فقالت العباسة : « وهل يجوز العقد على هذه الصورة .. ؟ واذا جاز فى رأيك أنت .. فهل يُعَد من يتم شُروطه خائنا ؟ »

قال الرشيد : « لا تكثرى من الجدل ، فانكما علمتما منذ كتابة ذلك العقد ان المراد به النظر .. لرغبتى فى مجالستكما ، لأني كنت أحبكما وأحب حديثكما .. (وهز رأسه وصرّ على أسنانه) وهذا جزاء المحبة ! »

فقالت العباسة وفى صوتها لحن الملاينة : « ولكن ألا يظن أمير المؤمنين اننا كنا بدون هذا العقد خيرا منا معه ؟ .. »

فقطع الرشيد كلامها وقال : « لاريب فى ذلك لأنكما بعد أن كنتما من أحب الناس الىّ صرتما أبغض الأبالسة عندى .. »

فقالت العباسة : « ولماذا ؟ ألأننا أتينا أمرا حلّله الله وحرمته

أنت .. أليست طاعة الله أولى من طاعة أمير المؤمنين ؟ .. »

- ٦٠ -

عذر الرشيد

فلما أحس الرشيد بأن العباسة كادت تفحمه زاد غضبه ، ليس لأنه أدرك وجه الحق عندها .. ولا هو يتعمد أذاها ظلما وبهتانا ولكن العادة غلبت على طباعه .. تعود أن لا يسمع غير التأمين على ما يقوله ، والتنفيذ لما يريده حقا كان أو باطلا ، شأن أصحاب السلطة المطلقة ، ولا سيما فى تلك العصور ، وقد كثر المتملقون الذين يتزلفون الى وليّ الأمر بالاطراء والاغراء .. لا يبالون بما قد يكون من عواقب تغريرهم ، فيستبد الحاكم المطلق بأموره فكرا وقولا وفعلا حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه ، كأنه من طينة غير طينة البشر . ويتوهم انه صاحب الحق دائما ، وان ارادته اذا أضيفت الى حقه — وان كان قليلا — تضاعف ورجحت كفته ..

فلا يلام الرشيد لاصراره على خطأ العباسة وتجاهله عن سماع حجتها ، وعذره فى ذلك انه شب على نفوذ الكلمة حتى صار الاستبداد طبيعة فيه تتغلب على عقله وسداد رأيه ، ولا سيما فى حال الغضب . فلما سمع حجة العباسة عمد الى الاستعانة بسلطته

الشخصية فقال : « ولكنني نهيتكما فعصيتمانى ، ومن عصى أمير المؤمنين حق قتله .. »

فقالت العباسة : « اذا لم يكن بد من أن تعد عملنا عصيانا .. فأنا العاصية .. وليس جعفر .. ولا .. »

فقطع الرشيد قولها وانتهرها ، وقال وكأنه يتحفز للوثوب : « أراك تحبينه وتتحملين التبعة عنه ؟ »

فتنهدت العباسة وقد هاجت أشجانها وقالت : « نعم أحبه .. ولولا ذلك ما خالفت أمرك فيه .. نعم انى أحبه وأراه أهلا لمحبتى ومحبة من هو أعظم منى لأنه من خاصة الناس ، وقد أتى أعمالا ترفع قدره فوق أقرانه ، وليس أرفع قدرا منه غير أمير المؤمنين وحده » . قالت العباسة ذلك وقد عادت اليها الانفة وأبرقت عيناها واحمرت وجنتاها كأن الخجل غلب عليها ، ومثل هـذا التصريح عظيم من نساء ذلك العصر ، ولا سيما فى حضرة الخليفة

أما الرشيد فلما سمع تصريحها ازداد استغرابا ودهشة وقال : « ويحك .. أتعترفين بحبه فى حضرتى ، ثم أنت تفضلينـه على سائر الناس حتى بنى هاشم جميعا ؟ وهو عبد ، واذا رفعت قدره فهو مولى أعجمى .. لا تجادلينى فى المحال .. فانه مقتول .. »

فلما سمعت العباسة تصريحه بقتل جعفر ارتعدت فرائصها ، وعاد اليها ضعفها وهان عليها التذلل فى سبيل انقاذ حبيبها فضلا عن ولديها . فتجلدت وأمسكت عواطفها وعمدت الى الملاينة ،

فقالت : « هرون .. أخي هرون .. بل أمير المؤمنين .. اذا كنت تنكر العباسة الآن ، فتذكر انها كانت أختك ، وكنتما تلعبان معا فى الصغر وتتحابان .. فاصغ لقولها على الأقل عن ذلك الوزير ، فانه وزيرك ، ولم يقصر فى خدمتك .. أتقتله لغير ذنب ارتكبه ، انه لم يرتكب ذنبا .. واذا لم يكن مفر من قتل أحدنا ، فاقتلنى أنا .. لأنى أنا المخطئة دونه .. »

فقال الرشيد وهو يضحك غضبا واستخفافا : « وأنت أيضا مقتولة .. وسأقتل ولديكما لأمحو أثر هذا العار من الوجود .. »

فلما سمعته العباسة يهددها بقتل الولدين اقشعر بدنها ووقف شعرها ونهضت رغم ارادتها وصاحت بصوت مختنق : « تقتلهما ؟ ما ذنبهما ؟.. انهما طفلان بريئان .. انهما ملكان كريمان لايعرفان حلالا ولا حراما .. بالله الا أشفقت عليهما ؟ » ثم ضمت يدها الى صدرها وقالت : « ولدى .. آه .. يا أمير المؤمنين .. رفقا بذينك الطفلين » . قالت ذلك وصوتها ينقطع وتكاد تشرق بدموعها ..

فلما رآها الرشيد تبكى على هذه الصورة ، تحركت فيه عاطفة الأخوة وهو والد يسهل عليه تصور عطف الوالدين . وربما جال فى خاطره وهو يجادلها ويدافعها أن يلتمس لها عذرا أو يغضى عن عملها ، ولكن ما سبق الى ذهنه مما لحقه من العار بسببها كان يعترض حنانه . وكان الرشيد من أكثر الناس غيرة على العرض

وأشـــدهم رغبة فى صيانته ، وقد يغتفر كل ذنب غير التعرض لدولته أو عِرضه .. وهو يعد عمل جعفر تعرضا للأمرين معا . وقد توهّم ان وزيره انما استولد العباسة ليكون فى أولاده دم هاشمى يساعده على طلب السلطة وهى يومئذ لا مطمع فيها لغير القرشيين . فكان الرشيد وهو يسمع استعطاف أخته ويرى عذرها يغالب عواطفه ، ولاسيما حين سمعها تدافع عن الولدين، وهو يعلم براءتهما كما تعلم هى ، ولكنه يرى بقاءهما عثرة له أو حجة عليه . فلما طلبت استبقاءهما وهى تبكى لم يلتفت الى بكائها ، بل أجابها مختصرا : « أقتلهما لأخفى هذه الخيانة من الوجود »

فعادت العباسة الى التذلل رفقا بالولدين ، فقالت وهى تبكى وتشهق : « اشفق يا أخى .. نعم يا أخى .. فانك أخى .. تذكر الرحم .. واذا كنت لا تزال تعد عملنا خيانة فاقتلنا كلينا وابق ذينك الولدين فانهما بريئان .. »

فقال الرشيد : « انهما يقتلان بذنبكما ، ولا يمحو هذا الذنب غير القتل »

فلما رأت العباسة أن الاستعطاف لايجدى نفعا ، عادت انفنها وعزة نفسها ومسحت دموعها ونظرت الى الرشيد نظرة حادة كادت تخترق صدره لولا اصراره على الغضب وقالت : « ألا تزال تعد عملنا ذنبا ونحن انما أطعنا به أمر الله ..؟ »

قال الرشيد : « لا تحاولى محالا ، فقد عصيتما أمير المؤمنين فارتكبتما خيـــانة لا صبر لى على احتمالها » ووقف كأنه يهم

بالخروج فاستوقفته العباسة وقالت : « لقد أحرجتنى يا هرون ، حتى ألجأتنى الى التصريح بما لم تتعود سماعه منى ، ولا من امرأة سواى .. كيف تحرم علينا أمرا أحللته لنفسك ؟ »

فانتهرها الرشيد ويده على قبضة خنجره قائلا : « بمثل هـذا الخطاب تخاطبينني يا وقحة وتقولين انى أرتكب مثل جريمتكما ؟ »

فقالت العباسة : « نعم .. أقول لك ذلك ولا أخاف لائما .. فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعى عقدته أنت بيدك ، ولا تحاسب نفسك ، ولا أنا أحاسبك على مثله . ولكنى أذكرك بمن فى قصرك من الجوارى والسرارى فانهن كثيرات ، ولا ترى بأسا فى التمتع بهن والشرع ينهاك عنهن .. فكيف تنهانى عن زواج رجل شرعى . أليس ذلك من الظلم ؟.. تتهادون الجوارى بالعشرات والمئات بلا حرج ولا بأس ، حتى ان نسـاءكم يهدينكم منهن ما يطيب لكم .. هذه زوجك أم جعفر قد أهدتك عشرة جوارى من أجمل النساء (١) . وقد فعلت ذلك وهى لا ترى فيه حطة ولا ذنبا لها ولا لك . ولكنكما تريان ذنبا لمثلى أن تتزوج من رجل عقدت له عليها عقدا شرعيا ، واذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل ، وهددت زوجها بالقتل أيضا ، ولا ترضى مع ذلك الا بقتل طفلين لا ذنب لهما ، ولا تقبل فيهما شفاعة من والدتهما الحزينـة التى رضيت أن تقتلها وتبقيهما .. »

---

(١) الاغانى ١٣٧ ـ الجزء السادس عشر

- ٦١ -

الفتك

فلما سمع الرشيد قولها وما فيه من الجرأة ، لم يعد يصبر على رؤيتها فانتهرها قائلا : « أراك تماديت فى القحة ، وقد أخطأت لأنى أفسحت لك مجال القول .. وقد نفد صبرى وآن لى أن أفرغ منك » ثم نادى : « مسرور .. »

فدخل ذلك الفرغانى الغليظ القلب وحسامه الى جانبه ، فلما رأته العباسة استعاذت بالله من رؤيته وتحققت من قرب منيتها فالتفتت الى الرشيد وقالت : « انى مقتولة الآن لا محالة ، وليس من يدفع عنى هذا القضاء .. فاذا كنت لا تصدقنى بدفاعى عن نفسى ، فانى أتوسل اليك أن تصدقنى فى جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له فى شيء مما تتهمه به وارفق بالطفلين .. » قالت ذلك وخنقتها الدموع

أما الرشيد فحين دخل مسرور صاح فيه : « هل أوصدت أبواب القصر وحبست أهله ؟ »

فقال مسرور : « نعم يامولاى .. »

قال الرشيد : « وأين الخادمان والفعلة الذين أتيت بهم معك؟»

فقال مسرور : « هم على مقربة منا .. هل أدعوهم ؟ »

قال الرشيد : « ادع الخادمين فقط .. »

فخرج مسرور ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقا كبيرا . فلما رأت العباسة ذلك تحققت من انها مقتولة ، والتفتت الى أخيها فرأته قد حوّل وجهه عنها وأشار الى مسرور ، فهجم عليها بالسيف فقالت لأخيها : « أنت مصر على قتلى ؟.. ألا تخشى الله فيّ ؟.. تقتلنى لأنى أطعت الله وعصيتك ، ولكنكم معاشر الرجال تحللون لأنفسكم ماتحرمونه على نسائكم.. أمن العدل أن يكون فى قصرك مئات من السرارى والجوارى وتقتلنى من أجل رجل تزوجته بشرع الله وسنّة رسوله ..؟ اننى لا أبالى أن أموت ولقد لقيتك وناقشتك الحساب » ثم خفضت صوتها وقالت : «ولكننى أبالى أن ترتكب ذلك بزوجى العزيز وولدى الحبيبين !.. » ثم ولّت وجهها نحو طريق الحجاز حيث تظن أن ابنيهما يقيمان ، وقد تعودت أن تستنشق ريحهما من تلك الجهة ، وقالت:«استودعتكما الله ياحسن وياحسين » ثم حوّلت وجهها نحو الشماسية كأنها تهم أن تناجى حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها ، والرشيد لا يلتفت اليها ، وود انه لم يشهد قتلها لأنه كان يحبها كثيرا ، وكثرة محبته لها أوجبت شدة نقمته عليها لما اعتقده من خيانتها

فلما سقطت العباسة ميّتة ، أومأ مسرور الى الخادمين فوضعاها فى الصندوق ونادى الرشيد : « أين الفعلة ؟ » فخرج مسرور وعاد بهم ، وهم عشرة من الرجال الأشداء يحملون المعاول

والزنابيل ، وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سيقانهم كأنهم من الأبالسة ، فأمرهم أن يحفروا وسط تلك المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال : « حسبكم .. هاتوا الصندوق » فأتوا به وأدلوا به فى تلك الحفرة ثم قال : « ردوا عليه التراب » ففعلوا وأعادوا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وأقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وأمر مسرورا أن يحرس القصر ، ولا يدع أحدا يخرج منه أو يدخل اليه ، فأوصى الحرس بذلك وشدد عليهم وقال : « أى انسان يأتى الى هذا المكان ، اقبضوا عليه »

ثم قال الرشيد لمسرور : « خذ هؤلاء القوم واعطهم أجرهم ، ووافنى فى القصر » ففهم مسرور انه يأمره بقتلهم فأخذهم ووضعهم فى جواليق وخيط عليهم بعد أن أثقلهم بالصخر والحصى ، ورماهم فى وسط دجلة وعاد الى قصر الخلد ، فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه ، فلما أقبل سأله الرشيد : « هل فعلت ما أمرتك به ؟ »

فقال مسرور : « قد أعطيت القوم أجورهم » (١)

قال الرشيد : « خذ هذا المفتاح وابقه معك حتى أسألك عنه » ودفع اليه مفتاح المقصورة

فتناوله مسرور وقال : « سمعا وطاعة »

---

(١) اعلام الناس للاتليدى ١١٤

وكان الصبح قد اقترب فقال الرشيد : « نحن في صباح الخميس ، وهو موعد موكب جعفر الوزير .. فلا تبعد عنى »

فأومأ مسرور مطيعا ..

- ٦٢ -

الوداع

أما جعفر فقد كان فى غفلة عن كل ذلك وهو يتهيأ للرحيل فى الغد ، وقد صمّم على السفر عاجلا بعد ما جرى من الحديث بينه وبين اسماعيل مما زاد من مخاوفه.. ولم يكن له بد من وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان على جارى العادة فى خروج العمال الى أعمالهم . وكان قد أعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج ، فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال له : « انك تعلم اننا مسافرون اليوم .. »

فقال حمدان : « نعم يامولاى .. فهل أذهب الى مولاتى العباسة فآتى بها الى هنا ، أو نوافيك الى النهروان ؟ »

فاستحسن جعفر سرعة خاطره وتيقظه فى خدمته ، فابتسم وقال : « بل أرى أن توافيانى الى النهروان ، وليس هناك ما يدعو الى العجلة فى الذهاب اليها . والأفضل أن تؤجل ذلك الى حين عودتى من وداع الخليفة .. »

فقال حمدان : « أمرك ياسيدى .. »

فلما كان الضحى خرج جعفر فى موكبه الحافل وحوله الفرسان

والركابية حتى أقبل على قصر الخلد ، فوسعوا له فدخل الأبواب بالأبهة والعظمة على جارى العادة وهو يقول فى نفسه : « هذه آخر مرة أدخل فيها هذه الأبواب للقاء رجل أداجيه ويداجينى ، فمتى صرت الى عملى فى خراسان كنت بين أهلى وأعوانى ولا نظننا نلتقى بعد الآن الا اذا جاءنى لحرب .. » وما لبث أن وصل الى دار الخاصة فترجّل

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على اختلاف مناصبهم وانصرفوا حتى دخل جعفر وسلّم ، فرد عليه الرشيد التحية بأحسن منها ورحب به وضحك فى وجهه ، وأجلسه فى مرتبته ، وكانت أقرب المراتب اليه . وأخذ يحدثه ويلاطفه ساعة وهو يظهر البشاشة والاستئناس . وأتوه وهو هناك بكتب وردت من النواحى فقرأها على الرشيد وأمضاها . ثم نظر اليه وهو يظهر الامتنان من احتفائه به وقال : « لقد غمرنى أمير المؤمنين بنعمه وأعلا مقامى حتى أسند الىّ أعظم عمل من أعمال دولته ، فوجب علىّ شكره .. »

فضحك الرشيد ومازحه وقال : « انك أخى .. ولو قسمت هذه المملكة بينى وبينك لأنصفتك .. »

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الاطراء ، وتأدب وتلملم فى مقعده وقال : « انى من موالىَ أمير المؤمنين .. وكل ما يأتينى منه انعام وتفضل على مولاه » ثم قال : « وان أقصانى أمير المؤمنين

عن مجلسه فانى عبده أبذل دمى فى طاعته »

فقال الرشيد : « بورك فيك .. ولاشك انى سأشعر بافتقارى الى رأيك بعد أن توليت أمور الدولة وتركتنى لا أهتم بشىء من أمر نفسى »

فلما سمع جعفر قوله تذكر انها نفس العبارة التى قالها لاسماعيل حينما باحثه أمس فوخزه ضميره .. وخشى أن يكون كلامه قد بلغ الرشيد ، ولكنه استبعد أن ينقله اسماعيل ، ولم يدر فى خلده ان ذلك الغلام كتب به اليه مع علمه انهم يتجسسون ، كل واحد على صاحبه ، على انه لم يعمل فكرته فى ذلك لاعتقاده بقرب النجاة من هذه المخاوف بالخروج الى خراسان ، فأظهر شكرا لاطراء الرشيد وقال : « مهما بذل العبد فى خدمة مولاه فلا منّة له ولا فضل »

ومكث جعفر ينتظر أمر الرشيد بانصرافه الى خراسان لأن التأدب يقضى أن يبدأ الخليفة بذلك ، فلما لم يسمع منه شيئا فى هذا الشأن قال : « هل يأذن لى أمير المؤمنين بالانصراف ؟ » . ولم يذكر خراسان فقد تحتمل عبارته على انه يطلب الانصراف الى منزله

فقال الرشيد : « هل تهيأت للسفر الى عملك ؟ »

قال جعفر : « نعم ياسيدى .. »

فقال الرشيد : « وهل تنوى الذهاب فى هذا اليوم ؟ »

قال جعفر : « اذا أمر أمير المؤمنين .. »

وكان الرشيد يريد تأخيره بحيلة ريثما يدرك غرضه ، فمتى أراد الفتك به كان قريبا منه لأنه ظل حتى تلك الساعة مترددا فى ذلك الأمر ، لما يعلمه من أحزاب البرامكة .. حتى بنى هاشم أنفسهم كان أكثرهم يحبونهم ، فعلم ان الفتك بجعفر يقتضى الاحتياط واعمال الفكرة ، فهو ليس كالفتك بالعباسة .. فرأى أن يحتال فى تأخير سفره ، فقال له : « وهل استطلعت ارتفاع نجمك فى هذا النهار ؟ »

قال جعفر : « كلا يامولاى » وكانوا شـديدى التمسـك بالطوالع يعتقدون بالسعد والنحس فى النجوم باختلاف الساعات، وكانت منازل الكبراء لا تخلو من اسطرلاب لاخراج الطالع عند اللزوم ، وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة ورثه عن جده أبى جعفر المنصور لأنه كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين ، وكان الاسطرلاب موضوعا على رف من الأبنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة ، وكان له المام بهذه الصناعة وجعفر أعلم منه ، فبادر الرشيد حينئذ الى الاسطرلاب وأمر الحاجب أن يأتيه ببعض المنجمين.. فما لبث أن جاء بأحدهم ، لأنهم من جملة أرباب الفنون المقيمين فى قصر الخلد على عادة الخلفاء فى ذلك العصر

فلما دخل المنجم قال له الرشيد : « كم مضى من النهار ؟ »

فقال المنجم : « ثلاث ساعات ونصف ساعة .. »
قال الرشيد : « خذ الارتفاع ».
فأخذه المنجم وأخبر الرشيد ، فجعل الرشيد يحسب له ذلك بنفسه ونظر الى نجمه ثم التفت الى جعفر وقال : « يا أخى هذه ساعة نحس لا أرى الا انه يحدث فيها حدث ، فالأوفق أن تؤجل سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة فتصلى وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق فى النهار فانه أصلح من اليوم »

فشق هذا التأجيل على جعفر ، وأخذ الطالع وحسبه لنفسه وربما رأى غير ما قاله الرشيد.. لكنه ليس من آداب مجالسة الخلفاء أن يراجعوهم أو يخطئوهم ، ولعل الرشيد أدرك ذلك فلم يقبل حساب المنجم فحسب الطالع بنفسه

فقال جعفر : « صدقت يا أمير المؤمنين ، ان هذه الساعة ساعة نحس .. وما رأيت نجما أشد احتراقا ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ، ورأى أمير المؤمنين صواب »

ولبث جعفر ينتظر أمر الانصراف على عادة الخلفاء ، فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره ، والناس والقواد والخاص والعام ، من كل جانب يعظمونه ويبجلونه فى داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفى كل مكان ، والكل غافلون عن حقيقة حاله وما يحدق بحياته من الخطر . وأكثر ما يشاهده الناس من

مظاهر السعادة فى أهل الدولة أو أرباب الثروة يقدرونه فوق قدره لأنهم غافلون عما يشوبه من المتاعب والأخطار

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يصدق انه سيستقل بعمله فىخراسان ، ويعيش آمنا بين أهله وأعوانه ، ومعه زوجته العباسة وابناهما ، وينجو من دسائس أهل البلاط وما يهدده من خطر على حياته

فلما وصل جعفر الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان ، فلما أتى أخبره بتأجيل السفر الى الغد ، وأوصاه أن يهتم بأمر العباسة فيبقى فى الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضى الى قصرها ومعه الركائب يحملها ، ومن شاءت نقله معها الى النهروان ، أو يسير بها الى ما وراء ذلك لتكون فى مأمن ، وهو يعلم انها تحب أن تصطحب عتبة وارجوان . ولكن حمدان لا يحتاج فى مثل هذا الى توصية لذكائه واخلاصه .. ثم خلع جعفر ثيابه وجلس للراحة

- ٦٣ -

عتبة وحارس القصر

أما عتبة فكانت قد أمرتها العباسة ساعة مجيء الرشيد أن تبعث الى جعفر ، فتخبره بما يهدده من الخطر لعله ينجو بنفسه . فمضت الى غرف الجوارى والخدم ، لترسل أحدهم فى هذه المهمة ، فرأت القصر محاطا بالحرس ولا سبيل الى الخروج ، فعظم عليها الأمر وذهبت الى غرفتها ترتعد خوفا على سيدتها بعد ما شاهدته من مجيء الرشيد على تلك الصورة ، وأخذت تفكر فيما دهمها من الأمر ، وأيقنت أن سيدتها ستصاب بشر عظيم ، ولم تعلم انها مقتولة بعد قليل .. وما أن تحققت من قتلها حتى بكت وندبتها وعلمت ان الخطر سيمتد اليها ، ولكنها احتقرت حياتها بعد هذا المصاب .. وأصبح همها أن تنفذ وصية سيدتها الى جعفر لأنها لم تكن تشك فى قتله بعد قتل العباسة ، فلا بد من أن تنبهه الى ذلك لينجو بنفسه .. فأعملت فكرتها فى وسيلة تنذره بها ، فرأت السبل مقفلة فى وجهها .. فزادت حيرتها وطلع الفجر وهى تطوف من غرفة الى غرفة .. وهى تبكى وتندب

ثم رأت ان البكاء لا يجديها نفعا ، وأحست ان خير ما تفعله فى تلك الساعة أن تسعى فى الخروج من القصر ، فاذا خرجت نجت

من القتـــل وأبلغت الخبر الى جعفر ، وفى نجاته تعزية لها على مصابها فى سيدتها.. وانتقل فكرها فجأة الى أبى العتاهية لاعتقادها انه سبب هذه المصائب كلها ، فلعنته وتذكرت ماكان من حبه لها ، وكيف طلبها من الخليفة وأبت المجىء اليه .. فخيل لها انها اذا وفقت الى مقابلته فلربما استرضته باظهار حبها له وهو لايعجز عن اخراجها من ذلك القصر ، لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم ، فاذا خرجت لا تعدم وسيلة فى الوصول الى جعفر . وتذكرت رغبة أبى العتاهية فى المال وهو كثير بين يديها ، فاذا لم تستعطفه بالحب أغرقه بالمـــال .. ولما تصورت ذلك أحست بارتيـــاح . ولكنها ما لبثت أن عادت الى الانقباض لأنها لا تعلم أين هو أبو العتاهية فى تلك الساعة ، ولا كيف تصل اليه

ثم خطر لها ان المـــال يذلل الصـــعاب ويلين أغلظ القلوب فعزمت على بذله فى أقرب الأسباب ، فأخرجت عقدا من الجوهر كان فى جملة ما جمعته من حلى مولاتها للسفر ، وتنكرت فى ثوب غريب .. وتقنعت بخمارها ولبست خفها ، وخرجت تطلب باب القصر ، وهى تتجاهل الأوامر بالاحتفاظ به مغلقا .. فلما بلغت الباب ووجدته مقفلا قرعته ونادت البواب الذى كان عليه من عهد مولاتها العباسة فلم يجبها أحد .. فقرعته ثانية ، ففتحت الخوخة وأطل منها رجل عرفت انه حارس من جند الرشيد فقالت له : « أين البواب ؟.. ما بالكم أقفلتم علينا الأبواب ؟ »

فأقفل الحـارس الخوخة وتحوّل وهو يقول : « ادخلى .. لا سبيل الى الخروج »

فقالت عتبة : « ويلاه .. ولماذا ؟ »

فصاح فيها الحارس : « ادخلى ولا تكثرى من الكلام ، فان القصر مقفل بأمر أمير المؤمنين »

فصفقت عتبة وصاحت : « ما الذى جاء بى اليه ..؟ »

فأدرك الحـارس من ذلك انها ليست من أهل القصر ، ففتح الخوخة ونظر اليها فرآها تبالغ فى التقنع وهى تقول : « بالله عليك الا فتحت لى وأطلقت سبيلى فانى لم أرتكب ذنبا ، ولا أنا من أهل هذا القصر »

فقال الحارس : « وما شأنك ؟ »

قالت عتبة : « جئت البارحة فى مهمة الى مولاتنا العباسة ، وخيّم الظلام قبل الفراغ منها ، فقضيت ليلتى مع بعض الجوارى وأنا عازمة على الخروج الى سيدى لئلا يستبطئنى ويسىء بى الظن .. »

فقال الحارس : « ومن هو سيدك ؟ »

قالت عتبة : « سيدى .. أبو العتاهية شاعر أمير المؤمنين »

فلما سمع الحارس اسمه استأنس به لشهرته ؛ والشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء

فقال الحارس : « وما الذى جئت به من قِبله ؟ »

فأظهرت عتبة انها تخشى التصريح بذلك .. وظلت ساكتة

فقال الحارس : « ما بالك لا تجيبيننى ؟ »

قالت عتبة : « جئت من قِبله فى مهمة الى مولاتنا العباسة .. و .. و .. فافتح لى ولا تعطلنى ، حفظك الله وأبقاك .. »

فلم يشك الحارس فى انها تقول الصدق ، فأراد العبث بها فقال : « أتيت فى مهمة سرية ؟.. اذن امكثى فى مكانك .. واحفظى سرك معك » .. قال ذلك وأغلق الخوخة ..

فصاحت عتبة : « أستحلفك بالله أن تفتح لى ولا تضايقنى ، فقد كفانى تأخرى الليلة الماضية ، ولا آمن من شر أتوقعه بسببه ، فكيف اذا تأخرت الليلة أيضا ؟ »

فعاد الحارس وفتح الخوخة وقال لها : « لا أطلق سراحك الا اذا أخبرتنى عن السر الذى جئت به .. »

قالت عتبة : « أراك تعبث بى وقلبك مستريح ، وأنا قلقة ، فاذا لم تصدق قولى فانى أستشهد بمولاتى العباسة عليه .. ألا تصدقها ؟ »

فزاد الحارس تظاهرها بالسذاجة اعتقادا بصدقها ، ولكنه تذكر تشديد الرشيد عليه ، فخاف أن يخرجها ويتحمل تبعة ذلك فقال لها : « هذا لايهمنى فانى مأمور بمنع أهل هذا القصر من الخروج والسلام » وأراد اقفال الخوخة فأمسكتها عتبة منه وحاولت

فتحها وهى تقول : « واذا أخبرتك بسبب مجيئى ، فهــل تطلق سراحى ؟ »

قال الحارس : « وما هو ؟.. قولى .. »

فقالت عتبة وهى تخفض صوتها : « أظنك تعلم أن أبا العتاهية .. ان أبا العتاهية أبطل نظم الشعر .. »

قال الحارس : « نعم .. أعرف ذلك »

فقالت عتبة : « وأظنك تعلم انه يحب المال .. »

قال الحارس : « انه مشهور بذلك »

فقالت عتبة : « فاذا أراد المال نظم القصائد سرا لبعض الأمراء فنظم أمس قصيــدة فى مدح العباسة وبعثها معى فحملتها اليها مساء أمس ، فدفعت الىّ الجائزة وأكرمتنى بالمبيت هنا .. ليتها لم تفعل .. » وهزت رأسها

فقال الحارس : « وما هى تلك الجائزة ؟ »

فتظاهرت عتبة بالخوف من التصريح وتوقفت عن الجواب ، فابتدرها الحارس قائلا : « لِمَ لا تقولين ؟ »

فقالت عتبة بلهجة الخائف المستعطف : « بلى .. » ومدت يدها الى جيبها فأخرجت العقد فأبرق بين أناملها كالشــمس ، فمد الحارس يده ليتناوله فأسرعت فى ارجاعه الى جيبها ، فقال لها الحارس : « أرينى اياه .. »

فدفعته عتبة اليه وهى تظهر خوفها عليه .. فتناوله وأخذ يقلّبه

ويعجب به وهو يقول لها : « انه عقد ثمين ولكن .. هل تظنين انى أخرجك بهذا العقد ، وأنا لا أملك جوهرة من جواهره ؟ »

فقالت عتبة وهى ضاجرة : « يهمنى الخروج والسلام »

فلما رآها الحارس تتلهف على الخروج قال لها : « اذا شئت الخروج ، فاخرجى وحدك ! »

فقالت عتبة للحارس : « وماذا أقول لأبى العتاهية ؟ »

قال الحارس : « قولى له ان مولاتك العباسة لم تعطك شيئا »

فسرها قبوله ذلك .. ولكنها قالت له : « ولكنه لا يصدقنى .. وأرى أن أنصف بينكما ، فأعطيك نصف الجائزة وأحمل اليه نصفها الآخر »

ففرح الحارس بذلك ، وبادر فى الحال فقطع العقد وأخذ معظمه ودفع اليها بالباقى وقال لها : « يكفيك هذا القدر .. فاذا أعجبك ذلك فاخرجى ، والا فادخلى »

فأطرقت عتبة لحظة ثم قالت له : « بل أخرج .. وأحسب انها لم تعطنى شيئا »

فسر الحارس لفوزه بتلك الجواهر ، وفتح الباب وقال لها : « اخرجى ، ولكن احذرى أن تخبرى أحدا بخروجك فانك تقتلين لا محالة »

فخرجت عتبة وهى لا تصدق انها نجت ، وقلبها يكاد يطير فرحا باطلاق سراحها من ذلك الأسر ، وأملا فى نجاة جعفر ، وكان

الحارس أكثر فرحا منها . وكانت الشمس قد أشرقت فأسرعت لا تلوى على شيء ، واكترت حمارا وركبت قاصدة قصر جعفر بباب الشماسية

- ٦٤ -

الدعوة

أما جعفر فتركناه فى قصره ، وقد خلع ثيابه للراحة ثم خطر له أن يجلس للصبوح ، وهو مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحا. فأراد أن يودع بغداد به ، فأمر باعداد المائدة وجاءوه بالشراب وسأل عمَّن فى داره من المغنين ، فقالوا له : « ان أبا زكار الأعمى هنا » فقال : « الىّ به » . فدخل ونصبت الستارة واستدعى جواريه ليغنّينه فيتودع من مجالستهن فى دار السلام ، لاعتقاده انه مسافر فى صباح الغد . فأخذ أبو زكار يغنّى ، والجوارى يضربن على العيدان ، وجعفر يشرب ويطرب ويظن ان النـــاس غافلون عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من ذلك أكثر مما يعلمه هو ولاسيما المغنّين ؛ فقد كانوا يطلعون على أسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الأنس التى يدور فيها الشراب ، فاذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم ، والمغنون يتجاهلون ذلك ويكتمونه خوفا على حياتهم . فالرشيد مع تكتمه فى أمر جعفر لم يكن ليخفى سره على مغنّيه الموصلى حتى قيل انه سأله ذات مرة وهو فى أحد مجالسه : «بماذا يتحدث الناس ؟» فأجابه الموصلى : « يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولى

الفضل بن الربيع الوزارة (١) » فانتهره الرشيد وصاح فيه قائلا : « ما أنت وذاك ؟ ويلك ! »

وكذلك أبو زكار الأعمى ، فان عماه كان يحفز جلساءه على التصريح بأكثر مما يصرحون به أمام سواه ، فكان على بيّنة بما يحيط بجعفر من الخطر ، وربما ألمع الى ذلك فى بعض غنائه فلا يلاحظه غير العارفين .. فلما دعاه الى الغناء فى ذلك اليوم غناه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى
عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوما
وان بقيت تصير الى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالى
فديتك بالطريف وبالتلاد (٢)

فلما سمع الحضور قوله أدركوا مراده ما عدا جعفر . وما أتم أبو زكار غناءه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر : « ما بالك ؟ »

فقال الحاجب : « ان مسرورا خادم أمير المؤمنين بالباب .. »

فلما سمع اسمه أجفل لأنه كان يبغضه ويستثقل ظله ، لكنه

(١) الاغانى ١٠٣ – الجزء الخامس
(٢) ابن خلكان ١٠٩ – الجزء الاول

لم يسعه الا الاذن له فى الدخول ، فدخل .. فصاح فيه جعفر :
« ما وراءك ؟ »

فقال مسرور : « أمير المؤمنين يستدعيك ياسيدى .. »

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال له : « ويلك يا مسرور ، أنا خرجت من عنده فى هذه الساعة .. فما الخبر ؟ »

فقال مسرور : « وردت كتب من خراسـان ، يريد منك أن تقرأها له .. »

فاطمأن خاطر جعفر قليـلا ، فنهض وهو يقول فى نفسـه : « كنت أحسب مقابلتنا فى هذا الصباح آخر مرة ألاقى فيها هذا الرجل فى بغداد ، فاذا أنا مضطر للقـائه مرة أخرى .. لا حول ولا قوة الا بالله .. »

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وأمر أن تعد له الركائب وخرج وانفضّ المجلس .. وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف بحيث يراه ويفهم انه يريد مخاطبته ، فتحول جعفر اليه وسـأله عن غرضه فقال : « ان عتبة جارية مولاتنا العباسة فى دار النساء تطلب أن تراك »

فخطر له ان عتبة جاءته من عند مولاتها العباسة للتداول فى شأن السفر فقال : « قل لها انى راجع الساعة فأخاطبها بما تريد »

فقال الحاجب : « انها تطلب مقابلتك حالا .. »

فخطر له أن يقابلها ويسألها عن شأنها ، ولكنه خشى أن يلاحظ

مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف برهة يتردد فى الأمر ، ثم تذكر ريحان وانه يعلم بكل ما يتعلق بالسفر ، فقال للحاجب : « دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده ، فهو مفوض من قِبلِنا »

فأشار مطيعا ، وخرج جعفر حتى بلغ باحة القصر .. فركب فى موكبه من الفرسان والغلمان وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته ، وحوله الفرسان من نخبة رجاله ، وأكثرهم من الفرس ، وكلهم يفدونه بأرواحهم ، وكان اذا ركب اعتزّ بهم .. فقطعوا الشماسية حتى أتوا الجسر فتخطوه وأقبلوا على الميدان أمام قصر الخلد . فلما وصلوا باب القصر ترجّل مسرور وأشار الى فرسان الموكب أن يقفوا هناك فوقفوا وهم فى غفلة عما يريد ، فدخل مسرور وجعفر والغلمان فى ركابه ولم يفطن لاشتغال خاطره بأمر تلك الدعوة . ولما دخلوا أومأ مسرور سرا الى الحراس فأغلقوا الباب ، وكانوا قد أحيطوا علما بذلك قبل ذهابه .. ثم دخلوا الباب الثانى فاستبقى الغلمان خارجه ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده . ولم يبق معه أحد من رجاله ، فندم على ركوبه فى تلك الساعة وقد تعذر عليه الرجوع . ورأى فى فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بأمر الرشيد ، وحولها أربعون غلاما من السودان .. فظن أن الرشيد

ينتظره فيها ، فدخلها فلم يجد أحدا ، وانما شاهد فى أرضها سيفا ونطعا فأيقن بالهلاك ، ووقف وركبتاه ترتعدان وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه لعلمه بوحشية مسرور ، وانه لو أراد مقاومتــه لا يقوى عليه . وهب انه غلبه فلا فائدة من فوزه وهو محصور فى تلك الدار ، فعمد الى الملاينة فقال لمسرور : « ما الخبر يا أخى ؟»

فضحك مسرور فى استخفاف وقال : « أنا الساعة أخوك ، وفى منزلك تقول لى : ويلك .. أنت تدرى ما القضية .. وما كان الله ليهملك ولا يغفلك .. فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة »

فلما سمع جعفر قول مسرور بهذه الصراحة ، اقشعر بدنه وكاد الدم يجمد فى عروقه وغلب عليه صغر النفس ، ولعل ذلك الضعف طرأ عليه من الشرب ــ ويتوقع القارىء أن يرى من جعفر الوزير ثباتا ورباطة جأش فى هذا الموقف شأن الرجل الكبير ــ ولكن الانغماس فى الترف والخمر يضعف القلوب ويوهن العزيمة ، فلا صبر لصاحبهما على التجلد اذا تحقق من وقوع الخطر ، ولاسيما ســاعة خروجه من مجلس الشراب كما كان حال جعفر فى ذلك الصباح ــ فلما سمع مسرورا يخاطبه بهذه اللهجة الشديدة لم يتمالك عن الترامى عند قدميه وأخذ يقبلهما ويقول : « يا أخى مسرور أنت تعلم مدى اكرامى لك ، دون جميع الغلمان والحاشية ، وان حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف مكانتى

من أمير المؤمنين وما يفضى به الىَّ من الأسرار ، ولعلهم بلّغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن أقوم من موضعى هذا .. واتركنى أهيم على وجهى .. »

فقال مسرور : « لا سبيل الى ذلك أبدا .. »

قال جعفر : « احملنى الى أمير المؤمنين وأوقفنى بين يديه .. فلعله اذا وقع نظره علىَّ تتداركه الرحمة فيصفح عنى »

فهز مسرور رأسه ، وقال : « ما من سبيل الى ذلك أبدا ، ولا يمكننى مراجعته .. وقد علمت انه لا وسيلة الى بقائك على قيد الحياة بأية حال »

قال جعفر : « امهلنى ساعة .. وارجع اليه ، وقل له انك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ، وعد فافعل ما تريد .. فان فعلت ذلك وحصلت لى السلامة فانى أشهد الله وملائكته انى أشاطرك نعمتى مما ملكته يدى وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا »

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطر فى باله ان الرشيد ربما أمر بالقتل فى ساعة غضبه ، فاذا سكن غضبه يغير رأيه ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الأموال ويتمتع بهذا المنصب ، فأطرق .. فلما رآه مطرقا طمع فى الحياة ، ولبث ينتظر ما يبدو منه .. فاذا هو يقول : « ربما يكون ذلك » ومد يده اليه فحل سيفه ومنطقته وأخذهما وعهد به الى الحراس الواقفين هناك ، وأوصاهم بحراسته وخرج

فلما خلا جعفر الى نفسه ، تلفّت فلم ير غير النطع والسيف فرجع الى رشده ، ومع ما يغلب على المرء من الأمل فى الحياة مهما بلغ من تعرضه للخطر فجعفر لم يكن يرجو نجاة لما يعلمه من الأسباب التى بعثت الرشيد على قتله بعد ما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة .. وأيقن فى تلك الساعة ان الرشيد يعلم بصلته بالعباسة .. ثم تذكر مجيء عتبة بتلك العجلة .. فندم على استمهالها ريثما يعود ، وخطر له أن تكون قد جاءت بتحذير أو تنبيه كان ينفعه لو اطلع عليه قبل خروجه ، فزادت مصيبته وأصبح كأنه يرى الموت رأى العين ، وهاجت أشجانه فتمثلت له العباسة كما فارقها للمرة الأخيرة وقد تواعدا على الفرار إلى خراسان ، وتذكر ما كان يرجوه من النجاة بها وبولديه لو سافر بالأمس بغير وداع ، أو لو قابل عتبة قبل خروجه . فضاق صدره وتجسمت مصيبته فدهمه البكاء ، وود لو انه يرى العباسة قبل موته ويقبّل طفليه قبل هذا الفراق الأبدى . فأخذ فى البكاء وجعل يخاطب نفسه قائلا : « وا حسرتاه عليك أيتها الحبيبة ، بل وا لهفى على قبلة من ولديّ ..! قضيت العمر أتحرّق على ساعة ألاعبهما فيها كما يلاعب الأب أولاده ، فلما ظننت ذلك قريبا فاذا هو بعيد عنى بُعد الأبدية — وأنت يا زوجتى بشرع الله .. وان ادّعى أخوك الرشيد خيانتنا — لقد تحمّلت خطر الموت من أجلى وعرضت نفسك لغضب هذا الرجل المستبد حبا لى .. نعم ، لم يحملك على

ذلك غير الحب الصادق ولولاه لكنت فى نعمة وسعادة ، لأن بنى هاشم جميعا يتمنون رضـاك .. ماذا عسى أن يكون حالك اذا عرف أخوك الرشيد بأمرنا فانه يقتلك لا محالة .. اذا لم يكن قد قتلك الآن .. هل جاءت عتبة لتخبرنى بقتلك وتحذرنى من مثله رفقا منك بحبيبك أن يصيبه ما أصابك ؟ ربما كان ذلك .. وأنت جديرة بهذه الخصال . فقد عرفت تفانيك فى سبيل حبى غير مرة .. فاذا كنت قد قضيت نحبك قبلى فأنا نادم على طلب البقاء ، بل أنا راغب فى اللحاق بك .. واذا كنت لا تزالين على قيد الحيـاة فأنت لاحقة بى لا محالة لأن أخاك لم يسرع الى الفتك بى الا وقد اطلع على ما يظنه خيانة .. والله يعلم اننا انما أطعنـا به الشرع وشروط الحب » وسكت لحظة ريثما يبلع ريقه ويمسح دموعه ثم قال : « وولدانا ؟.. ياحسن وياحسين .. أين أنتما الآن ؟.. هل تعلمان بما حل بوالديكما على يد ذلك الخال الظالم ..؟ آه من استبداده وقسوة قلبه .. » قال ذلك وغص بريقه وأحس باختناق صوته واذا بالمفتاح يعالج الباب . فأجفل وانتبه لنفسه .. فسكت وبصره شاخص نحو الباب ، حتى اذا فتح دخل مسرور ووجهه مقطب فعلم انه لم ينجح فى مهمتـه ، وهمّ أن يخاطبه فسمعه يقول : « ذهبت الى أمير المؤمنين فلما رآنى سألنى عنك فقلت له قد أنفذت أمرك فيه .. فقال : ائتنى حالا برأسه .. »

فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال له : « افعل ما بدا لك ،

ولكننى أسألك سؤالا واحدا أصدقنى فى الاجابة عنه وأنا فى آخر لحظة من لحظات الحياة »

فقال مسرور : « وما ذلك . ؟ »

قال جعفر : « ماذا جرى للعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف من وشاية ، فان سامعك مقتول .. »

فقال مسرور : « ان العباسة قتلت .. »

فصاح جعفر : « قتلت !.. اقتلنى .. عجِّل بقتلى .. لا رغبة لى فى الحياة »

ولم يتم جعفر كلامه حتى ضربه مسرور بالسيف على عنقه فأطار رأسه ، فحمل الرأس وهو ينقط دما وذهب به الى الرشيد

– ٦٥ –

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت ان الرشيد هو الذى أمر مسرورا أن يفعل ما فعله ودبر هذه الحيلة فى ادخال جعفر قصر الخلد منفردا على تلك الصورة الى القبة التركية .. وكان قد أمره باقامتها فى صباح ذلك اليوم على أثر خروج جعفر من دار الخاصة ، وذلك ان الرشيد ظل بعد خروجه ساعة يخطر فى تلك الدار ذهابا وايابا ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الأمر العظيم ، ويتردد بين التعجيل والتأنى ، لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون أرواحهم فى سبيل نصرتهم . ولكنه أصبح بعد توالى قلقه وطول سهره وهو لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولا يزداد الا نقمة وغضبا — والأرق وحده يورث ضيق الخلق وحدة الطبع مع ضعف القلب فكيف اذا رافقه القلق والاضطراب — فخاف الرشيد اذا أجّل الفتك به ، أن يعلم جعفر بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع ، وربما انقلب الأمر الى عكس ما يريد . وكان من الجهة الأخرى يحب جعفرا حبا شديدا ، وقد ربيا وعاشا معا على غير كلفة .. وكان يعده أخا له فيشق عليه قتله . ولكنه كلما خطر الحب فى ذهنه اعترضه

ما أحفظه عليه من خيانته ومس عرضه ، فيقف شعره ويقشعر بدنه فلا يرى راحة الا بالاصرار على قتله

قضى فى ذلك حينا وهو يتمشى فى الدار منفردا ، واستغرق فى تلك الأفكار حتى نسى نفسه .. ولو دخل عليه أحـد فى تلك الساعة لرآه يسرع فى مشيته تارة ويبطىء أخرى ، وهو بين اطراق وتصويب يحك ذقنه أو يشير بأنامله تهديدا أو وعيدا أو استمهالا وترددا ، لاينتبه لشىء مما يكسو جدران تلك القاعة من الستائر المطرزة أو الطنافس الموشاة ، كأنه لايرى من الألوان غير السواد . وربما وقف لحظة أمام ستارة ليقرأ ما عليها من الشعر أو ينظر فيما يكسوها من الأشكال ، وقد يقرأ البيت أو الفقرة فلا يدرك لها معنى .. لاستغراقه فى الهواجس ، فاتفق انه وقف أمام اسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزا عزيمته وقضيا بتنفيذ أمره وهما :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد

وكان مترددا وقد تضارب فى ذهنه الاقدام والاحجام ثم تساويا كأنهما فى كفتى ميزان .. واذ توازنا ، فان أى شىء يضاف الى احدى الكفتين يجعلها ترجح . فما فرغ من تلاوة هذين

البيتين حتى رجح عنده الاقدام فصمم على الفتك به ، فصاح : «مسرور» فدخل بأسرع من لمح البصر، فأوصاه بما يعمله على نحو ما تقدم ومكث فى القاعة ينتظر رجوعه وهو على أحر من الجمر ، حتى جاءه بالحيلة التى انتحلها جعفر لعله يصفح ، فرده واستعجله بالقتل .. فرجع وضرب عنقه وحمل رأسه وهو قابض عليه من لحيته ، فتدلى الرأس مقلوبا والدم ينقط من أوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره

دخل مسرور بالرأس ، والرشيد جالس على السرير ، فطرحه على وسادة بين يديه وتنحى فى أحد جوانب الدار. فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس أحس بزوال الخطر ، ولكنه لم يتمالك عن الأسف .. فامتقع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب بينهما . فنظر الى الرأس هنيهة وبيده قضيب من الأبنوس المطعم بالعاج تعود أن يتسلى به وهو جالس ، فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلا : « ياجعفر .. ألم أضعك موضع نفسى ؟ يا جعفر ما كافأتنى .. ولا عرفت حقى .. ولاحفظت عهدى .. ولا ذكرت نعمتى .. ولا نظرت فى عواقب الأمور .. ولا فكرت فى صروف الدهر .. ولا حسبت لتقلبات الأيام واختلاف أحوالها حسابا .. ياجعفر خنتنى فى أهلى وفضحتنى بين العرب والعجم .. ياجعفر أسأت الىّ والى نفسك .. وما فكرت فى عاقبة أمرك..» وكان يقول ذلك والقضيب بيده ينكت به البساط أو ينقر به



« قال الرشيد : .. ياجعفر خنتنى فى أهلى وفضحتنى بين العرب والعجم
.. ياجعفر اسات الى والى نفسك.. وما فكرت فى عاقبة أمرك .. »

أسنان جعفر كأنه يستنطقه ، ومسرور واقف يسمع ويرى .. ولو كان له قلب لانفطر ، ولكنه كان فظا غليظ القلب

وبينما الرشيد يخاطب جعفرا بمثل ما تقدم ويعاتبه ، ومسرور لايجرؤ على حركة ولا قول .. اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعا وقائلا يقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ، هل أدخل ؟ »

فأجفل الرشيد لأنه عرف صوت اسماعيل بن يحيى ، فأشار الى مسرور بأن يأخذ الرأس ويمضى . ففعل وخرج من باب فى الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب الرشيد فدخل ..

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلا والبغتة بادية على وجهه ، وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ، ولا مشط لحيته أو أصلح من شأنه ، كما ينبغى فى مقابلة الخليفة ..

فلما رآه الرشيد داخلا تجلد ورد التحية وأشار اليه أن يجلس

فجلس على مقعد بعيد عن الرشيد وهو يلهث حتى كاد يختنق من العجلة ، فنهض الرشيد ومشى نحوه وحاول الابتسام ترحيبا به ، ولكن التأثر غلب على تجلده وكظم غيظه

أما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفا وقف تأدبا ، فأمره

بالجلوس وجلس الى جانبه ، وقد أدرك ان اسماعيل انما جاءه فى ذلك الحين لأمر هام ، فاستعجل فى الاستفهام منه عن غرضـه ، فقال اسماعيل : « جئتك شـافعا يا أمير المؤمنين .. وان أبيت فمستمهلا أمرك الى حين »

- ٦٦ -

قضى الأمر

فأدرك الرشيد انه جاءه بشأن جعفر ، وعجب لاطلاعه على أمره مع مبالغته فى الكتمان كما علمت .. وانما عرف اسماعيل ذلك من ريحان — غلام جعفر — بعد مجىء عتبة بالخبر فى ذلك الصباح .. اذ حينما رفض جعفر مقابلتها وأحالها الى ريحان ، قصّت عليه الخبر ، وكان الموكب قد مشى فلم يجرؤ أن يتبعه لئلا تبدو الشبهة لمسرور فوقع فى حيرة وتشاور مع عتبة ، ونظرا لما يعلمانه من صداقة اسماعيل وجعفر أجمعا على الذهاب اليه . فأسرع ريحان الى قصره فوجده جالسا فى الحديقة ، فأخبره بما جرى واستحثه على التوسط لدى الرشيد ، فتعجل فى لبس ثيابه وجاء الى قصر الخلد فمنعه الحراس من الدخول فى بادىء الأمر، ثم أذنوا له فدخل وهو لايعلم بقتل جعفر .. ولم يخطر له أن يعجّل الرشيد بقتله الى هذا الحد . وسأل عن الرشيد فقيل له انه منفرد فى دار الخاصة ، فجاء ودخل كما تقدم

فلما سمع الرشيد قوله ، وعلم انه يشفع اليه فى جعفر تجاهل وقال : « ان شفاعتك مقبولة ، وأمرك نافذ ولو على ولى العهد »

فاستبشر اسماعيل وقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين وحفظ أنجاله .. وانما أنا أشفع اليك فى وزيرك جعفر .. »

فهز الرشيد رأسه وقال : « جئت متأخرا يا ابن العم .. فقد نفذ القضاء »

فلما سمع اسماعيل قوله أجفل وتراجع وقال : « قتلت جعفرا ؟ »

فقال الرشيد : « قتلته .. »

قال اسماعيل : « قتلته يا أمير المؤمنين ؟.. قتلت وزيرك وصاحب خاتمك ومدبّر دولتك ؟ »

قال الرشيد : « لا سبيل الى اطالة القول يا اسماعيل .. ان وزيرى هذا قد قتل بخيانته ، ولوعلمت ما ارتكبه وأنت هاشمى لحكمت عليه بالقتل »

فحسبه اسماعيل يشير الى ماينتهمونه به من حب الشيعة العلوية باطلاقه ذلك العلوى ، وقد تحدثا عن ذلك من عهد غير بعيد . وكان اسماعيل يعتقد انه لايستحق القتل لاطلاعه على سعى أعدائه ووشايتهم به فقال : « ألم يكن أمير المؤمنين قد عزم على ابعاده الى خراسان ثم يفكر فى شأنه ؟ »

فقال الرشيد : « قد كنت عزمت على ذلك ثم رأيت أن التفكير فى أمره وهو فى قبضتنا أقرب الى صيانة ملكنا ونيل مرادنا ، لأنه اذا سار الى خراسان كان فى أهله وأحزابه .. وأهل خراسان

لايزالون ناقمين علينا منذ قتل جدى المنصور أميرهم أبا مسلم .. نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا ، فمن سداد الرأى أن نتدارك الخطر قبل وقوعه »

فقال اسماعيل : « رأى أمير المؤمنين أصوب .. ولكن حساد جعفر كثيرون ، وقد وشوا به وأكثروا ذنوبه وبالغوا فى الطعن عليه ، وأمير المؤمنين حريص على الخلافة لبنى هاشم فعجّل بقتله وربما كان بقاؤه أنفع لمصلحة الدولة ، ولكن قضى الأمر .. »

فلما سمع الرشيد تعريض اسماعيل بذكر الواشين أراد أن يسترق منه أخبارهم لينتقم منهم أو يجتنب أذاهم فقال له : «وهل أنت على يقين من ذلك يا اسماعيل ؟.. ومن هم الواشون ؟ »

فهمّ اسماعيل أن يطلعه على ما يعلمه من سعى ابن الهادى والفضل بن الربيع وغيرهما .. ولكنه أمسك لسانه ، وأعمل فكرته ، فرأى أن التصريح يزيد الخرق اتساعا ويزيد الدولة ضعفا وارتباكا ، وهو حريص على صيانتها كما علمت .. فلو كان جعفر حيا لكان الخطر من التصريح قليلا ، أما وقد قتل فأصبح ذكر الواشين والاقرار بأقوالهم وأعمالهم وشاية أخرى ، فندم على ما بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال : « اذا كنت قد قتلت جعفرا فانها احدى المصيبتين ، فاذا ذكرت لك غيره جررت الدولة الى مصيبة أخرى .. فليعفنى أمير المؤمنين من ذلك ، وهو يعلم رغبتى فى سلامة هذه الدولة ، وقد خالفتنى فيما أردته من تبرئة جعفر..

فلا تكلفنى الوشاية بآخرين ، ولو علمت أن فى ذلك خدمة نافعة ماكتمته .. فأطعنى فى هذا واعلم انى انما أكتمه لخير بنى هاشم ، كما كان تصريحى ببراءة جعفر لنفس هذا السبب .. وأرجو من الرشيد أن لايعدّ كتمانى وقاحة .. واذا عده كذلك فله أن ينتقم بما يشاء ، انى لا أبخل بروحى فى سبيل هذا الكتمان »

وكان الرشيد يجل اسماعيل ، ويعتقد فى اخلاصه وصدق نيته ويضن بحياته فقال له : « ان حياتك عزيزة علينا ياعماه وحاشا لله أن نسىء الظن بك ، وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعنا وأما جعفر فلو كان ذنبه مقصورا على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا فيما مضى ، لأن انحيازه للشيعة لم يكن جديدا علينا . ولكنه ارتكب ما هو أفظع من ذلك كثيرا .. ارتكب ما لو علمته لسبقتنى الى قتله بسببه .. ولا تسألنى عما ارتكبه ، فانى حريص على كتمانه ولو علمت ان يمينى علمت به لقطعتها .. » قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض أساريره وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته ثم هز رأسه وقال : « آه .. آه .. لو أستطيع قتله مرة أخرى لفعلت .. »

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ، ولم يفته الأمر الذى سمعه يلمح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه ، فتجاهل ولو رأى مجالا للكلام ما تكلم لئلا يجر الكلام الى

الجدال بلا فائدة ، لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض ، وحرصه على شرف بنى هاشم ، فظل ساكتا ..

ثم سمعا الآذان لصلاة الظهر ، فنهض الرشيد ، ونهض اسماعيل واستأذن وخرج ..

- ٦٧ -

الحسن والحسين

أما الرشيد فأمر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة فى المسجد ، فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فأنفذ بعض خاصته للقبض على والد جعفر وأخيه وجميع أولاده ، وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما فيها ، فاستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجوارى واستبقوهم لخدمتهم الا ريحان وعتبة .. فانهما فضلا اللحاق بمن قتل ، فقاوما بعض الذين جاءوا للنهب فقتلوهما ، ووجه الرشيد مسرورا الى معسكر جعفر فى النهروان فأخذ جميع ما فيه من مضارب وسلاح وخيام وغير ذلك

وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم ألف انسان ، وترك من بقى منهم لايرجع الى وطنه ، وحبس يحيى بن خالد والد جعفر والفضل بن يحيى أخاه فى مطمورة وأمر بصلب جثة جعفر على جسر بغداد .. فصلبت

فلما اطمأن خاطره ذهب الى زبيدة زوجته ، وأخبرها بما كان فاستحسنت ذلك ولكنها تذكرت الصبيين فقالت له : « لقد فعلت فعل أهل الحزم وأنقذت الخلافة من الأعداء ، ولكن ما الذى فعلته بالصبيين ؟ »

فأطرق الرشيـد وأعمل فكرته فابتدرته زبيدة قائلة : « اذا أردت محو العار الذى لحقنا فبادر الى ازالة أثره لأن بقاء الصبيين وصمة باقية .. »

فقال الرشيد : « وهل تعلمين مقرهما ؟ »

قالت زبيدة : « اذا شئت دللت خادمك على مكانهما .. »

فقال الرشيد : « اخبرى مسرورا بذلك »

فدلته زبيدة على مخبئهما ، ومضى الرشـيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئهما ..

وكان الغلامان قد خبأهما الفضـل بن الربيـع على يد أبى العتاهية فى بيت على شاطىء دجلة ، وأوقف عليهما الحراس فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد بعد أن قتل رياشا وبرة الخادمين القائمين على تربيتهما

ولما جاء مسرور بالغلامين أدخلهما على الرشيد ، وكان جالسا على وسادة وحده ..

فدخل الغلامان وهما يدرجان ويضحكان ووجهاهما يطفحان سرورا وسذاجة وطهارة ، يحسبان أن مسرورا جاء بهما الى فرجة أو وليمة ، فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه أسفا على ماسينالهما من الأذى ، لعلمه بأنهما بريئان طاهران .. ولكنه كان قد صمم على محو أثر تلك الخيانة من الوجود ، فتجلد ودعاهما

اليه ، فأسرعا وتراميا عليه وهما يلتفتان لمشاهدة ما فى تلك القاعة من الرياش الفاخر والألوان الزاهية

فسأل الرشيد أكبرهما : « ما اسمك يا قرة عينى ؟ »

قال : « الحسن »

فقال الرشيد للصغير : « وما اسمك ياحبيبى ؟ »

قال : « الحسين »

فأعجب الرشيد بمنطقهما لأن لغتهما وفصاحتهما هاشمية ، ثم أعمل فكرته فيما هو عازم عليه من الأمر الخطير وهو والد يحب أولاده ، ولو لم يكن والدا لكان الاقدام على ذلك العمل أسهل عليه لأن الحنان لا ينضج ويبلغ أشده الا فى قلوب الوالدين ، والوالد لا يقصر حنانه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن على كل ولد .. وزد على ذلك ان فى الغلامين دما هاشميا ، والقرابة من أسباب العطف فعظم الأمر على الرشيد ، ولبث حينا يفكر والغلامان يلاعبانه ويعبثان بلحيته وطوقه حتى كاد الحنان يغلب عليه ، فتذكر ما هو فيه وخشى غلبة الضعف فعاد الى الحزم وسرعة الفتك لئلا يحول بينه وبين ذلك شفيع ، فعمد الى قتلهما على أن لايرى ذلك بعينيه ولا يسمعه بأذنيه . فتصادمت عواطفه وجاشت أشجانه ، فغلب عليه البكاء وأغرق فيه حتى منعه من الكلام والغلامان يتعجبان لبكائه . أما هو فنظر اليهما والدمع يترقرق فى عينيه وقال : « يعز على حسنكما وجمالكما .. لا رحم

الله من ظلمكما » ثم قال : « يا مسرور أين المفتاح الذى دفعته اليك .. وأمرتك بحفظه ؟ »

فقال مسرور : « هو حاضر يا أمير المؤمنين »

قال الرشيد : « فأتنى به .. »

ثم دعا الرشيد بجماعة من الغلمان وأمرهم أن يذهبوا مع مسرور الى تلك الحجرة ، ويحفروا فيها حفرة عميقة وأومأ الى مسرور بأن يقتل الغلامين ويدفنهما فى تلك الحجرة .. أومأ بذلك وهو يبكى بكاء شديدا حتى ظن مسرور انه رحمهما ولا يلبث أن يعدل عن قتلهما ، فاذا هو قد مسح عينيه ونهض وأشار الى مسرور بأن يمشى .. فأطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ، ثم عاد وأخبر الرشيد بأنه قتلهما ودفنهما هناك وقتل الرجال الذين ساعدوه على ذلك

وأمر الرشيد منذ ذلك اليوم أن لايذكر البرامكة فى مجلس ولا يستعان عن بقى منهم فى شىء أبدا . فخرجوا على وجوههم هائمين فى البلاد شاردين متنكرين جائعين (١) عارين ، وأصبح الناس يتحدثون بنكبتهم مثل حديثهم بثروتهم وسخائهم . وخلا الجو لأعدائهم فنالوا ما تمنوه من التنكيل بهم وتولوا مصالح الدولة بعدهم ، ولا سيما الفضل بن الربيع .. فانه تقلد الوزارة وصار اليه الأمر .. فسبحان مغير الأحوال

(١) اعلام الناس للاتليدى ١١٧ ـ وابن خلكان ١٠٥ ـ الجزء الاول